







حول العالم في كتب

بإشراف

الدكتور عز الدين فريد

(١٠)

البرازيل...

شعبها وأرضها

نشر هـذا الـكتاب بالاشتراك

مـــع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

مارس سنـة ١٩٦٩

البرازيل...
شعبها وأرضها

تأليف

روز براون

ترجمة

العميد أركان حرب

محمد عبد الفتاح ابراهيم

مراجعة وتقديم

الدكتور عز الدين فريد

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي - القاهرة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلفة : روز براون

المترجم : محمد عبد الفتاح إبراهيم : عميد أركان حرب . ماجستير فى العلوم العسكرية . دبلوم الدراسات العليا فى التاريخ والآثار السودانية من معهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة . صحفى ومؤلف ومترجم كتب وترجم فى موضوعات كثيرة متنوعة من الدراسات المنزلية إلى العلوم الاجتماعية ودراسات الاستراتيجية والحرب . كتب عن النبى محمد « محمد القائد » وأرخ لكلاوزيفتز ، وسوفورف ، والمدارس العسكرية فى العالم . (انتقل إلى رحمة الله فى أثناء طبع هذا الكتاب) .

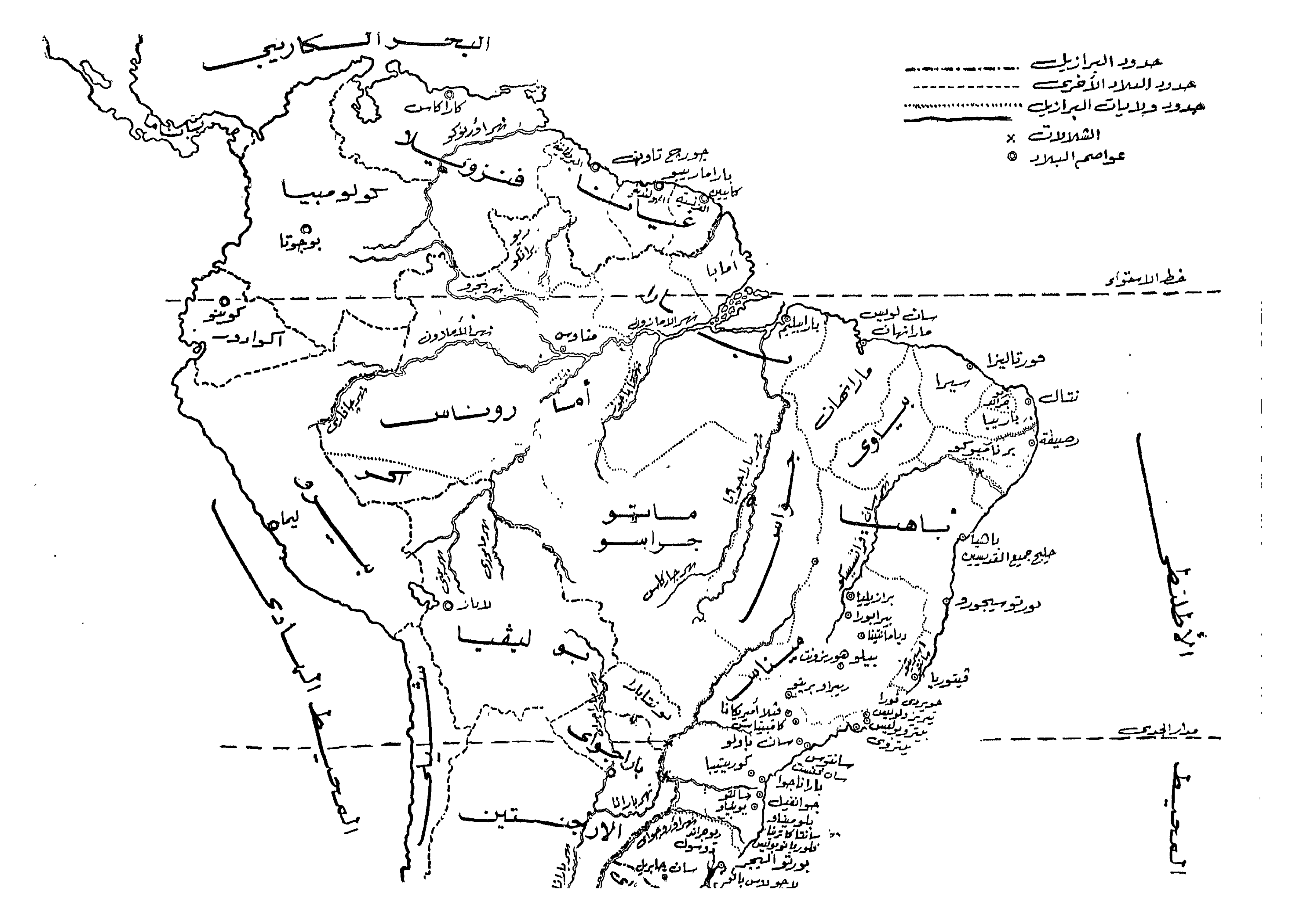
المراجع وصاحب المقدمة : الدكتور عز الدين فريد : رئيس قسم الجغرافيا بكلية الآداب بالجامعة الأردنية . تخرج فى مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة سنة ١٩٢٨ ، حصل على درجة الليسانس من جامعة ليفربول سنة ١٩٣٢ ، وعلى الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٣٧ . عمل أستاذا بكلية التجارة بجامعة القاهرة من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٥٥ ، ثم عميدا لكلية الآداب جامعة القاهرة من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦٢ ، ومديرا لمعهد الدراسات الأفريقية من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦٤ ، ثم رئيسا لمجلس إدارة الدار القومية للطباعة والنشر ، ثم وكيلا لوزارة الثقافة .

مصمم الغلاف : وفدى بطرس أيوب .



محتويات الكتاب

صفحة



حدود البرازيل
حدود البلاد الأخرى
حدود ولايات البرازيل
الشلالات
عواصم البلاد
البحر الكاريبي
كولومبيا
بوجوتا
فنزويلا
كاراكاس
نهر أورونوكو
غيانا
جورج تاون
باراماريبو
كايين
أمابا
خط الاستواء
كويتو
أكوادور
نهر الأمازون
ماناوس
أمازوناس
بارا
بيليم
سان لويس
مارانهاو
بياوي
سيرا
فورتاليزا
نتال
رسيفة
برنامبوكو
باهيا
ماتو جراسو
جوياس
بيرو
ليما
بوليفيا
لاباز
باراجواي
الأرجنتين
نهر بارانا
سان باولو
كوريتيبا
ڤيتوريا
مدار الجدي
المحيط الهادي
المحيط الأطلسي



تقديم
بقلم الدكتور عز الدين فريد

إذا نظرنا إلى خريطة سياسية لأمريكا الجنوبية فإن أول مايلفت نظرنا هو وجود دولة ضخمة تكاد تشغل نصف مساحة القارة ، تبدأ حدودها من شمالى خط الاستواء ، وتمتد جنوباً حتى تتجاوز مدار الجدى . إن هذه الدولة العملاقة — وهى البرازيل — تعد من دول العالم الكبرى من حيث المساحة ، كما أنها تأتى الثامنة فى الترتيب من حيث عدد السكان الذين بلغوا ٩٠ مليون نسمة . وتتسع مساحة البرازيل الحالية لما يقرب من مائة دولة من حجم البرتغال — وهى الدولة الأوربية القزمية التى تحكمت فى البرازيل مايزيد على ثلاثة قرون .

وكعادة المستعمرين فى البلاد التى يحتلونها ، احتكرت البرتغال تجارة البرازيل من صادرات وواردات ، وحققت من وراء ذلك ثروة ضخمة ، ولكنها كانت تعتمد على جلب الأيدى العاملة من إفريقية فى شكل رقيق. كما أنها استغلت السكان الوطنيين من الهنود الحمر أسوأ استغلال .

وقد تعرضت بعض أجزاء هذه المستعمرة البرتغالية الكبيرة لغزوات من الفرنسيين والهولنديين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ولكنها لم تدم طويلا ؛ لأن الغزاة كانت لهم مصالح أخرى تستدعى كل اهتمامهم فى أمريكا الشمالية وإفريقية وآسيا .

وفى أوائل القرن التاسع عشر تضافرت عدة ظروف للتعجيل

باستقلال البرازيل ؛ إذ عندما غزا نابليون البرتغال عام ١٨٠٨ فرت الأسرة المالكة البرتغالية إلى البرازيل وكونت حكومة فى المنفى ، على رأسها الأمير « جون » الذى كان وصياً على والدته الملكة « ماريا » لما كانت تعانيه من مرض عقلى . فلما توفيت الملكة تولى « جون » الحكم ، واستطاع البرازيليون أن ينتزعوا منه دستوراً قبيل عودته إلى البرتغال عام ١٨٢١ . وكان « جون » قد عين ابنه « بدرو » وصياً على البرازيل قبل أن يغادرها . غير أن « بدرو » لم يطق أن يتلقى الأوامر من البرتغال ، فتزعم حركة وطنية انفصلت بها البرازيل عن الدولة المستعمرة ، وأعلنت استقلالها عام ١٨٢٢ كحكومة ملكية على رأسها الإمبراطور « بدرو » الأول . وفى عام ١٨٨٩ قامت ثورة أطاحت بالحكم الملكى ، وأصبحت البرازيل منذ ذلك التاريخ جمهورية باسم « الولايات المتحدة البرازيلية » ، إلى أن صدر دستور البلاد الأخير عام ١٩٦٧ وجعل اسم البلاد « البرازيل » .

ولعل أهم ما ترتبط به البرازيل فى ذهن الشخص العادى هو أنها دولة البن . ومع أن هذا المحصول لا يزال يمثل نحو نصف صادرات البلاد من حيث القيمة ، إلا أن أهميته النسبية فى حياة البلاد الاقتصادية آخذة فى التناقص بسبب تنمية موارد الدولة الأخرى ، سواء الزراعية منها أو المعدنية والصناعية . ففى الميدان الزراعى تعتبر البرازيل من دول العالم الهامة فى إنتاج كل من القطن وقصب السكر — اللذين يمثلان معاً نحو ١٠ ٪ من قيمة صادراتها . وهى تأتى الثانية بعد غانا فى إنتاج الكاكاو ، ولا يفوقها سوى الولايات المتحدة فى إنتاج البرتقال . وللبرازيل إنتاج ضخم من الذرة

يضعها فى المرتبة الثالثة فى العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، كما أنها أكبر دولة خارج آسيا الموسمية فى إنتاج الرز . أما بالنسبة إلى القمح فإن البرازيل لاتنتج مايكفى حاجتها منه ، ولذلك تبرز هذه الغلة فى وارداتها .

ولا يزال استغلال الثروة المعدنية فى البرازيل فى مراحله الأولى ، ومع ذلك فإن ما كشف منها حتى الآن يبشر بمستقبل هام للبلاد فى الإنتاج المعدنى — فيما عدا مواد الوقود كالفحم والبترول التى لم يتحقق وجودها بالكميات التى تفى بحاجة البلاد . وقد كشفت حديثاً طبقات من الحديد الخام تعتبر من أغنى ما عرف منها فى العالم ، ســـواء من ناحية الكمية (٣٥٠٠٠ مليون طن) أو من ناحية النوع الذى يماثل أجود أنواع الحديد السويدى . وقد أصبح الحديد الخام بفضل هذا الكشف ثانى صادرات البرازيل بعد البن .

والخلاصة أن البرازيل ينتظرها مستقبل اقتصادى كبير، وقد لا ينتهى هذا القرن إلا وتكون فى مصاف قوى العالم الكبرى كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين .

أما شعب البرازيل فيضم عناصر متعددة ، منها الهنود الأصليون ، ثم الإفريقيون الذين قامت على أكتافهم الزراعة فى أيام الرقيق ، والأوربيون من جنسيات مختلفة ، ولكن يغلب فيهم البرتغاليون ، وبعض الآسيويين مثل اليابانيين . وقد حدث امتزاج على نطاق كبير بين بعض هذه العناصر وبعضها ، وإن كانت العناصر الأوربية لاتزال تحتفظ بنقائها إلى حد كبير .

غير أن الجميع يشعرون أنهم برازيليون ، لايشوب علاقاتهم تمييز عنصرى، أو تفرقة فى المعاملة من أى نوع .

وفى مجال التعليم خطت البرازيل خطوات واسعة ، وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى . فأنشئت أول جامعة بها فى « ريودى جانيرو » عام ١٩٢٠ ، ويبلغ عدد الجامعات فى الوقت الحاضر ٢٤ جامعة . وتعمل الدولة جاهدة على التوسع فى التعليم فى شتى مراحله لارتباط ذلك بخطط تنميتها .

وقد أدركت مؤلفة هذا الكتاب أن البرازيل شبه قارة ،وأن عرض جميع الحقائق الطبيعية والبشرية الخاصة بها لايمكن أن يستوفى فى كتاب من هذا الحجم . ولذلك إختارت المؤلفة أن تنتقل بالقارىء فى رحلات جوية سريعة من مدينة إلى أخرى ، وركزت اهتمامها على ما يلفت نظر الزائر من ملامح هذه المدن وطباع أهلها وعاداتهم ، ونجحت فى إعطاء القارىء صوراً حية لكل ماشاهدته حتى لكأنه كان برفقتها وهى تقوم بجولتها فى أرجاء البرازيل الواسعة .

إن هذا الكتاب الذى يصدر عن مؤسسة فرانكلين يضيف إلى المكتبة العربية معلومات شائقة عن شعب قريب إلى قلوب العرب ، وعن بلاد وجد فيها كثير من أبناء الأمة العربية وطناً جديداً يسهمون فى تقدمه وإعلاء شأنه .

١

نصف أمريكا الجنوبية

من الصعب أن نتحدث عن « الولايات المتحدة البرازيلية » دون أن نستخدم باستمرار أفعل التفضيل مثل « أكبر » و « أعظم » . وكبداءة للحديث فإن البرازيل أكبر دول أمريكا الجنوبية ، فهى ثلاثة أضعاف مساحة الأرجنتين ، وثمانية أضعاف مساحة كولومبيا أو بوليفيا . وإذا ما اقتطعنا من الولايات المتحدة الأمريكية الولايتين الجديدتين : ألاسكا وهاواى ، كان الجزء الباقى أصغر من مساحة البرازيل ، على حين أنه يجب أن تضم الجزر المتجمدة فى المنطقة القطبية إلى مساحة كندا حتى تزيد مساحتها على مساحة البرازيل . وليس فى باقى العالم دول أكبر مساحة من البرازيل إلا الاتحاد السوفييتى والصين(١) .

فإذا ما انتقلنا للتحدث عن البرازيل من الناحية الجغرافية فإن أنهارها من أطول أنهار العالم ، وبخاصة الأمازون وفروعه ، ويمكن أن تدخل السفن عابرات المحيط فى النهر إلى مسافة ألفى ميل حتى بيرو . وتبلغ

---

(١) مساحة البرازيل ٣٫٢٨٧٫١٩٥ ميلا مربعاً ، وتمتد أرضها ٢٦٨٣ ميلا من الشمال للجنوب و٢٦٨٩ ميلا من الشرق إلى الغرب ، وجملة السكان كإحصاء سنة ١٩٥٨ تبلغ ٦٣٫١٠٢٫٠٠٠ ، ونسبة كثافة السكان ١٩٫٢ للميل المربع الواحد . « أطلس دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٦١ ص ٨٦ » .

مساحة الحوض الذى تنصرف فيه مياه نهر الأمازون ضعف مساحة حوض نهر المسيسبي . وللأمازون قرابة مائة فرع وروافد صالحة كلها للملاحة . وإذا ماوضعنا فى الحسبان بعض الفروع التى تمتد إلى أراضى البلاد المجاورة لوجدنا أن السفن البخارية تستطيع أن تسير فى النهر وفروعه إلى مسافة عشرين ألف ميل ، أى مايقرب من طول المسافة حول العالم .

وتقع على طول شاطىء النهر أعظم الغابات والأحراش التى تحتوى على أنواع من الأشجار لا يحصيها عد ، ولقد صنفت إحدى شركات نشر الخشب على الأمازون نحو سبعة آلاف نوع من الخشب تشتمل على أصلبها عوداً وأثقلها وزناً « كخشب الحديد » الذى ينغمر فى الماء ، وعلى خشب « البلسا » الذى يطفو كالفلين ، ومع هذا فهو من القوة والصلابة بحيث يستعمل فى صنع هياكل الطائرات .

ويطلق البرازيليون على شبكة نهر بلاتينا المائية المكونة من أنهار « بارانا » و « براجواى » و « أورجواى » والتى تجرى فى أقصى الطرف الجنوبى لهذه البلاد الفسيحة . . يطلقون عليها المجموعة المناظرة والمنافسة للأمازون . فأحد أنهارها — وهو نهر براجواى — تنصرف إليه أكبر منطقة مستنقعات فى الكرة الأرضية ، كما تقع فى مجرى نهر بارانا أعظم مساقط مائية فى العالم — وهى التى تسمى « سيتى كيداس » Sete Quedas أو « المساقط السبعة » .

وقليل من البلاد لها سواحل يمكن أن تقارن بطول سواحل البرازيل التي تصل إلى ٥٠٠٠ ميل ، بل إن سواحل البرازيل أطول من سواحل الولايات المتحدة على المحيطين الأطلنطي والهادي معاً . وفي البرازيل أيضاً أعمق منجم للذهب ، كما أنها تستقبل أكبر كمية من المطر في العالم .

وترجع شهرة البرازيل العالمية أساساً إلى أنها البلد الذي يجيء منه البن الذي تصنع منه القهوة . ففي الولايات المتحدة يشرب كل أمريكي يافع ثلاثة فناجين من القهوة كل يوم ، يجيء اثنان منها من البرازيل .

وفي أثناء التسابق لإنتاج أكبر كمية من الكاكاو ، وصلت البرازيل إلى مكان الصدارة إبان الحرب العالمية الثانية . وتنتج البرازيل من التبغ ما يكفي لاستهلاك الأهلين محلياً مع فائض للتصدير . ويجيء في مقدمة ما يستخدم للغذاء من إنتاج البحر ، ومن حيوانات الصيد أكبر أنواع المحار والضفادع والتماسيح والأفاعي والطيور . وهذه كلها بعض أمثلة تستلزم استخدام كلمات التفضيل التي نحتاج إليها لوصف تلك البلاد التي تزيد على نصف أمريكا الجنوبية ، والتي تشغلها الولايات المتحدة البرازيلية ، ولكنها تكفي كي توضح لك أنك لو أردت الرحلة لمسافات طويلة في هذه البلاد غير العادية فلا بد لك من أن تخترع زوجاً من النظارات التي تخترق الطبقة الجوية العليا ، والتي تمكنك من التحديق لمسافات ساحقة البعد ، وإلا لما استطعت أن ترقب الكثير ، حتى ولا من الطائرة النفاثة السريعة التي ستمتطي بها الهواء بادئاً رحلتك إلى البرازيل . ومع تعدد الطرق

الجوية فالعادة أن تبدأ المرحلة الأخيرة لرحلتك من مدينة نيويورك، ويجب أن تكون نظاراتك البعيدة المدى صالحة أيضاً لحماية عينيك من أشعة الشمس ، ذلك لأن طائرتك ستتجه من فورها إلى المنطقة الاستوائية حيث يشتد ضوء الشمس .

ولكى تحدد اتجاهات رحلتك فانظر إلى خريطة العالم ، أو لعل الأفضل أن تحضر قطعة من خيط الدوبارة ، وتقوم برحلة تمهيدية على أحد نماذج الكرة الأرضية فى مكتبة من المكتبات ؛ ضع أحد طرفى الخيط على مدينة نيويورك ، ومد الخيط باستقامة إلى مدينة ريو دى جانيرو ، وسترى أن أقصر الطرق وأقرب المسالك لتسير عليه هو الخط المستقيم الذى رسمته بهذا الخيط بين المدينتين الكبيرتين .

ومع أن طائرتك تنحرف قليلا هنا أو هناك لتهبط فى مطار « سيوداد تروخيلو » Ciudad Trujillo فى جمهورية الدومينيك وفى مطار « بيليم » بالبرازيل ثم فى « ريو دى جانيرو » ، إلا أن مسارها مستقيم كما يطير الطير عبر البحر الكاريبى ووسط فنزويلا حتى تقف فى أول وقفة لها بالبرازيل فى مدينة « بيليم » . وإذا تتبعت هذا الخط الذى مددته على الطريق إلى مدينة ريو دى جانيرو فستجد أنك قطعت مسافة قدرها خمسة آلاف ميل .

وهذا الطريق المباشر من نيويورك إلى ريو دى جانيرو هو الذى يسميه الجغرافيون « طريق الدائرة العظمى » وقد سمى كذلك لأنه يتبع القوس أو الدائرة التى تمثل أقصر مسافة بين نقطتين على سطح الكرة الأرضية ،

ولا يوجد طريق أقصر من ذلك إلا إذا تصورت أنك تستطيع أن تخترق القشرة الأرضية ، وتنفذ خلالها كما تفعل الديدان .

وخليق بك، وأنت على أهبة الرحيل ،أن تعرف إلى أين أنت ذاهب ، فضع نظاراتك البعيدة المدى لأنك ستبدأ المرحلة الأولى من رحلتك إلى « سيوداد تروخيلو » . وإذا كانت نظاراتك البعيدة المدى تعمل عملها جيداً فسيبدو لك منظر البرازيل عن بعد فور عبورك البحر الكاريبى .

وأول ماستلاحظه أن البرازيل شديدة الشبه بقارة أمريكا الجنوبية : فهى مثلثة الشكل تقريباً تضيق مساحتها نحو الجنوب . ولما كانت البرازيل أكبر البلاد الاستوائية مساحة فإن أغلب أرضها تقع فى المنطقة المدارية بين خط الاستواء ومدار الجدى ، ولكن الطرف الجنوبى من البرازيل يمتد فى المنطقة المعتدلة ،وهنا (فى هذه المنطقة المعتدلة) تقع الولايات الثلاث الباردة نسبياً : بارانا — سانتا كاترينا — وريو جراند دوسول . وتكاد باقى أجزاء البرازيل لاترى الثلج أو الصقيع على الإطلاق ، وحتى فى الطرف الجنوبى يعتبر الثلج إحدى العجائب ، حتى إنه عندما يتساقط يسرع الناس بآلات التصوير لالتقاط صور له .

والسبب فى تعرج أضلاع المثلث الذى يكون البرازيل هو أن كل حدودها تقريباً حدود طبيعية تتكون من الماء . والطرف الشرقى الذى يمكن أن نطلق عليه « انبعاج » البرازيل يمتد لمسافة طويلة فى المحيط الأطلنطى ، أكثر من أية نقطة أخرى فى نصف الكرة الغربى . ولما كانت هذه النقطة تقع على مسافة ١٦٠٠ ميل فقط من إفريقية فإن مدينة

« ناتال » — الواقعة على الحافة الشرقية لهذا الانبعاج — كانت نقطة الوثوب لطائرات الولايات المتحدة الحربية فى طريقها إلى إفريقية وإلى البحر المتوسط .

وتتاخم الحدود الداخلية للبرازيل التى يبلغ طولها نحو ١٠٫٠٠٠ ميل كل دول أمريكا الجنوبية عدا شيلى واكوادور . وتكون الأنهار كثيراً من تلك الحدود بين البرازيل وجاراتها ، وهى تتعرج فى مجاريها عبر تلك الحدود . ولما كانت هذه الأنهار تفيض بانتظام كل عام فى المواسم الممطرة ، فإن مجاريها تتغير باستمرار ، مما يزيد تعقيد الخطوط التى تمثل الحدود .

وفى الشمال يفصل نهر « أويابوك » Oyapoc البرازيل عن « جيانا الفرنسية » ، كما يجرى فرعان لنهر « ريوبرانكو » بين جيانا البريطانية وبين البرازيل . ويكون نهر « جافارى » خط الحدود الطويل مع بيرو ، كما تكون أنهار « مديره — بينى — براجواى » الحدود مع بوليفيا . وتجرى أجزاء من نهرى بارانا وبراجواى بين البرازيل وبين براجواى فى الجنوب ، فى حين يكون نهر أوروجواى الجزء الأكبر من خط الحدود الذى يفصل البرازيل عن الأرجنتين . وهناك عشرات من مجارى المياه الصغيرة الأخرى التى تكاد فائدتها تقتصر على بيان خط الحدود فى المناطق النائية .

وبوجه عام ستشاهد من خلال نظاراتك البعيدة المدى ثلاث شبكات

أنهار عظيمة تصب فيها كل هذه الجداول وتنصرف إليها مياه كل هذه الأراضى تقريباً . ففى الشمال يوجد نهر الأمازون ، وفى الوسط والجنوب مجموعة أنهار « بلاتينا » التى تتكون من أنهار بارانا وبراجواى وأوروجواى ، وعلى الجانب الأطلنطى يوجد نهر (ريو) سان فرنسيسكو الذى يطلق عليه البرازيليون « نهر الوحدة » ؛ ذلك لأنه فى مطلع تاريخ تلك البلاد كان يربط بين الولايات الهامة الواقعة على الساحل وبين الأقاليم الداخلية ، فأتاح للمستوطنين وسيلة للمواصلات ربطت بينهم وجعلت منهم أصدقاء ضمتهم فيما بعد أمة واحدة .

والواقع أنك إذا فحصت هذه المساحة الكبيرة من سطح الأرض بوساطة نظاراتك الخاصة فستلاحظ أن أهم ما يميزها هو الأنهار التى تتباعد بعضها عن بعض حتى لتبدو وكأنها خطوط متعرجة تذكرك بالأوردة والشرايين فى الدورة الدموية للإنسان ، كما توضحها صورة فى أحد كتب علم وظائف الأعضاء أو علم الفسيولوجيا. فكانت الأنهار فى أهمية الشرايين فعلا، لأنها ساعدت على انتشار السكان فى البرازيل . فتتخذ المدن مواقعها على ضفاف الأنهار كحبات الخرز التى ينتظمها خيط العقد . وقد انتشر الاستيطان والحضارة بادىء ذى بدء على الساحل ، ثم توغلا فى البلاد عن طريق الأنهار . وحتى اليوم فإننا إذا ابتعدنا عن مجارى المياه نلقى مساحات كبيرة من الأرض وليس فيها قرية واحدة . ولا يقع نظر الإنسان فى هذه الأراضى المقفرة حتى على سحابة دخان خفيفة تتصاعد من كوخ رائد ،

أو من معسكر هندى ، لأن كثافة السكان لا تكاد تبلغ نفراً واحداً فى كل مائة ميل مربع .

لم يكن هناك فى بادىء الأمر طرق ممهدة تصلح لسير العربات إلا بالقرب من المدن . وكانت الدروب الضيقة وعرة ، وكثيراً ما كانت خطرة شديدة الانحدار . ومن ثم كان الناس ينتقلون من مكان إلى آخر إما مترجلين وإما على ظهور الخيل ، فى حين كان علية القوم يحملون فى مقاعد السلال بوساطة الرقيق أو فى أراجيح من شباك على أكتاف بشرية ، فإذا كان الدرب يسمح وضعت محفة على هودج « عريش » بين بغلين أحدهما أمام الآخر ، وفى داخل هذه البدعة التى تشبه الحقيبة الكبيرة يجلس مسافر أو اثنان فى راحة تامة ، على حين يسير سائق أمام كل من البغلين حتى يسيرا بخطى منتظمة .

ويرجع أول خط حديدى أنشىء فى البرازيل إلى عام ١٨٥٤ ، وكان طوله أقل من تسعة أميال . وقد تم مد عدة خطوط حديدية فى العشرين السنة التالية ، ولكن مجموع طولها إلى الآن لا يزيد على نحو ٢٣،٠٠٠ ميل ، أو ما يعادل طول حدود البلاد تقريبا .

وإذا نظرت إلى البلاد من طائرة مرتفعة فستشاهد خطوطاً حديدية فردية تتجه من الساحل إلى مسافات قصيرة فى الداخل وجميعها فى الجزء الشمالى . أما شبكات الخطوط الحديدية فلا توجد إلا حول « ريو دى جانيرو » و « ساو باولو » و « بيلو أوريزونتى » وفى الجنوب .

والواقع أن ست ولايات فقط من ولايات البرازيل هى التى تحتوى

على مايشبه خدمة بالخطوط الحديدية . فالنقل بالسكك الحديدية لم يجار النمو والتقدم الذى سارت فيه البلاد ، ومن حسن الحظ أنها لم تعد بحاجة إلى هذا لأن البرازيل قد اجتازت جزئياً عصر الخطوط الحديدية ، ووثبت وثبة واسعة نحو عصر السيارات والخطوط الجوية .

ولقد كانت الجبال السبب فى تعطيل مد الخطوط الحديدية ؛ إذ تشرف حافة الجبال المرتفعة على طول الساحل الأوسط ، وتنقسم فى الداخل إلى عدة سلاسل وعرة ذات ممرات يصعب اختراقها .

وكانت هذه الأرض الوعرة مغطاة ذات يوم بغابات من الخشب الصلب مثل « الموجنة » Mahogany وأخشاب الصباغة Dyewood مما عاد بالثروة على المستوطنين الاولين ، ولكنها فى الوقت نفسه أقامت حاجزاً صخرياً يتراوح عرضه بين مائة ومائتى ميل ، مما حال دون انتشار المستوطنين من المحيط إلى الداخل .

ثم إن تلك الجبال واجهت مهندسى السكك الحديدية فيما بعد بمشكلة عويصة . وللمرء أن يتساءل عن كيفية تطور تاريخ الولايات المتحدة فى سنواته الأولى لو أن جبال « الليجانى » تشابهت مع سلسلة البرازيل الساحلية فى ارتفاعها المفاجىء من المحيط ، عازلة الموانىء عن داخل البلاد على طول ساحل الأطلنطى من « بوسطن » شمالا حتى « شارلستون » جنوباً .

وليس لهذه الجبال ماتفخر به إلا عمرها المديد الذى يرجع إلى عصور

سحيقة ؛ إذ يعتقد بعض الجيولوجيين أنها كانت أول ماظهر من أراضى أمريكا الجنوبية فوق سطح البحر . ولكن لايمكن استخدام ألفاظ التفضيل فى وصف حجمها ؛ إذ لاتوجد فى جميع المنطقة الجبلية الواقعة غربى نهر سان فرنسيسكو وعلى طول الحدود بين البرازيل وبين فنزويلا وبلاد جيانا قمم مرتفعة يمكن أن تقارن بقمم جبال الأنديز . ولا توجد فيها براكين حديثة ثائرة مازالت ساخنة تنفث الدخان من فوهاتها ، فهذه جبال مجهدة أدركتها الشيخوخة ، وسفوحها الجرانيتية عارية قد نحتتها وشققتها الأمطار الاستوائية المستمرة والحرارة اللافحة التى تعرضت لها لآلاف السنين ، ومن ثم فإن أعلى قممها لا يزيد ارتفاعه اليوم على ١٠٫٠٠٠ قدم . وتنفرد المناظر الطبيعية فى البرازيل بالصخور المتبلورة العادية المدببة كالإبر أحياناً ، والتى تختلف ألوانها من اللون الوردى إلى اللون الأسود ، وتبرز هذه الصخور وسط مساحات شاسعة من الأراضى الخضراء اليانعة التى تمتدمن فنزويلا وجيانا إلى السهول الجنوبية الكبرى ، ثم إلى الأرجنتين وباراجواى وأوروجواى فيماعدا منطقة كثبان وصحراء تظهر كبقعة بيضاء وسط الانبعاج البرازيلى . وحتى هذه نجدها محاطة بإطار سميك من أشجار النخيل .

وعندما يتكلم البرازيليون عن جغرافية بلادهم فإنهم يستخدمون كلمة « بندوراما » Pindorama ولها عندهم معنى خاص جداً ؛ فهم يقصدون بكلمة « بندوراما » جميع ذلك المنظر الفسيح الذى مكنتك نظاراتك السحرية من رؤيته . . حافات الجبال على طول الساحل ، والحدود الشمالية ،

والأنهار الثلاثة التي لاترى نهاياتها ، والتي تمتد متوزعة منتشرة فى بحار داخلية ، أو تندفع فى مساقط مياهها الرهيبة نحو المحيط الأطلنطى ، والغابات والبرارى الدائمة الخضرة ، وإلى جانب هذا يقع نظر الإنسان هنا وهناك على الأزهار الاستوائية والأشجار المحملة بالفاكهة ، وهى جزء هام من الجمال الذى يعتبره البرازيليون « بندوراما » بلادهم . وتمتد هذه البندوراما إلى السماء أيضاً لتشمل الشمس البراقة المتوهجة التى تضىء الأرض نهاراً ، ومجموعة نجوم الصليب الجنوبى الذى يلمع فى أثناء الليل . وهذه وتلك موضع حب وتقدير البرازيليين ، حتى إن بعضهم يقولون إنهم مازالوا يعبدون الشمس كما يعبدها كثيرون من هنود أمريكا الجنوبية . و « الصليب الجنوبى » الموضوع على العلم البرازيلى يمثل حقاً هذه المثالية القومية .

أما الهنود الذين اخترعوا كلمة « بندوراما » فقد أعطوها معناها الأصلى ، وهو « أرض النخيل » ، ولقد كان هذا وصفاً دقيقاً ؛ ذلك لأن أشجار النخيل تتوافر فى كل مكان حتى فى أقصى الجنوب حيث يميل الجو إلى البرودة .

وهناك على الأقل اثنا عشر نوعا من النخيل التى تثمر البندق والفاكهة التى تشبع وتغنى الأمة ، كما توجد عشرات الأنواع الأخرى التى تمد الناس بالألياف النافعة ، فضلا عما يضفيه منظرها على الطبيعة من جمال .

وعندما يغترب البرازيليون بعيداً عن وطنهم وخاصة ، فى البلاد الشمالية ، فإنهم يفتقدون الشمس ، كما يفتقدون الصليب الجنوبى ، ولكنهم

يفتقدون نخيلهم أكثر من أى شيء آخر . وأحب القصائد الشعرية القديمة إلى نفوس البرازيليين تلك القصيدة التى نظمها منمدة طويلة الشاعر البرازيلى « جونسالفس دياس » ، وكان يقيم فى باريس ويشعر بالحنين إلى وطنه . وقد جاء فى مطلعها :

بلادى بلاد النخيل
حيث تنشد الطيور الساحرة أغنياتها
ولكن الطيور التى تشدو وتغرد هنا
لا تصدح بألحان كألحان طيورنا

الطرق الجوية والطرق البرية

إنك تجتاز الآن خط الاستواء الوهمى ، وتطير فوق البرازيل نحو ميناء « بيليم » الجوى ، ويبدو كساء الطبيعة أسفلك كقطعة من القطيفة الخضراء الناعمة الملمس . فتمد اندمجت السهول والسلاسل الجبلية فجأة فى الغابة الكثيفة لحوض الأمازون الحتميق الذى يغطى نصف أرض البرازيل تقريباً ، والآن والطائرة تهبط بك يحسن أن تخلع عن عينيك نظاراتك البعيدة المدى .

وعاصمة ولاية بارا ، مثلها كمثل غيرها من العواصم الساحلية ، يطلق عليها عادة اسم الولاية التى هى عاصمتها ، ومع هذا فاسمها الحتميق : « نوساسنورا دى بيليم دوجران بارا » أو « سيدتنا من بيت لحم سيدة بارا العظيمة » أو « بيليم » فقط للإيجاز . وستكون هنا وقفتك الأولى ، فإن بيليم أقصى موانىء البرازيل فى الشمال ؛ إذ تقع على دائرة عرض ٢ جنوب خط الاستواء .

ومع أنك قد وصلت بطريق الجو إلا أنه كان الأكثر طرافة أن تصل بالبحر ؛ ذلك لأنه بهذا الطريق تستطيع أن تشاهد أحد المصبات العظيمة لنهر الأمازون ، فإن مياه النهر تصبغ مياه المحيط بلون أصفر لمسافة أميال كثيرة قبل أن تدخل سفينتك فعلا مصب النهر ، ثم تسير بعد ذلك فى النهر ذاته مسافة ثمانين ميلا . وتختلف جزيرة « ماراخو » Marajo التى

إلى يمينك والتى تكاد تبلغ مساحة فرنسا ، كما تختلف السواحل الاستوائية التى إلى يسارك كل الاختلاف عن الأمازون الذى ستشاهده عند « ماناوس » Manaus . كذلك تختلف السفن التى تسير بين جزيرة « ماراخو » وبين الأرض الرئيسية وقد لونت أشرعة الكثير منها بمختلف الألوان ، كما شيدت هياكلها فى رشاقة مما يبرز أمامك صورة جميلة .

ولكن سواء أجئت بالسفينة أم جئت بالطائرة فإن أول مشهد سيلفت نظرك هو المطار الكبير الذى أنشىء فى الحرب العالمية الثانية ، والذى جعل من « بيليم » الميناء الجوى الرئيسى للبرازيل . وسترى بعد ذلك خط الأفق الساحر الغريب للمدينة نفسها ؛ إذ ترتفع أبراج الكنائس القديمة ، وسقوف الدور الحمراء ، ومن خلفها الأشجار الخضراء والسحب الناصعة .

ومع أن « بيليم » تجارى الطابع الحديث لمطارها الكبير إلا أن المدينة نفسها قد أنشئت قبل إنشاء الكثير من مدن أمريكا الشمالية مثل بوسطن . وهى لاتزال تحتفظ بمزيج بديع من مشاهد العالم القديم والمناطق الاستوائية الغضة . وتحد طرقاتها الواسعة أشجار المانجو التى تتدلى منها الاركيديا وخصى الذئب ، وتملأ الحدائق المزهرة قلب المدينة ، وتقع عند حافتها الغابة القديمة الجميلة التى حولت إلى حديقة عامة ساحرة الطرقات تجتمع فيها الببغاوات الأمريكية الطويلة الذيول . وتزهر نباتات الأركيديا ، ويوجد عند حافة المياه ميناء للقوارب الصغيرة فتوثق عندها القوارب بأشرعتها المتعددة الألوان . . حمراء وصفراء وزرقاء ، ورمادية ، ويقال

الميناء « فيرأوبيسو » أى « مراجعة الوزن » ؛ ذلك لأنه توضع هناك الموازين لضبط المهربين الذين اعتادوا أن يبيعوا حمولة قواربهم قبل أن يدفعوا رسوم الميناء . والمشاهد حول هذه الميناء الصغير جميلة دائماً ، وكحديث إجمالى فإن بيليم مدينة للرسامين ، ولا يسبقها فى هـــذا غير باهيا وحدها .

وجو المدينة ليس حاراً كما قد تتوقع اللهم إلا عند منتصف النهار عندما تغلق المتاجر ودور الأعمال أبوابها ويذهب كل فرد إلى منزله ليتناول طعام الغداء وللإغفاء بعض الوقت ، فهناك عادة يتوافر نسيم عليل، وفى فصل الأمطار يهطل المطر بعد ظهر كل يوم فيلطف الجو ويخفف حرارة الطرقات المرصوفة بالأسفلت . ولكنك ستجد من الدلائل ما يشعرك أنك فعلا على خط الاستواء . فالسفن تشحن أحمالها من المطاط والبندق البرازيلى وفول تونكا وغير هذا من الحاصلات التى لا تشاهدها قبل أن تذهب إلى ماناوس. ويختلف الناس كذلك تماماً عن أهل الجنوب؛ ففى الكثيرين منهم دماء هندية تتضح فى سماتهم الجيدة التقاطيع وفى بشراتهم المشوبة بالسمرة، وشعورهم المستقيمة السوداء المشوبة بزرقة . ويرتدى كل الرجال تقريباً ثياباً بيضاء ، ويتجولون ببطء جيئة وذهاباً فى الطرقات أو يجلسون فى خمول على المقاهى . ويقتضى منهم القيام بأى عمل وقتاً طويلا . ثم إنهم ليسوا بالمرحين الذين يحبون الحفلات كأهل باهيا ، كما أنهم ليسوا فى نشاط أهل برنامبوكو وحركتهم . ولقد عرفت بيليم عهوداً كثيرة من الثراء ، ومن الإفلاس ، كما حدث عندما فقدت

تجارة المطاط الرواج الذى عرفته من قبل ، ولكن مع هذا فإن مواطنى ولاية بارا يأخذون كل شىء فى الحياة بفلسفة الواقع الذى يعيشون فيه .

ولقد مكن الرخاء فى الأيام الماضية عدداً كبيراً من أبناء بارا من الذهاب إلى أوربا لطلب العلم فى معاهدها ، وقد أتقنوا الحديث بعدة لغات مما جعلهم مواطنين عالميين . ومع ذلك فهم فى الوقت ذاته فخورون بمدينتهم وأساليب الحياة الخاصة بها ؛ بل ويفخرون بخاصة بما أسهمت به بارا فى علوم المناطق الحارة . وفى متحف « جولدى » القديم مجموعة لا تقدر بمال من الفخار الهندى من عصر ما قبل التاريخ جىء به من ماراخو ومن حوض نهر تاباخوس ، وفى حديقة الحيوان « عينات » من كل الكائنات البرية التى تعيش فى وادى الأمازون ، وهذه باستمرار موضع دراسة العلماء المقيمين والزائرين .

وكلما طالت إقامة الزائر فى بيليم زاد حبه لها . ولأهل بارا قول مأثور يؤكد هذا . . . « كويم بارا بارا بارا بارا » .

إن من ينزل بارا يبقى بها ولا يتركها . . .

* * *

وستكون الخطوة التالية فى برنامج رحلتك إلى البرازيل أن تزور « برازيليا » عاصمة البلاد ، وهى مدينة جديدة تماماً شيدت فى الجزء الأوسط من البرازيل . تستطيع أن تصلها بالطائرة ، أو قد تقرر أن تستخدم السيارة فى طريق بيليم — برازيليا الرائع . وبرازيليا نموذج

بارز لمدينة مخططة . وقد قامت بهذا العمل طائفة من أكبر المهندسين المعماريين وخبراء تخطيط المدن فى العالم الذين ظلوا يعملون سنوات عديدة يعاونهم خيرة البنائين البرازيليين حتى نمت المدينة وأصبحت حقيقة مثيرة ومنظراً جديراً بالمشاهدة . ولقد نص على إنشاء هذه العاصمة الجديدة فى دستور سنة ١٨٩١ ، وسار العمل فيها بانتظام سنة بعد أخرى . وفى عام ١٩٥٦ أعلن عن مسابقة فى طول البلاد وعرضها لإعداد التخطيط الرئيسى للمدينة ، وقـــدم ستة وعشرون مشروعاً ، ففاز بالجائزة المهندس « لوسيوكوستا » ، وقد اشترك معه « أوسكار نيماير » المهندس العالمى المشهور الذى اشترك مع كوستا أيضاً فى تصميم الجناح البرازيلى فى معرض نيويورك الدولى عام ١٩٣٩ . ومن بين التحسينات التى اشتمل عليها تصميم المدينة الجديدة تخطيط طرق خاصة للسيارات بحيث لا يضطر المشاة إلى عبور الشوارع فى طريق سيرها .

وتذهب بك طائرة أخرى إلى مدينة « ماناوس » التى تبدو من الجو فى لون وردى بسبب سقوفها المغطاة بالقرميد الأحمر . ويمر فى جوارها نهر قاتم اللون هو « ريونيجرو » أو « النهر الأسود » . ويتسع هذا النهر حتى ليبدى كأنه بحيرة . ويتصل به فى جنوب المدينة نهر آخر أوسع مجرى؛ ذلك هو الأمازون العظيم ، وتستطيع أن ترقب من الطائرة فى سهولة ويسر الصراع القائم بين مياه ريونيجرو السوداء ومياه نهر الأمازون الصفراء ، فتتخذ الأولى خطوطاً طويلة ملتوية وتتدافع مع مياه الأمازون فيتطاير الزبد وتدور الدوامات . ويطفو فيضان ريونيجرو قاتماً كالزيت

فوق مياه الأمازون ولا تلبث جوانبه أن تتعكر بطين أسمر ، ولكن سرعان ما يبتلعه الفيضان الذهبي الأقوى وتندفع مياه الأمازون صفراء كما كانت من قبل .

ولا تكاد تخرج من الطائرة حتى تحس بالجو الحار وبالهواء المشبع بالرطوبة ، مما يذكرك بأنك قد اجتزت خط استواء قبل ذلك بقليل . ولكن هناك نسيما منعشاً يهب من اتجاه النهر ، ولا يبدو على أهالى المدينة الذين سيقع نظرك عليهم وأنت قادم بالسيارة من المطار أنهم يشعرون بحرارة الجو . والواقع أنه ، ولو أن جميع الرجال يرتدون حللا من قماش قابل للغسل ، وأغلبها بيضاء اللون ، إلا أنهم يرتدون المعاطف والصديريات ويستعمل أغلبهم أربطة العنق ؛ ذلك لأن أهل « ماناوس » ما زالوا يحافظون على الزى البرتغالى القديم ويعتبرون أن خروج الرجل إلى الطريق العام بدون معطفه سلوك منتقد . ولقد ضرب بعض الشبان بهذه التقاليد عرض الحائط ونبذوا أربطة العنق ، فى حين أن البعض الآخر يرتدونها دون ربطها .

وتبدو النساء رشيقات فى ملابسهن الصيفية وأحـــذيتهن ذات « الكعوب » العالية التى يلبسنها بدون جوارب طول العام . فالنساء أقل تمسكا بالتقاليد من الرجال ، ولهذا فإنهن ينشدن الراحة والبرودة بعدم استعمالهن للجوارب .

إن الشمس حارة لافحة ... وعندما تترك السيارة فى وسط المدينة لتسير على الطوار « الرصيف » ستشعر بحرارته تنفذ إلى قدمك من نعل

حدائك ! ولكن عندما يجىء المساء يعتدل الجو ويصبح منعشاً مع النسيم الذى يهب من ناحية النهر . وإذا حدث وكانت زيارتك للمدينة فى الشتاء ، أى فى الموسم المطير ، فستسمع الناس يتحدثون عما أحسوا به من البرد فى أثناء الليل بالرغم من أن الترمومتر ربما لم ينخفض عن نحو درجة ٢٠ مئوية.

وتعتبر ماناوس حديثة جداً ، إذا قورنت بالمدن البرازيلية الأخرى، فلا ترجع نشأتها إلى أكثر من مائة سنة ، على حين أن بيليم التى تقع على مسافة ألف ميل منها فى اتجاه مصب الأمازون — وهى أقرب مدينة كبيرة إليها — يرجع إنشاؤها إلى أكثر من ٣٠٠ سنة .

ولقد كانت «ماناوس» عاصمة ولاية « أمازوناس » منذ وقت طويل ، وهى من أبدع المدن البرازيلية فى مناظرها . ولهذه المدينة تاريخ عجيب . فعندما اكتشف أن سائل شجرة المطاط يمكن أن يستعمل فى صنع الكثير من الأشياء العجيبة مثل معاطف المطر، والمماحى «المساحات» (الأساتيك) ، والأمشاط ، تقاطر الناس نحو مدينة ماناوس التى كانت يومذاك مدينة صغيرة تحيط بها غابات مليئة بأشجار المطاط البرية. فجاء العمال من الولايات البرازيلية الأخرى لجمع سائل المطاط . كما جاء التجار لشرائه وبيعه وتبع المضاربون هؤلاء وأولئك سعياً وراء الثراء بين عشية وضحاها . وقد جمعت ثروات كبيرة وبنيت دور جميلة من الحجارة والقرميد والأدوات الأخرى التى استوردت من أوربا ، ونمت القرية الهاجعة إلى مدينة كبيرة فى وقت قصير . ولم تحاك فى نموها مدن الباحثين عن الذهب فى الولايات المتحدة ذات الطرقات غير الممهدة والمساكن الخشبية الواهية ، بل جاءت

تقليداً لباريس ولشبونة على نطاق صغير . وأقيمت فيها دار أوبرا تكلفت مليون دولار ، وجاءت فرق الأوبرا من إيطاليا لتمثل على مسرح المدينة .

ثم ظهر إنتاج المطاط الكبير في الشرق على حين فجأة ، وكانت بذوره قد سرقت من البرازيل لتزرع هناك . فهبطت أسعار المطاط ، وفقدت سوق المطاط البرازيلي المرتفع الثمن ، وفقد كثيرون من البرازيليين ثرواتهم ، ولكن « ماناوس » — مدينة المطاط — لم تمت بانتهاء تجارة المطاط ، بل بقيت مدينة متحضرة تنعم بسباتها .

وهذا هو السبب في أنك لن تجد أية ناطحة سحاب في المدينة . ومع أن فرق الأوبرا لم تعد تجيء من إيطاليا ولا من أي مكان آخر ، إلا أن دار الأوبرا لا تزال قائمة كما كانت أيام الازدهار . ولا يزال الكثير من الدور الجميلة والمحال التجارية الكبيرة قائماً كما كانت الحال من قبل ، مما يجعل المدينة تبدو كمنظر سينمائي أعد لتصوير الحياة فيها من نصف قرن مضى .

وماناوس أجنبية في مظهرها ، فطراز عمارتها برتغالي، ترتفع جدران مبانيها من جانبي الطريق كالمحال التجارية . وللنوافذ التي تبقى مفتوحة طوال أيام السنة قضبان من الحديد ، وإلا لاستطاع المارة أن ينفذوا إلى الغرف الأمامية . وتجد خلف كل منزل حديقة مليئة بشجيرات المنطقة الاستوائية وأزهارها ، يقع خلفها بستان صغير تنمو به بعض أشجار الفاكهة وتربى الدواجن ، كما تزرع بعض الخضراوات على قوائم لوقايتها من النمل الذي يأتي على كل شيء في هذه الأرجاء . وهناك متسع أيضاً

لبعض الحيوانات الأليفة؛ إذ تجد لدى كل أسرة بعض الحيوانات المتوحشة التى ولدت فى الغابة ، ثم جىء بها وهى صغيرة لتشب مع أطفال الأسرة ، مثل القردة واللمور والخنازير البرية والكابيبارا (وهو أكبر الحيوانات القارضة) وبعض القطط الوحشية الصغيرة التى تدلل وتصبح كأفراد من الأسرة ذاتها . ولا يخلو منزل من عدد من الطيور الصداحة فى أقفاصها ، أو الببغاوات الناطقة على غصون أشجار أعدت لها .

ويصل إلى سمعك أيضاً غناء الأهالى ، إما فى المطبخ الخلفى ، وإما فى البستان الداخلى ، إلا إذا كانت ساعة القيلولة بعد الغداء عندما يأخذ الجميع غفوتهم . ويبدو على الأهالى عموماً مظهر الرضا والقناعة فى معيشتهم ، ولكن مساكنهم — حتى الغنى منها — خالية من مظاهر الترف التى تشاهدها فى البلاد الشمالية . فإذا نظرت إلى داخل منزل من خلال نافذة أو باب لراعك أنه شبه عار ؛ إذ يندر أن تشاهد ستائر تحول دون دخول الهواء ، كما يندر أن تجد المقاعد الوثيرة والمتكآت والأرائك التى سرعان ما تتلف وتتعفن . فإن مقاعد الخيزران أفضل وأرطب ، ولا تكاد توجد بسط ولا سجاجيد ، حتى لا تختفى تحتها الحشرات الاستوائية . فالواقع أن كل الأرضيات إما من الخشب الصلب المغطى بالشمع حتى لا تستطيع الحشرات أن تسير عليها دون أن تنزلق ، وإما أنها من القرميد ، ومن ثم يمكن أن تغسل بالماء كل يوم أو يومين . وإذا ألقيت بنظرك خلسة إلى داخل غرفة النوم فستدهش لأنك لن ترقب فراشاً ، وإن كنت قد تجد باقى قطع أثاث غرفة النوم ؛ ذلك لأن أهل البرازيل يفضلون النوم على أراجيح

أنيقة من الشبك يتخللها الهواء ويمكن غسلها . ويعتبر بعض هذه الأراجيح تحفاً فنية مرتفعة الثمن . ولكن أغلبها من القطن المنسوج باليد مع شريط مخرم (دنتلة) عريض يتدلى إلى أسفل من كل جانب . وعندما لا تكون الأرجوحة معلقة بين جدارين متقابلين للنوم ليلا ، أو للإغفاء نهاراً ، فإنها تطوى لإفساح المكان . وإذا عشت بعض الوقت فى أى من هذه المنازل فى البرازيل ، ثم عدت إلى وطنك ، فلا شك أنك ستشعر أن منزلك الذى عدت إليه مزدحم بالأثاث قليل التهوية .

والطرقات الرئيسية فى وسط « ماناوس » واسعة جيدة الرصف ، وتظلل بعضها الأشجار العالية الكبيرة التى تنبت على كلا الجانبين وتتفتح أزهارها فى مواسمها . كما تكثر بها الحدائق الخضراء الجميلة المليئة بالأزهار طوال العام . وعندما تشاهد دور السينما الحديثة ، والمحال التجارية ذات الأسعار الموحدة ، وأبهاء « صالونات » التجميل ، ومواقف الترام وسيارات الأجرة ، فإنك ستجد صعوبة فى إقناع نفسك بأنك كنت منذ دقائق قليلة تطير فوق إقليم يعد من أشد أقاليم العالم عزلة وإيحاشا .

ولكن أكثر شىء سيستهويك هو ذلك الصف من المقاهى على جانب الطريق الذى سيغريك بالتوقف لتتناول بعض المثلجات . فهذا ما يفعله كل شخص فى أية ساعة من ساعات النهار ، وبخاصة بعد الظهر وفى المساء ، ويفضل الأجانب مقهى « أمريكانا » بسبب اسمه . . وإن كان الاسم بالنسبة للبرازيليين يعنى « أمريكا الجنوبية » وسترى أفراد الأسر جالسين بأطفالهم حول المناضد على مقاعد مريحة من الخوص تحت المظلات ، وعندما تنصت ستسمع الجميع يتحدثون باللغة البرتغالية كما يتحدث بها

جميع المارة فى الطريق .

ثم تسمع بعض كلمات باللغة الإنجليزية . . وستجد الذين يتحدثونها رجالا يرتدون قمصاناً رياضية ذات أكمام قصيرة وقد حلوا « فتحوا » بنائقها « ياقاتها » عند الرقبة . إنهم من أهالى أمريكا الشمالية الذين وفدوا إلى المدينة من أجل الأخشاب أو الجلود أو لتجارة المطاط التى أحيتها الحرب الأخيرة .

وستنظر إلى قائمة المثلجات التى تباع فى ذلك اليوم ، فلا تعرف ماذا تطلب ، ذلك لأن الأسماء غريبة لا تتضح لك ، ويتكرم أحد الأمريكان ليترجم لك . . فيعرفك أن « آباكاتى » Abacate كلمة برتغالية تعنى « كمثرى التمساح » . ولقد كانت الكلمة إسبانية أصلا . و « أباكاكسى » تعنى الأناناس ، أما « موريتى » و « بوريتى » فهما لونان مختلفان من ثمار النخيل ذات الرائحة القوية ، و « الكاجو » ثمرة قرمزية اللون تتدلى منها بندقة كاشو واحدة على خلاف أى نوع آخر من أنواع البندق المعروفة فى العالم . أما « التمر هندى » فهو اللب ذو الطعم الحاذق الذى يغلف ثمرة شجرة التمر هندى ، وعندما يمزج بالماء والسكر ثم يثلج فإنه يكون شراباً منعشاً . ويصنع « الكوكو » المثلج من السائل اللبنى الذى ينتج من عصر جوز الهند الغض « الطازج » . ويقول لك الأمريكى إن أياً من هذه المشروبات شهى سائغ فى هذا الجو الحار . وستختار التمر هندى لما يبدو لك من غرابة اسمه ، ويعرض عليك الأمريكى أن يعاونك بالترجمة لك إذا احتجت إلى شىء ، فهو يعيش فى تلك البلاد منذ وقت طويل ويعرف

كل شيء عنها ، لأنه يسافر على النهر جيئة وذهاباً ، يشترى « الشيكل » وهو عصير مطاطى يستخدم فى صناعة « اللبان » Chewing gum .

وستسرك معاونة صديقك عندما يحين الوقت لتسدد ثمن ما اشتريت ، لأنك مضطر أن تصرف أحد « أذون السياحة » لتحصل على نقد برازيلى ، وتبدو قطع العملة من الورق والنيكل محيرة جداً . وستعرف أن وحدة العملة هى « الكروزيرو » التى تساوى ثلاثة سنتات أمريكية ، أى نحو قرش واحد ؛ إذ توجد عملة ورقية ومعدنية قيمة كل منها كروزيرو واحد أو اثنان . أما العملة ذات الخمسة والعشرة والعشرين كروزيرو وما فوقها فكلها من أوراق النقد . وتوجد عملة أصغر يقال لها « سنتافوس » ويعادل المائة منها كروزيرو واحد ، وأصغر قطعة منها هى التى قيمتها عشرة سنتافوس ، إذ لا يوجد ما يباع بأقل من هذا حتى ولا طابع بريد . وبينما يقف المضيف أمامك باسماً ستقلب النقود التى معك فى حيرة لكى تدفع حسابك ، والمسألة فى الواقع سهلة ، لأن العملة تقوم على نظام التقسيم العشرى السائد فى أمريكا الشمالية وكثير من بلدان العالم .

وعندما تجد النقود فى جيبك ستجد فى نفسك رغبة للذهاب إلى السوق ، وهذا ما يبدأ بفعله عادة كل سائح حكيم ، لأن الذهاب إلى السوق هو أفضل وأسرع طريقة لدراسة حياة الناس . ولن تخيب سوق ماناوس رجاءك ؛ إذ يسودها الطابع الاستوائى الذى يتوق الزوار لمشاهدته . وسواء صعدت إلى السوق بسلم أو وجدته أسفل مبنى كبير بجوار النهر ، فإنك ستجد فيه أغرب أنواع السمك والفاكهة والخضراوات . فهناك

حوانيت صغيرة تبيع كل شيء يحتاج إليه سكان النهر من الآنية الفخارية ، إلى معدات صيد السمك ، إلى القبعات المصنوعة من القش ، إلى غير ذلك من مختلف أنواع السلع .

ولعل أكثر ما سيثير دهشتك هو تلك السلاحف الضخمة التي يأتي بها رجال سمر صغار الأجسام يحملونها مقلوبة فوق رؤوسهم . وسيخيل إليك أنها أثقل مما يستطيع رجل واحد أن يحمله ؛ إذ كثيراً ما يبلغ عرض الواحدة منها نحو ياردة ، ولا يمكن أن يقل وزنها عن مائتي رطل. فإذا تتبعت هؤلاء الحمالين إلى شاطىء النهر لوجدت أنهم يفرغون حمولة سفينة شراعية بأكملها من تلك السلاحف الرهيبة التي يباع كل منها بنحو عشرة دولارات .

وستجد عشرات من أمثال هذه القوارب راسية على طول الشاطىء ، ومنظرها شبيه بمنظر السامبان[1] الصينية ، وقد جابت سلعاً متعددة الأنواع . ويتكون الكثير من هذه القوارب من كتلة واحدة حفرت في جذع شجرة ضخمة ، في حين أن غيرها مصنوع على هيئة الزوارق البخارية. ولكل سفينة منها أشرعة ومجاديف ، ولكن القليل منها ما هو مزود بمحركات . وتسقف القوارب بحصر كبيرة من سعف النخيل المجدول لتقي الأسر التي تعيش في القوارب من المطر ، كما تمنع عنها أشعة الشمس . وقد

(١) Sampan السامبان قوارب صغيرة تستخدم في موانىء وأنهار الصين واليابان، وقد يحشد الكثير منها جنباً الى جنب ويقيم الناس فيها حتى لتبدو شديدة الشبه بقرية صغيرة . (المترجم)

ترسو هذه السفن متراصة الواحدة إلى جانب الأخرى ، ويشعل أصحاب كل منها ناراً صغيرة تحت قدر من الصلصال يحتوى على طعامهم ، أو يغلون عليها ماء لعمل القهوة التى يحتسونها بلا انقطاع . ولا يعترى نفوسهم أى شعور بالغربة ؛ إذ أن جميع هذا الإقليم — الذى يمتد آلاف الأميال — عالم عائم ، لا يحس المقيمون فيه بأى فرق بين معيشتهم على القوارب أو على الأرض الجافة .

إن منظر هؤلاء القوم فى قواربهم منظر غريب يأخذ بلب من يشاهده ، فترى الأطفال يلعبون كما لو كانوا فى الفناء الأمامى لمنزلهم ، أو يسكورون أجسامهم ويغفون فى مكان ظليل . وتشاهد الأسرة وهى تتناول طعامها وتتكون الوجبة التى تراها مفرودة على مقاعد القارب من سمكة مشوية كبيرة قطعت إلى عدة أجزاء ، ومن « قرعة » تحتوى على شىء يشبه الذرة المجروشة الصفراء ، وهـــو الذى يسميه الأهالى « طحين المـاء » Farinha de agua ، أو نبات الكاسافا وقد عجن بالماء ، وهو يقوم مقام الخبز فى جميع أنحاء حوض الأمازون . « وللتحلية » فى نهاية الوجبة يأكلون الموز ، أو أية فاكهة أخرى ربما يكونون قد جلبوها معهم من مواطنهم ، وأحياناً بعض الفطائر الحلوة التى يبتاعونها من السوق ويدفعون ثمنها من أرباح عملهم اليومى .

دعنا نراقب الآن آداب المائدة التى تراعيها أسرة من تلك الأسر : إنهم يأكلون قطعة من السمك ثم يغمسون أطراف جميع أصابعهم فى وعاء « الفارينا » ويمسكون بكمية من هذا الغذاء الرئيسى ثم يرفعون أصابعهم

إلى مسافة قدم من أفواههم ثم يقذفون بالفارينا إلى أفواههم ، ولقد تعلم حتى الأطفال كيف يفعلون هذا بمهارة ؛ ذلك لأن هذه هي الطريقة الصحيحة التقليدية التي يؤكل بها هذا الغذاء الرئيسي البديل للخبز .

ويمكن أن يؤكل السمك بطريقة أخرى ؛ وذلك بأن تفصل العظام باللسان ، ثم تدس بعيداً إلى جانب الفم وراء الصدغ — كما يحفظ السنجاب البندقة في شدقه ، وعندما ينتهى الطعام يلقى بكل ما فى الفم من شوك مرة واحدة ، وتعتبر هذه الطريقة أفضل من إخراج الشوك من الفم واحدة إثر الأخرى ، وخاصة إذا كانت السمكة من السمك الكثير الشوك .

ولهؤلاء الريفيين عادات وتقاليد كثيرة خاصة بهم قد ورثوها من الدماء الهندية التي تكون نصف دمائهم ؛ فهم « كابوكلوس » ؛ أى من نسل البرتغاليين الذين تزوجوا نسوة هنديات فى الأيام الأولى ، ويكونون غالبية سكان وادى الأمازون ، ولا يوجد فى أى مكان آخر من العالم من هم أكثر أدباً وأكثر تقديراً منهم للناس ، وهم يعتزون بأنفسهم ، رغم فقرهم ، كما أنهم على درجة كبيرة من الذكاء ، وإن كان القليلون من تلقوا ما يزيد على التعليم الأولى .

وإلى ما وراء هذا ترسو على مسافة من الشاطئ قوارب سكنية متألقة ذات بهاء ، وتذكرك نوافذها الصغيرة الأنيقة ، والسياجات الحديدية التي تحيط بشرفاتها ، بمصايف البحيرات فى الولايات المتحدة. وتروح القوارب وتجىء فى النهر السريع الجريان ، وترى الناس يصعدون إلى إحدى « العوامات » ويمكثون قليلا فى داخلها ثم ينزلقون ثانية إلى قواربهم

حاملين في أيديهم اللفافات . إن هذه متاجر عائمة ، وهى ظاهرة يتميز بها الأمازون عن غيره من الأنهار ، وتجد فى هذه المتاجر القليل من كل ما يمكن أن يحتاج إليه الناس. فإذا قلت الحركة التجارية فى منطقة ما انتقلت المتاجر فى رحلاتها على النهر ورست فى جوار المزارع والمستوطنات ، ولا يحتاج العملاء إلى نقد للشراء ؛ فإن عامل المتجر يبادل الملح والكيروسين والكبريت والقماش وكل المستحدثات التى يباع كل منها بعشرة سنتات بما فى هذا الأدوية والعقاقير ، بأية حاصلات ينتجها الفلاح .

ومن الطريف أن تراقب أسرة من الأسر التى يعمل أفرادها فى هذه السوق النهرية فى عودتها إلى دورها ؛ إذ ترى قاربا يبدو أنه يتسع لراكبين اثنين وقد حمل حتى حافته بالأب والأم وجميع الأطفال وأحد جيرانهم أو ستة منهم ، وعندما تظن أن القارب لن يتحمل أوقية واحدة أكثر من ذلك وإلا غرق ، اندفع كلب الأسرة الذى كاد أصحابه أن ينسوه إلى القارب وأسرع ليتخذ مكانه فى مقدمته حيث يتربع كما لو كان تمثالا . ويمسك رجلان بالمجاديف ولا يجرؤ فرد على أن يحرك عضلة من جسمه ، حتى يصل بهم القارب إلى باب دارهم . ولا شك أن منزلهم مقام على قوائم خشبية ترفعه حتى لا يجرفه التيار إذا ارتفع منسوب المياه فى النهر ، مثله فى ذلك مثل جميع المنازل المقامة على شاطىء النهر ــ بما فى ذلك سوق ماناوس الكبير نفسه .

وترفع القوارب الكبيرة الشراع لتتلقفها الريح فتندفع فى مجرى الماء . وقد يقع نظرك على رجل فى قارب لا شراع له ، يقوم بربط سريره الشبكى

فى سارية القارب فيدفعه الهواء كما يدفع الشراع ، كما قد ترى آخر وقد ثبت شجرة صغيرة مورقة فى وضع عمودى بين حقائب زاده وبين مقعد القارب الأوسط ، مستخدماً إياها لنفس الغرض ، ويطلق القوم عليها من باب الدعاية اسم « شراع الأمازون » . وربما شاهدت قارباً بخارياً يمخر فى الماء وقد سحب وراءه عدداً من القوارب الصغيرة لبعض المسافرين ، ويطلقون على هذه القافلة النهرية اسم « قطار الأمازون » — وهو يصور لنا تقليداً من تقاليد الصداقة والمودة فى الإقليم ؛ إذ أن هذا « القطار » يوفر على أصحاب القوارب الصغيرة جهداً كبيراً كانوا سيبذلونه فى التجديف للوصول إلى الأماكن التى يقصدونها .

أما وقد شاهدت هذا القدر من حياة الناس على الماء ، فإنك لن تدهش إذا ما اكتشفت أن المراسى الثقيلة الضخمة التى ترسو عليها السفن البخارية إنما هى مراس عائمة ، لأنها ترتفع مع مستوى النهر فى الفصل المطير بنحو ثلاثين قدماً .. وتقوم السفن الكبيرة القادمة من أوربا والولايات المتحدة ، وكذلك السفن الساحلية القادمة من جنوب البرازيل ، بتفريغ شتى أنواع البضائع من الأطعمة المعلبة إلى السيارات . ثم تعود فتحمل شحنات من الجوت ، والبندق البرازيلى ، والمطاط ، والأسماك المجففة ، وجلود الحيوانات المملحة ، والأخشاب ، وعطر مستخرج من خشب الورد يدخل فى عمـــل الروائح ، وحبوب التونكا التى تستعمل بديلا « للفانليا » والتى تنتشر رائحتها فى أرجاء المرسى فتجعله يبدو كما لو كان مصنعاً للحلوى .

ولربما تكون سوق ماناوس قد كسدت بعد أن انتهت فورة المطاط ولكنها استيقظت ثانية من سباتها؛ إذ أن هذه الحاصلات العديدة وموقعها الممتاز كمركز للنقل الجوى تؤهلها لأن تصبح من جديد مدينة من أهم مدن البرازيل .

وعندما تستقل الطائرة فى الصباح التالى لتبدأ رحلتك عبر ١٨٠٠ ميل من ماناوس إلى ريودى جانيرو فسترى إحدى هذه السفن وهى تتأهب للرحيل ، فتنفث الدخان الأسود من مداخنها ، وتكون بقعاً معتمة قاتمة فى سماء المدينة ، وعندئذ ستدرك لأول مرة لماذا كانت ماناوس على تلك الدرجة من النظافة . إذ ليس بها مصانع تنفث الدخان من مداخنها ، كما أن المنازل فى مثل هذا الجو لا تحتاج إلى التدفئة المركزية . ويتم طهو الطعام على نيران تشتعل بالخشب ، أو بفحم الخشب ، أو بالكهرباء ، ولا توجد بها قاطرات بخارية تنفث الدخان والرماد ليتساقط فوق المخازن والمساكن الشعبية القبيحة المنظر . ولا توجد مصانع ذات مداخن فى ماناوس سوى مصنع البيرة ومحطة توليد الكهرباء ، وهذه أيضاً تستخدم الخشب كوقود لها ، إذ يمكن جلب كميات من الأخشاب لا حصر لها من الغابات المجاورة دون أن تتأثر تلك الغابات فى شىء .

وسترى عندما تطير بك الطائرة فوق النهر الأسود وفوق الأمازون لتتجه جنوباً فوق الغابة مرة أخرى فإنك ستودع هاتين المدختين المنعزلتين

وداعاً خاصاً لأنك لن ترقب غيرهما حتى تصل إلى ريودى جانيرو . وستجتاز — قبل أن تعرف — (نهر) ريو مديره أى « نهر الخشب » ، ويطلق عليه ذلك لكثرة الأشجار التى تتساقط فى النهر من جانبيه فيجرفها تياره السريع . وستكون طائرتك إذ ذاك فوق منطقة ذات أهمية خاصة بالنسبة لمواطنى أمريكا الشمالية ، لأن تيودور روزفلت فى رحلته الكشفية التى قام بها فى عامى ١٩١٣ و ١٩١٤ أماط اللثام عن « النهر الغامض » River of Doubt فى كتابه المسمى « عبر مجاهل البرازيل » . كان روزفلت قد تتبع هو ورفاقه هذا النهر لمسافة أربعمائة ميل حتى وصلوا إلى نهر ماديرا ، فعندما زال كل شك عن حقيقة هذا الرافد العلوى من روافد نهر ماديرا أطلق عليه « نهر روزفلت » .

لقد استغرقت الحملة الكشفية شهرين لتقطع فيها تلك الأميال الأربعمائة فى حين أنك تستطيع اليوم بالطائرة أن تتبع مجرى نهر روزفلت حتى اتصاله بماديرا فيما يزيد قليلا على ساعة من الزمان . وهذا هو السبب فى أنه لم تعد هناك أنهار تنتظر الكشف ؛ لأن الجغرافيين قاموا بتصوير جميع الأنهار الهامة من الجو وأعدوا لها الخرائط — وذلك دون أن يتعرضوا لتحرش الهنود الحمر . ولكن إذا حدث وهبطت طائرتك إلى ارتفاع منخفض فوق إحدى قراهم فلا تستبعد أن ترى الهنود يندفعون فى العراء ويصوبون سهامهم نحو طائرتك .

لقد قام روزفلت وروندون (Rondon) برحلتهما الكشفية منذ أكثر من خمسين سنة . وما زال الجنرال روندون — رغم شيخوخته —

يتولى رعاية الهنود البرازيليين . ولكن الطائرات أحدثت انقلاباً تاما فى عمليات الكشف ، فهى تستطيع أن تقفز فوق الشلالات الخطرة التى طالما عاقت الملاحة النهرية فى الروافد العليا لنهر الأمازون .

ويتيح لك الطيران أن تصبح أنت نفسك مستكشفاً ، تغامر وأنت جالس على مقعدك فى الطائرة ، فتلك هى الوسيلة السهلة للكشف فى أيامنا هذه . فما من شك فى أنك تقطع الأرض قطعاً - من ارتفاعك الشاهق - عندما تجتاز طائرتك سماء ولاية أمازوناس Amazonas وتخترق جزءاً من ولاية بارا (ثالثة ولايات البرازيل مساحة) ، لتستقبلك ولاية ماتوجراسو Mato Grasso — وهى ولاية الغابات الكبيرة التى تلى أمازوناس من حيث المساحة ، وتكاد تبلغ مساحة جمهورية بيرو .

وإذا أنت وضعت على عينيك النظارة البعيدة المدى فى هذه اللحظة واتجهت بنظرك غرباً على بعد نحو ثمانمائة ميل فإنك ستشاهد أحد الأشياء التى تفتقدها ماناوس — وهو الخط الحديدى ، الذى يعرف بخط « ماديرا — ماموري » Madeira-Mamore . ومع أن هذا الخط يسير فى أعماق تلك البرية ويكاد يختنق فى وسطها ، فقد تم إنشاؤه فى أوائل هذا القرن على يد مهندسين من الولايات المتحدة . وهو يسير محاذياً لنهر ماديرا ، ولكن فى بقعة من أعالى النهر أبعد كثيراً من المكان الذى اندفعت فيه قوارب روزفلت وروندون فى تيار نهر الخشب السريع الجريان . ويلتف خط الغابة هذا حول الكثير من الأجزاء المندفعة التيار من هذا النهر فى منطقة الحدود بين البرازيل وبوليفيا ، مخترقا مقاطعة جوابورى Guapore

الجديدة . فتأتى السفن واللنشات عن طريق نهرى بنى (Beni) فى بوليفيا ومامورى فى البرازيل ، وتفرغ حمولاتها من المطاط والجلود وشتى المنتجات المدارية فى عربات السكة الحديدية التى تسير بها ٢٤٠ ميلا — مجتازة أجزاء النهر السريعة غير الصالحة للملاحة — حتى تصل إلى مدينة « بورتوفيليو » Porto Velho الواقعة على نهر ماديرا قرب حدود بوليفيا . وهنا يعاد شحن تلك البضائع فى السفن التى تسير فى نهر ماديرا حتى الأمازون ومنه إلى المحيط الأطلنطى . ولقد تعرض الذين قاموا بمد هذا الخط الحديدى لأخطار هائلة من الملاريا وغيرها من الأمراض ، حتى إنه ليقال إن كل عارضة خشبية (فلنكة) كانت تثبت فى الأرض كان يموت فى مقابلها أحد الأشخاص العاملين فى بناء الخط . ويوضح تاريخ إنشاء هذا الخط الحديدى الوحيد فى قلب أمريكا الجنوبية السبب فى عدم إقامة أى خط آخر غيره فى تلك الأرجاء .

وفى ولاية ماتوجراسو تقدم لنا الطبيعة أعجوبة أخرى تنافس هذا الخط الحديدى الفريد فى نوعه . ففى الجزء الجنوبى من الولاية يستطيع الأهالى أن يسيروا بأقدامهم على الماء فى أحد الأنهار ، كما تنتقل الطيور الكبيرة بشكل يبعث على الدهشة فوق أوراق الزنبق المائى الذى يطفو على سطح مياه المستنقعات فى حوض الأمازون . فيسير هؤلاء الرجال على حصيرة خضراء كونها نبات طفيلى صلب العود ينمو نموا كثيفا فوق سطح الماء إلى درجة أنه يستطيع أن يتحمل ثقل من يسير عليه .

وفى لحظة من اللحظات تلوح أسفل الطائرة معالم إحدى القرى ،

وتشعر وأنت في مقعدك أن الطائرة آخذة في الهبوط من ارتفاعها ، مما يحدو بك أن تظن أنها على وشك النزول في أحد المطارات لتتزود بالوقود . ولكن الحقيقة ليست كذلك ؛ إذ كل ما في الأمر أن قائد الطائرة قد هبط بطائرته ليتيح للمسافرين معه أن يشاهدوا إحدى قرى هنود التشافانتي Chavantes Indians . ولكنه لن يجرؤ على التوقف هنا حتى لو استطاع ذلك ، لأن هؤلاء التشافانتي مازالوا في حالة بدائية ، يدافعون بعنف عن أراضيهم ضد أي دخلاء ، سواء أتى هؤلاء عن طريق البر ، أو الماء ، أو الجو . وتمتاز مساكنهم بطابعها الخاص ، فهي مغطاة بالقش ، وشكلها أشبه بخلايا نحل ضخمة . وتبنى تلك المساكن حول فناء مستدير يحفظون فيه مؤونتهم فوق أعمدة أو قوائم مرتفعة حتى لا تصل إليها الحيوانات أو الحشرات . ولا تزيد معلوماتنا عن هذه القبائل على ما يشاهده راكب الطائرة من نافذة طائرته . وهكذا تشعر مرة أخرى أنك مستكشف تقوم بعملية كشفية .

لن يمضي وقت طويل حتى تأخذ الطائرة في الهبوط لتتزود بالوقود في أحدث نموذج لمدن الغرب الموحشة — وهي مدينة « أراجارساس » Aragarcas — التي اتخذت اسمها من نهري أراجويا Araguaya وجارساس Garcas اللذين يلتقيان عندها ، فلا يوجد بتلك المدينة إلى الآن سوى بضع عشرات المنازل المبنية بالطوب ، ونحو عشرة منازل غيرها من القش .

ويروى أنه عندما أنشىء المطار فى هذا المكان ، كان رجال الغابات يأتون إلى الطائرات الجاثمة على الأرض ويحاولون غرس بعض الدبابيس فى هيكلها ليروا ما إذا كان الدم سينبعث من مواضع شكها ، ظانين أنها نوع من أنواع الطيور الضخمة ! !

وبعد أن تأخذ الطائرة حاجتها من الوقود ويتناول الركاب طعامهم تستأنف الرحلة فى سماء ولاية جوياس Goiaz نحو مهبطها التالى فى ريو دى جانيرو .

ولكن ، قبل أن تشاهد تلك المدينة الجميلة ، يجدر بك أن تعرف شيئاً عن تاريخ البرازيل الذى جرت أحداث كثيرة منه فى ريودى جانيرو ذاتها .



٣

موجز تاريخ البرازيل

يرجع تاريخ البرازيل ، كتاريخ أمريكا الشمالية ، إلى مالا يتجاوز كثيراً أربعة قرون ونصف قرن . ولا شك أن بعض المراحل الأولى من هذا التاريخ كانت قصيرة .

ويبدأ هذا التاريخ فعلا فى لشبونة ذات يوم أحد مشمس من شهر مارس سنة ١٥٠٠ ، كانت المدينة فى مرح ، فالأعلام منشورة ، وجوقات الموسيقى تعزف والجماهير تتزاحم على شاطىء نهر التاجه .

وكانت فى المرسى ثلاث عشرة سفينة ،عليها ألف وخمسمائة بحار وألف جندى وعدد كبير من المدافع ، وتزاحم الناس فى القصر الملكى ، فلقد كان أهل البلاط يودعون بيدرو الفارز كابرال وضباطه ، ووصل رسول قادم من عند البابا يحمل معه قلنسوة رائعة كتلك التى كان النبلاء يغطون بها رؤوسهم فى ذلك العصر ، وكان البابا بنفسه قد باركها ، وكان المفروض أن هؤلاء يتصدون بسفنهم إلى الهند بعد أن يدوروا حول رأس الرجاء الصالح ليستولوا على كلكته وثرواتها .

ولكن عندما اجتازت السفن الرأس الأخضر تحولت بعيداً عن الإفريقى واتجهت جنوباً بغرب،وأبحرت السفن لشهر كامل تعاونها التيارات

الاستوائية ، وما لبثوا أن رأوا الطيور تحلق فى السماء لتقابل السفن ، وأبصر المراقبون على ظهور السفن . . أبصروا الأرض ، لقد وصلوا إلى الساحل المجهول ، ساحل البرازيل فى جنوب مقاطعة « باهيا » .

وقدم إلى الساحل نفر من الهنود السمر العراة يحملون الأقواس والسهام ، ووصل إلى الساحل قارب يحمل الهدايا للهنود الذين سرتهم هذه الهدايا وأعجبتهم وبعثوا بدورهم إلى ركاب السفن بهداياهم من أغطية الرأس المصنوعة من ريش ببغاء الماكو الطويل الذيل القرمزى اللون ، كما أرسلوا عقداً من الخرز الأبيض مثل اللآلئ ، فاحتفظ به كابرال لملك البرتغال .

وأبحرت السفن نحو الجنوب لمسافة أميال قليلة حتى وصلت إلى مرفأ صغير جيد أطلقوا عليه اسم « بورتو سيجورو » أى « المرفأ الآمن » وألقت السفن مراسيها هناك ، وفى اليوم التالى نزل الجميع إلى الساحل ، وساروا فى عرض عسكرى يتقدمهم العلم الذى يعلوه الصليب ، كما رفعوا صليباً كبيراً من الخشب كان نجاروا السفن قد صنعوه ، واستولوا على الأرض باسم ملك البرتغال .

وعلى شاطئ ريو دى جانيرو تمثال كبير من البرونز يمثل كابرال وقد أمسك العلم بيده اليسرى ، وأمسك بالقلنسوة التى باركها البابا فى يمينه ، ويضع قدمه على الأرض الجديدة إعلاناً بأنها أرض برتغالية ، كما حدث قبل أربعة قرون ونصف قرن ، ويضع البرازيليون الأزهار على قاعدة التمثال فى اليوم الثالث من شهر مايو ، اليوم الذى تم فيه استكشاف البلاد .

ثم أبحر كابرال بعد ذلك نحو رأس الرجاء الصالح وجزر الهند الشرقية بكل السفن عدا واحدة بعث بها إلى لشبونة تحمل الأنباء ؛ ذلك لأنه كانت

فى ذلك العصر حملات كثيرة من دول كثيرة تقوم كلها بالاستكشاف ، وكان لزاماً على البرتغاليين أن يبعثوا بمذكرات إلى كل بلاط لإخطار الملوك بأن أرض الصليب أرضهم هم ، وأنهم قد قرروا الاحتفاظ بها . وكان من الضرورى بصفة خاصة إخطار ملك إسبانيا خاصة ليكف يديه عن هذه الأرض الجديدة .

ولقد كتب الكاتب الذى رافق الرحلة مؤرخاً لها القصة كلها فى خطاب إلى الملك ، ولا يزال هذا الخطاب فى محفوظات حكومة البرتغال ، وتروى الرسالة للملك حال البلاد التى وصفها الكاتب بأنها جنة ، وعن جمال هؤلاء الهنود بسمانهم وأنوفهم المستقيمة ، وكيف ذعروا عندما صعدوا إلى ظهور السفن من رؤية الماشية ، ومن مشاهدة أحد الديكة ، وكان يجرى فوق ظهر السفينة ، فهم لم يروا الدجاج ولا الأبقار من قبل ! وكيف كانوا هيابين فلم يلمسوا ماقدم لهم من لحم أو شراب ، ولكن بعضهم اقتربوا وجلسوا على مقربة من البرتغاليين عندما كان القس يتلو الصلوات وقد عقدوا أيديهم على صدورهم كما كان البرتغاليون يفعلون . لقد كانوا هادئين مؤدبين ، ولم يكن لدى القساوسة شك فى سهولة تحويلهم إلى الديانة المسيحية ، غير أنهم لم يكن لديهم شىء يستحق أن يأخذه البرتغاليون منهم ، كالذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة ، ولكن ليس ثمة شك فى أن ثروات كثيرة تنتظرهم فى داخل البلاد .

وهكذا كتبت الصفحات الأولى من تاريخ البرازيل التى صارت من الممتلكات البرتغالية ، مما جعل قصة أهلها ولغتها وثقافتها تختلف عن آية دولة أخرى من دول أمريكا اللاتينية .

وعلاقة البرتغال بالولايات المتحدة البرازيلية نفس علاقة إنجلترا بالولايات المتحدة الأمريكية ، ففي كل من الحالتين كانت الدولة الأم تحترم على أساس أنها مصدر اللغة والثقافة الموروثة ، وهكذا فإن البرازيليين من الجنسين يدرسون أعمال لويز دى كاموس، كما يدرس صبيان وفتيات أمريكا الشمالية أعمال شكسبير ، وقد عاش لويز دى كاموس وشكسبير وكتبا مؤلفاتهما فى نفس العصر .

فالشعراء البرتغاليون بالنسبة للبرازيليين مثل الشعراء الإنجليز بالنسبة للأمريكان . ولا يزال الصبيان البرازيليون يفكرون فى جامعة كويمبرا ، كما يفكر الطلاب الأمريكان فى أكسفورد وكيمبردج . وتنتفع البرتغال فى نواح كثيرة من علاقاتها بالبرازيل ، كما تنتفع انجلترا من علاقاتها بأمريكا .

وقد بعث ملك البرتغال بمذكراته إلى الملوك فى الوقت المناسب ليكفوا أيديهم عن الأرض الجديدة ، وكانت السفن الإسبانية قد وصلت إلى بيرنامبوكو فى فبراير من ذات السنة، ولكنهم قد تباطأوا فى استكشاف السواحل الشمالية والكشف عن نهر الأمازون ، وبهذا أعطوا البرتغاليين الفرصة لسبقهم ، وتقدم الفرنسيون بدورهم يدعون ملكية بعض تلك الأراضى ، ومن ثم كان السباق عظيما بين الطامعين فى الاستحواذ على أكبر نصيب من العالم الجديد .

وقد اشتق اسم البرازيل من رحلة برتغالية هامة اشترك فيها أميريجو فسبوتشى ؛ ذلك لأن السفن حملت فى عودتها شحنة من خشب

الصباغ أحمر اللون مثل « البراساس » ، أى « الفحم المتوهج » ، وكان لونه براقا حتى لو أن قطعة منه وضعت على كومة من الخشب لبدت الكومة كلها وكأنها تشتعل . وقد بيع هذا الخشب بثمن مرتفع ، فكان هذا أول كنز وجده البرتغاليون فى ممتلكاتهم الجديدة ، وهكذا صار المكان الذى جاء منه هذا الخشب « البراسا » يعرف باسم « براسيل » أو البرازيل .

وفى أثناء ذلك كانت البرتغال مشغولة بتجارتها فى الشرق ، وقد أثار هذا الكثير من المتاعب كما وفر لها الثراء فى البداية ، وإن كان لم يترك لها وقتاً يذكر لأمريكا الجنوبية : كانت البرتغال تريدخشب البرازيل فقط ، ولقد قاتلت الفرنسيين وغيرهم ممن كانوا يرسلون السفن محاولين سرقة بعض منه ، ومرت تسع وثلاثون سنة لم يحدث فى خلالها شىء ذو أهمية فى تاريخ البرازيل .

ولكن فى أثناء هذه السنوات تحطمت بعض السفن قرب سواحل البرازيل ، وتمرد البحارة فى سفن أخرى . وقد سبح بعض البحارة إلى الشاطئ فى حين تخلف آخرون ليلقوا جزاءهم. فعاش عدد كبير من البيض بين الهنود البرازيليين ، وأصبح لثلاثة منهم أهمية خاصـــة بالنسبة إلى المستوطنين البيض فى المستقبل .وكان هؤلاء الثلاثة هم : رامالو Ramalho الذى تركته السفينة التى كان فيها قرب سانتوس فتسلق الصخور إلى المكان الذى به الآن مدينة ساو باولو ، حيث وقع نظره على بوتيرا الحسناء Potira ابنة الرئيس « تيبيرسا » والتى كان اسمها يعنى « الزهرة » ، وقد أحب كل منهما الآخر من أول نظرة وتزوجا . وكان ثانى الثلاثة

كاراموروا « أى رجل النار » ، وهو الذى كان قد أنقذ نفسه من الهنود آكلة لحوم البشر الذين يعيشون فى خليج باهيا بإطلاق الرصاص من البندقية التى يحملها ، فظنه الهنود الذين لم يعرفوا طلقات البنادق من قبل إلها فصادقوه وبقى معهم وعاونهم على طرد أعدائهم وتزوج الأميرة « باراجاسو » . وبعد سنوات قليلة كان هنود بيرنامبوكو على وشك قتل الشاب البرتغالى ألبوكيرك ليأكلوه ، ولكن واحدة من بنات الرئيس « جرين باو » أو « القوس الأخضر » ألقت بنفسها عليه فحمته من الفأس التى كادت تقتله ، وانتهت القصة كما انتهت قصة كاراموروا ، بزواج ألبوكيرك من الأميرة الهندية ومعيشتهما فى سعادة بعد ذلك .

وكثيراً ماتروى هذه القصة الرومانسية للأزواج الثلاثة لإيضاح الكيفية التى نشأ بها الجنس البرازيلى . فإن كلا منهم خلف وراءه أسرة كبيرة من نسله تعد بالآلاف ، وعاون هؤلاء الآلاف فى بناء الأمة .

ووصلت سفن الاستعمار إلى البرازيل حاملة المستوطنين والجنود فى سنة ١٥٣١ ، فأنشأوا قلعة عند باهيا بمشورة كاراموروا ومعاونته ، كما شيدوا حصناً آخر عند ريودى جانيرو حيث أقامت الحملة لمدة ثلاثة أشهر ولكنهم أنشأوا مستعمرتهم الرئيسية فى سان فيسينتى حيث منح رامالو المستعمرين خبراته وضمن لهم صداقة هنوده .

واعتلى عرش البرتغال فى ذلك الوقت ملك جديد هو يوحنا الثالث الذى أبدى اهتماما كبيراً بالبرازيل ؛ فقد كانت أحوال البرتغال فى تدهور فى الهند ، حتى ليقال إن كل حبة من حبات الفلفل كانت تكلف البرتغال

قطرة من الدم البرتغالى ، هذا عدا أن بيزارو الإسبانى كان قد بدأ غزو بيرو فى السنة السابقة (١٥٣٠) ، وكانت السفن تعود إلى إسبانيا حاملة شحنات من الذهب ، وبدأت تصل إلى آذان الملك جون القصص عن الثروة الخيالية التى يسرقها الإسبان . وفى ثلاث سنوات كانت إسبانيا قد استولت على إمبراطورية الانكا وشيدت مدينة ليما .

وحوالى سنة ١٥٣٤ — قبل أن تبدأ إنجلترا فى التفكير فى استعمار أمريكا الشمالية — قرر ملك البرتغال يوحنا الثالث أنه لابد له من عمل شىء فى البرازيل قبل أن تتمكن إسبانيا من اختطافها منه ؛ فوضع أمامه خريطة لساحل البرازيل ، ورسم على الخريطة خطوطاً قسمت الأرض إلى أقسام متناسقة تنطبق تقريباً على الولايات الساحلية الموجودة حالياً . ولما كان الملك يوحنا لم يشاهد تلك البلاد بنفسه ، وكانت الخريطة من ناحية أخرى تقريبية تمثل التصور الشخصى للرجل الذى رسمها ، فلم يكن من المهم فى شىء كيف خطط الملك التقسيمات التى وضعها على الخريطة .

وكان الملك جون يريد أن يكرم عدداً من رجال البلاط الذين قاتلوا فى سبيله فى الهند ، وتقسيم الأرض إلى خمسة عشر جزءاً كان تقسيما صالحاً كأى تقسيم آخر . وهكذا فإنه ببضعة خطوط من قلمه أعطى الملك يوحنا جميع الولايات الساحلية الحالية تقريباً إلى رجال البلاط ولورثتهم من بعدهم بصفة دائمة ماداموا مظهرين ولاءهم له ، وكان عليهم أن يرحلوا لتوهم بالسفن المحملة بالجنود وبالمغامرين لاستيطان الأرض . وكان الدليل الوحيد على ولائهم أن يرسلوا إليه الذهب كما يفعل الإسبان ؛ ذلك لأن الملك

يوحنا كان يعتقد أن الذهب موجود فى الأرض بكميات كبيرة ، وأنه من السهل أخذه من الهنود ، كما هى الحال فى بيرو ، مادام الهنود لا يقدرون له قيمة ولا يفعلون به شيئاً إلا أن يتزينوا به ويزينوا معابدهم .

وكان بين الحقوق التى خولها الملك لهؤلاء « القباطنة » النبلاء حق استعباد المواطنين للعمل فى المناجم وفى المزارع ، ولهم بعد ذلك أن يفرضوا الضرائب على الملح وغيره من الضروريات ، وأن يبيعوا التراخيص لبناء المطاحن والمعاصر ، وأن يسنوا القوانين ويلزموا الأهالى باحترامها ، على أن يكون نصيب الملك خمس حصيلة المعادن والأحجار الثمينة ، وعشر ماعدا ذلك من المنتجات .

وكان جميع هؤلاء القباطنة شجعاناً وجنوداً محنكين ، فتوجهوا إلى ممتلكاتهم الجديدة ، وهم يتخيلون أنفسهم ملوكا على تلك المناطق الموحشة التى لم تكن يومذاك سوى علامات مرسومة على خريطة . ولكن أغلبهم صادف من المتاعب أكثر مما صادفه الكابتن جون سمث فى جيمس تاون[1] فقد تقاتلوا فيما بينهم ، ووصلت قسوتهم بالهنود إلى حد القيام بالمذابح الجماعية وحرق المدن الجديدة . ثم إنهم لم يعثروا على الذهب ، وأثبتت معظم هذه الإقطاعيات فشلها . وفى الوقت ذاته كانت إسبانيا قد غزت أرض البرتغال وحكمت الوطن الأم واحتلته لستين سنة تاركة الولايات البرازيلية لمصيرها .

(١) الكابتن جون سمث (١٥٨٠ — ١٦٣١) مستعمر إنجليزى فى فرجينيا وتقع مدينة جيمس تاون عند مصب نهر جيمس وقد أنشأها الكابتن سمث سنة ١٦٠٧ .

ومن الطبيعى أن استيلاء فرد واحد — ومن بعده ذريته — على مساحات شاسعة من الأرض (بعضها فى حجم دول أوربية) يؤدى إلى ظهور جميع مساوىء الإقطاع ؛ ففى القرون التى تلت هذا لم يكن يستطيع أولئك الذين يزرعون الأرض أن يتركوا أرض سيدهم ، أو أن يبدأوا عملا خاصاً بهم . أما إذا كان مالك الأرض رجلا عادلا حكيما — كما كان الفليلون فعلا — فإنه كان يعد لعماله مساكن جيدة يعيشون فيها ويوفر لهم الرعاية الصحية وينشىء المدارس لأبنائهم . ولكن فى أغلب الحالات كان الملاك يريدون كل شىء لأنفسهم ، وكان الكثير منهم يعيشون فى المدينة ولا يذهبون إلى ممتلكاتهم إلا فى أوقات الحصاد ، بل إن بعضهم كان يقيم فى البرتغال ويترك كل شىء فى يد وكلاء جشعين لا ضمير لهم ، وأجر بعضهم هذه الامتيازات التى نالوها ، باعتبارهم من كبار ملاك الأراضى لآخرين فى نظير أجر يتقاضونه كل عام .

وهكذا فإنه حتى بعد أن انتهى عهد الرق لم تكن حياة عمال الأرض بأحسن من حياة الرقيق ، وقاسى الناس الأمرين من سوء التغذية ، ومن المساكن السيئة ، ومن نقص دور التعليم . وقد تولدت بعض المتاعب السياسية فى التاريخ الثورى الطويل للبرازيل فى هذه البؤرة الكبيرة من البؤس والفاقة ، وكانت هذه الصورة عامة فى جميع البلاد الواقعة جنوب نهر ريو جراند[1] التى تكافح اليوم بإصرار وعزيمة لإزالة هذه الشرور القديمة

(١) النهر المشار إليه هنا هو الذى يتكون منه جزء من الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك ، وتقصد المؤلفة دول أمريكا اللاتينية بصفة عامة .

التى جاء بها الحكم الإقطاعى الأوربى .

ولقد كان من الممكن أن يحدث مثل هذا فى الولايات المتحدة لأن الحكومة البريطانية بدأت بإقطاع مساحات كبيرة من الأرض فى ولايات فرجينيا ونيويورك وغيرها من المواقع الملائمة ، ولكن الثورة الأمريكية جاءت فى تاريخ مبكر فوضعت حداً لذلك كله ، وبدأت جمهورية الولايات المتحدة تنفيذ سياسة ديمقراطية فى توزيع الأراضى ومنحت مائة وستين فداناً بالمجان لأى فرد يقوم بتطهيرها من الغابات وفلاحتها . وعندما شب أطفال هؤلاء نزح كثير منهم غربا للحصول على أراض جديدة . وهكذا نشأت بين الأمريكان فئة من الرواد الذين حرصوا على أن تتوافر لأولادهم المدارس والجامعات . ومع أن الولايات المتحدة قد عرفت الكثير من المتاعب الخاصة بالزراعة إلا أن المزارعين الذين تملكوا مزارعهم الصغيرة كانوا يتميزون بالشجاعة والاستقلال ، ونشأت الدولة على أكتافهم .

وفى هذه الأثناء كانت لشركة الهند الغربية الهولندية مطامع فى البرازيل ، وغزت جنودها وسفنها إقليمى باهيا وبرنامبوكو ، وكذلك أقام الفرنسيون — الذين كانت أمريكا الجنوبية حتى ذلك الوقت مغلقة أمامهم — مستعمرات لهم فى مارنيون وريودى جانـــيرو ، وكان المستعمرون الاسبان يتسربون عبر الحدود إلى الأرض التى كان البرتغاليون يعتبرونها أرضهم ، وكانوا يحتلون الأراضى الواقعة فى أقصى الجنوب فى حين كانت اسبانيا تحكم باقى أنحاء البرازيل ؛ لأنها كانت تسيطر على

البرتغال نفسها . وكان القرصان الانجليز ينهبون المستعمرات التى لديها شيء يمكن نهبه .

وبدأت البرتغال فور تخلصها من حكم الاسبان تعمل على مواجهة ذلك كله ، وقد سبق للبرتغاليين أن نهبوا الشرق ثم غادروه . ولكن إذا كان البرتغاليون يريدون أن يحققوا نجاحا فى البرازيل فإن عليهم أن يقيموا فيها ويفلحوا أرضها ، فعاونت حكومة البرتغال المستعمرين على طرد الغزاة فى بادىء الأمر ، ثم قوت من قبضتها على البلاد بتعيين حكام جدد ، وإرسال أكبر عدد ممكن من المهاجرين .

وفى ذلك الوقت كانت مساحة البرازيل لا تزيد على ثلث الأرض التى تكونت منها الدولة فيما بعد ، وذلك لأن البابا فى معاهدة تورد سيلاس[1] — قبل رحلة كابرال — كان قد خص البرتغال بتلك المساحة فقط ، فى حين منحت اسبانيا بقية أمريكا الجنوبية واستبعدت فرنسا كلية من التقسيم .

ولكن ما لبثت أن ظهرت ثلاث قوى منفصلة ، أخذت تدفع بهذه الحدود إلى الخارج : أولاها المبشرون الجيزويت وغيرهم ممن كانوا يقيمون إرسالياتهم على مسافات متباعدة فى داخل البلاد ، وثانيتها رعاة الماشية الذين كانوا يطلقون قطعانهم فى مناطق أوسع وأوسع . أما القوة الثالثة

(١) تورد سيلاس مدينة فى شمال اسبانيا وقعت بها سنة ١٤٩٤ المعاهدة التى أطلق عليها اسم المدينة ، ونظمت حقوق الاستكشاف فى العالم الجديد بين اسبانيا والبرتغال . (المترجم) .

وهى أهمها جميعاً فهى الجماعة التى سميت حملة الأعلام Bandeirantes .

وكان حملة الأعلام هؤلاء من نسل البرتغاليين الأولين الذين تزوجوا بهنديات وبخاصة أولئك الذين عاشوا فى سان باولو ، وقد ورث هؤلاء عن آبائهم التطلع للحصول على الأرض والذهب ، كما ورثوا الكراهية التى كان يضمرها الهنود للقبائل المعادية التى قاتلها أسلافهم لعصور طويلة من قبل ، ولهذا فإنهم عندما حصلوا على أسلحة الرجل الأبيض ليقاتلوا بها — إلى جانب ماتوافر لهم من خبرة الهنود بالغابات واستطاعتهم أن يعيشوا على منتجاتها فى رحلاتهم — لم يقف فى سبيلهم شىء .

ولقد كان كل الهنود والبيض فى أمريكا الشمالية ينظرون إلى المولدين بازدراء ولكن أنصاف الهنود هؤلاء كانوا يكونون جميع السكان فى مناطق كثيرة من البرازيل ، وكانوا هم السادة فيها ، وكانوا يتميزون بالشجاعة والقسوة والاستقلال التام ، وتكونت منهم جماعات انتشرت فى الداخل وهى تقاتل الهنود فى تقدمها ، وقد أفنوا قرى هندية عن آخرها . وحيثما راقت لهم منطقة ما أقاموا فيها ، وكانت غزواتهم عبارة عن مغامرات وحشية ، كانوا يبحثون عن الذهب الذى كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أنه موجود فى مكان ما ، وعن الأحجار الكريمة — وبخاصة عن جبل من الزمرد الأخضر — تقول الشائعات إنه فى ميناس جيرايس . وكانت الحياة التى عاشوها جحيما من الجوع والأخطار والفيضانات والحمى ، وخطر الهنود التواقين للانتقام . ولهذا فإنهم عندما لا يجدون شيئاً فى رحلاتهم أخذوا

معهم فى عودتهم كفايتهم من الهنود يبيعونهم كرقيق .

وفى النهاية أوصلتهم جهودهم إلى اكتشاف الذهب . ففى سنة ١٦٩٢ بدأ الاندفاع لتعدين الذهب ، هذا الاندفاع الذى غير تاريخ البرازيل إلى درجة كبيرة ، ولكن أهم نتيجة لهذا الكشف هو أنه مد حدود البرازيل إلى سفوح جبال الأنديز .

وكان البرتغاليون — كغيرهم من الأمم التى اشتركت فى حركة الكشف من خمسمائة سنة مضت — يعتبرون الأراضى التى استكشفوها ملكا خاصاً بهم ، ولم يخطر لهم أن أصحاب الأرض الأصليين الذين وجدوهم هناك لهم حقوق إطلاقا . ولا يختلف هذا عما جرى فى الولايات المتحدة نفسها فى أوائل عهدها ، فقد عومل من كان فيها من الهنود نفس المعاملة ، ثم إن القبض على الهنود فى أمريكا الجنوبية واستخدامهم كرقيق كان أمراً مشروعاً ، وكان أحد الامتيازات التى منحها الملوك الاسبان والبرتغاليون إلى رجالهم .

ولقد قوبلت هذه الأعمال بالنقد ، وبخاصة من بعض المبشرين الأولين الذين حاولوا حماية أولئك المساكين الذين حولوهم إلى المسيحية ، على أنه لكى يحمى الموظفون أنفسهم من مغبة أعمالهم هذه فإنهم كانوا يرسلون التقارير إلى البرتغال واصفين الهنود بالجهل والغباء والتعطش إلى الدماء وأنهم لا يصلحون إلا لأن يستخدموا كالحيوان أو أن يبادوا عندما لا يرجى منهم عمل ، وقد اعتبروا أنه من سوء طالع البرتغال أن هؤلاء يختلفون عن الهنود الذين وجدهم الاسبان فى بيرو والذين كانوا قد تعلموا — فى حكم

الانكا — البناء بالأحجار ، كما تعلموا الزراعة وتربية الحيوان .

وقد تقبل الناس رأى المستعمرين الأولين للبرازيل مدة طويلة ، ولكن العلماء اكتشفوا فى الوقت الحاضر أنه كانت للهنود البرازيليين حضارة أعلى بكثير مما قيل عن حضارتهم البدائية ، فلقد كانت جميع القبائل تقريباً تغزل القطن والألياف بوساطة مغزل يدوى وإن كان البعض فقط هم الذين حولوا هذه الخيوط إلى قماش ، كانوا يفضلون أن يصنعوا الأراجيح من الشباك يستخدمونها بدلا من الأسرة للنوم ، وهذه الأراجيح — وبخاصة المصنوعة من ألياف « التوكوم » Tucum — جميلة جداً فى العادة ، وبها رسوم تصنع من ريش النعام وريش الببغاء ، وكانت هذه الأراجيح المطرزة الجميلة تصنع لرئيس القبيلة ولكبار الزوار من القبائل الصديقة .

وكانوا يصنعون عدة أشياء أخرى جميلة ، بعضها من الريش يزين بها الرجال آذانهم وأنوفهم ، وكانت تبدو كالحلى ، وبخاصة عندما تكون من الريش الطويل الذى يتعلق به ريش آخر أصغر . وكانوا يرتدون فى حروبهم قلنسوات بديعة الصنع من ريش الببغاوات أو من ريش « الماكو » (الببغاء الأمريكى) الطويل الذيل ، وعندما يريدون أن يزينوا شيئاً ما مثل ناى أو محفظة أو لعبة طفل فإنهم يعلقون فى نهايتها زراً (شرابة) من الريش . فكانوا بحق فنانين لا يعلى عليهم فيما يصنعونه من الريش . ودلت أوانيهم الخزفية المصنوعة قبل زمن الكشف على مهارة ودرجة كبيرة من التخيل ، وكثيراً ما كانت سلالهم وأسلحتهم وآلاتهم الموسيقية بل ومساكنهم

وقواربهم ومجاديفهم قطعاً فنية .

ولقد أسهم الهنود فى البرازيل - وفى غيرها من دول أمريكا الجنوبية - إسهاماً غنياً فى حضارة دولهم ولغاتها وحياتها ، وأصبحوا هم أنفسهم جزءاً منها . ويجد المسافر الذى يزور البرازيل ويتجول لمشاهدة المدن البرازيلية أو يقوم برحلات إلى داخل البلاد شيئاً من عمل الهنود فى كل مكان ، ولن يرقب هندياً بدائياً إلا إذا توغل كثيراً فى داخل البلاد حيث لايزال مليون ونصف مليون منهم يعيشون كما كانوا قبل وصول الرجل الأبيض . ولكنه سيرى الكثيرين من المواطنين الجميلى السمات ببشرات قد صبغتها الشمس مع سمات هندية وأيد معبرة ، وكل هؤلاء من نسل رجال أمثال كاراموزو وراماليو وألبوكيرك ، وهم جد فخورين بأصلهم الذى انحدروا منه .

على أن الهنود لم يحققوا نجاحا كرقيق ، كانت حياتهم فى الغابات الممطيرة حياة نشطة ، إلا أنهم كانوا يصنعون كل هذه الأشياء الجميلة بقصد السرور والمتعة ، فعندما يبنون منزلا يتلقون معاونة من قبيلة أخرى صديقة ، وكان الصيد مرحا ، وكذلك كان جمع الفاكهة البرية والبندق . أما من حيث الزراعة فقد كانت النساء الهنديات تقوم بجمع الذرة وقرع العسل و « المانيوق » التى كانت تنمو نمواً برياً . ولكن لما جيء بالهنود إلى مزارع المستعمرين لزراعة قصب السكر وفلاحة الأرض عجزوا عن هذا العمل بالرغم مما كانوا يتعرضون له من الضرب والإيذاء .

واضطر البرتغاليون إلى أن يجيئوا بالرقيق من إفريقية فى جماعات كثيرة كما كانوا يستخدمون الإفريقيين فى جنوب بلاد البرتغال نفسها ،

وهكذا بدأ كل شيء يتم بوساطة الزنوج الإفريقيين بما فى هذا تعدين الذهب والألماس ، ويتراوح عدد الزنوج الذين جيء بهم من إفريقية قبل إلغاء الرقيق بين ٤ ملايين و ١٢ مليوناً ، ولا يمكننا التوصل إلى العدد الصحيح لعدم وجود سجل يظهر لنا الأعداد التى هربت من إفريقية إلى البرازيل .

وتوالى الملوك فى البرتغال ، وأرسل عدد كبير من الحكام إلى البرازيل ثم استدعوا إلى البرتغال فى السنوات التى تلت إنشاء مقاطعة القباطنة . ولكن القوانين والضرائب وسياسة الأراضى التى فرضت منذ أيام الهبات الإقطاعية بقيت هى هى دون تغيير . ومع فتح البلاد بواسطة إغارات حملة الأعلام وغيرهم أنشئت إقطاعات جديدة فى ميناس جرايس وجوياز وماتوجراسو ، ونتج عن اكتشاف الذهب والألماس إصدار الكثير من القوانين التى ترمى إلى إبقاء كل شيء فى أيدى البرتغاليين ، وإلى زيادة دخل التاج البرتغالى .

ثم كثر نشوب الثورات ضد الاضطهاد البرتغالى فى مناطق عديدة حتى إنه لما يدهش المرء أن بقيت البلاد متماسكة . وكانت قد بذلت محاولة لإنشاء حكومة مركزية عندما نقلت العاصمة من باهيا إلى ريودى جانيرو سنة ١٧٦٣ ، وعين نائب للملك له السلطة على الحكام والقباطنة . ولكن البرازيليين شعروا فى هذا الوقت بمرارة الاحتكار البرتغالى ، فقد كانوا يريدون أن يبيعوا وأن يشتروا بحرية بدلا من تركيز جميع المعاملات فى أيدى التجار البرتغاليين وأبنائهم ، فلجأ البرتغاليون إلى إتلاف الطرق

خوفاً من اتصال البرازيليين بعضهم ببعض ، وأغلقوا الأنهار فى وجه الملاحة لنفس السبب ، ومنعوا إنشاء المدارس وحرموا نشر الكتب والصحف . ولم يسمحوا بقيام أية صناعة سوى المعاصر البدائية التى تصنع السكر للتصدير .

ولكن مساحة البرازيل الشاسعة وثروتها الضخمة أتاحت للبلاد أن تنمو رغم جميع هذه المعوقات ، على أنها كانت لا تزال متخلفة فى عدة نواح فى أواخر القرن الثامن عشر . وكان من الممكن أن تبقى كذلك لو لم يجئ نابليون فيشعل أوربا كلها .

فعندما رفضت البرتغال أن تشترك مع نابليون فى حصار إنجلترا غزا نابليون البلاد واستولى عليها ، وساعده على ذلك أن الملكة ماريا كانت قد أصيبت بالجنون ، وكانت حكومتها — تحت وصاية الأمير يوحنا — فى غاية الضعف . وكانت البرتغال كلها تعيش على تجارة الخمور مع انجلترا وعلى الدخل الكبير الذى يجيء من البرازيل . أما روح المغامرة القديمة فكان من ذكريات الماضى. وكان علاج الحكومة للموقف سيئا إلى درجة أن قوات نابليون بلغت ضـــواحى لشبونه قبل أن يدرك البرتغاليون ما حدث لهم .

ولحسن الحظ أن كانت السفن التى يمكن أن تستخدم فى حصار بريطانيا راسية فى الميناء فأرسلت الأغذية بسرعة إليها ، وجمع البلاط الملكى حاجياته فى عجلة شديدة جعلتهم ينسون كثيراً من الضروريات وراءهم ، وتسرب وسط الجمع نفر من الناس لم يكن ليصرح لهم بالإبحار .

وكان هذا حشداً لم يشهد التاريخ مثله من قبل ، برغم سوء التنظيم الذى صحبه ، وأقلعت السفن فى اللحظة التى كان الفرنسيون فيها يدخلون المدينة ، وبدأت رحلتها إلى الأرض الخرافية . . . أرض البرازيل .

وكانت الرحلة مخيفة على ظهور تلك السفن الشديدة الازدحام ، ولم يلبث أن ظهر نقص فى مياه الشرب والطعام والملبوسات . فمرض الكثيرون من الجو ومن الطعام السىء ، وعندما انتهت بهم السفن إلى باهيا اضطر الأمير يوحنا ووزراؤه أن يبعثوا لطلب الثياب من الشاطىء — ليستطيعوا أن يظهروا بمظهر نظيف عند مغادرتهم السفن . وكان الترحيب الذى استقبلوا به رائعاً وجن جنون البرتغاليين البرازيليين من السرور والطرب فى كل من باهيا وريودى جانيرو . وأعطى الأهالى إلى اللاجئين كل ما كانوا فى حاجة إليه بما فى ذلك المساكن والعبيد .

وكان الأمير يوحنا رقيق الحاشية بدين الجسم ، وتعلم فى أحد الأديرة حب السلام والموسيقى والأدب والطعام الجيد ، والواقع أنه كان أكولا حتى ليقال إنه كان يضع فى جيبه دجاجاً محمراً يتبلغ به عندما تطول اجتماعاته بوزرائه ، أما زوجته الأميرة كارلوتا الاسبانية — التى كانت أمه قد خطبتها له وهما فى سن الطفولة — على نقيضه تماماً ، كانت امرأة طموحاً متعجرفة تنتظر من البرازيليين أن يجثوا على ركبهم تحية لها عندما تمر بهم على ظهر جوادها . وكان زوجها يخشاها ويخافها لأنه لم يكن يعرف ألبتة ما يمكنها أن تفعله به .

وأحب يوحنا أرض البرازيل منذ البداية بالقدر الذى كرهتها بها

زوجته ، وأحبه الناس جميعاً ، وبخاصة بعد أن ألغى كل قيود الاحتكار وفتح الموانى والأنهار للتجارة الخارجية مع كل الأمم ، وأنهى القوانين التي كانت بغيضة إلى قلوب الناس .

ولم تعد البرازيل الابنة المضطهدة للوطن الأم ، بل أصبحت وهى على رأس العالم البرتغالى ، وشرع يوحنا من فوره فى العمل على جعل ريودى جانيرو عاصمة تستحق هذه المكانة ، وعندما تولى العرش باسم الملك يوحنا السادس بعد موت الملكة ماريا المجنونة كان قد أقام المدارس والمكتبات والمصانع وأنشأ حديقة للنباتات ، ووضع أسس أنواع عديدة من الثقافات والصناعات . وأصبح فى استطاعة البرازيليين أن يتحلوا بما لديهم من ذهب وماس ، كما أنهم حصلوا على الكثير من الامتيازات التى تجعل الحياة بهجة مرغوباً فيها .

وكان يود الملك يوحنا أن يقضى حياته كلها وسط هـــذا الشعب الطيب وفى البلاد التى يستطيع أن يشاهد فيها ثمار ما غرسه ، ولكن رعاياه فى البرتغال لم يرتضوا أن يكون بلاطهم فى أمريكا الجنوبية ، كما أنهم لم يرتاحوا إلى القوانين الجديدة التى سنها يوحنا والتى كانت تحابى البرازيل ، هذا عدا أنه بعد انتهاء عصر نابليون كان التفكير فى الحكم الجمهورى يزداد قوة فى البرتغال بسبب نجاحه فى الولايات المتحدة . وكم كانت دهشة الملك يوحنا عندما قامت شبه ثورة فى البلاد انتزعت منه دستوراً . فأدرك الملك أن الخطوة التالية قد تطيح بعرشه الذى لم يكن مستقراً . ولهذا قرر — آسفاً — أن يعود إلى البرتغال ، وكان آخر عمـــل قام به فى

البرازيل هو توقيع الدستور الذى طالما طالب به البرازيليون ، ثم عين ابنه الأكبر بيدرو نائباً للملك فى تلك البلاد .

ولقد شب بيدرو فى مدينة ريودى جانيرو التى كانت تجمع بين البدائية والسمات الشرقية ، فى حين كان والده يسعى إلى تحضرها وكانت والدته مشغولة بالمؤامرات السياسية . وكان بيدرو كأبيه مغرماً بالموسيقى ، يعزف على عدة آلات موسيقية ، كما أنه ألف عدة مقطوعات ـــ منها نشيد الاستقلال البرازيلى ، ولكنه على النقيض من والده فى صفات أخرى . فبينما كان يوحنا بدين الجسم معتل الصحة يعوزه الإقدام ، كان الأمير بيدرو قوياً معافى لا يهاب شيئاً . ثم إنه لم يتفق مع والده فى السياسة ، ورأس جماعة من الشباب الذين عقدوا العزم على استقلال بلادهم . وقد قدر الملك يوحنا أن هذا سوف يحدث يوماً ما ، ولهذا فإنه نصح بيدرو بأن يوطد أقدامه على العرش ، وأن يكون أول حاكم مستقل للبرازيل .

وبعودة الملك يوحنا إلى البرتغال تحولت البرازيل مرة أخرى إلى مجرد مستعمرة يتولى حكمها الأمير بيدرو نائباً للملك . وذلك لأن الملك يوحنا لم يجد مفراً من تلبية جميع طلبات الأمراء البرتغاليين التجار الذين كانوا يريدون استعادة احتكاراتهم القديمة ، ولكن البرازيليين كانوا إذ ذاك فى وضع يختلف عما كانوا عليه من قبل ، إذ كانوا يبنون صناعاتهم الناشئة ، ويتمتعون بكثير من الكماليات المستوردة من انجلترا وفرنسا فى نظير تصدير السكر والقطن والتبغ ، وكاد ينفد صبر بيدرو عندما جاءته الأوامر بالعودة إلى البرتغال لاستكمال دراسته ؛ لأن هذه كانت إهانة له وهو فى سن الرابعة والعشرين ومتزوج وأب لعدة أطفال .

وكانت زوجته ليوبولدينا ابنة امبراطور النمسا فتاة بحاثة مغرمة بالدرس والمطالعة ، اصطحبت معها من أوروبا عدداً من العلماء لدراسة النباتات والحشرات والحيوان فى المناطق المدارية ، وكانت مجموعتها من الفراشات وأنواع النباتات بداية إنشاء المتحف الوطنى الذى لايزال مزدهراً. وكانت ليوبولدينا تعطف على آراء زوجها التحررية ، ومن ثم نصحته بأن يخطو الخطوة التالية ويقطع صلته بالبرتغال ، وأنصت بيدرو لنصيحة زوجته ثم أطلق صيحته « ابيرانجا » « الاستقلال أو الموت » بعد ذلك بقليل فى السابع من سبتمبر سنة ١٨٢٢ عندما كان فى سان باولو يحاول كبح جماح ثورة تشتد هناك .

وأعلن بيدرو إثر عودته إلى ريو توليه العرش باسم الامبراطور بيدرو الأول امبراطور البرازيل ، وتوج بعد ذلك بقليل وسط حفلات صاخبة وامتلأت طرقات العاصمة بالراقصين والراقصات .

وبعثت حكومة البرتغال أسطولا يشق البحار مسرعاً ليأخذ بيدرو إلى لشبونة بالقوة ، ولكن لم يستطع الأسطول أن يرسو على الساحل فضلا عن أن ينزل جنوداً . وبدا وكأن الحاميات البرتغالية فى المدن الكبرى تعتزم القتال إلا أن القوات البرازيلية كانت أقوى وأصلب عوداً ، فلم تجسر تلك الحاميات على نزالها ، ومع ذلك مرت سنتان قبل نزوح أفرادها من البرازيل .

وكان يقف إلى جانب بيدرو أعقل رجال البرازيل وأكثرهم حكمة،

وتخير هو من بينهم جوزى بونيفاسيو دى اندرادا سيلفا الذى يعرف بلقب « بطرك الاستقلال » لرياسة الوزراء ، وكان جوزى وأخواه زعماء حزب الأحرار ، واسم « اندرادا » من الأسماء الشهيرة فى تاريخ البرازيل .

وكان الوئام سائداً بين الجميع فى بادىء الأمر ، ثم توالت الأحداث بعد ذلك ؛ فقد اختلف بيدرو ووزراؤه حول تحديد سلطاته وحل بيدرو فجأة مجلس الكونجرس واستخدم الجنود لتنفيذ الأمر ووضع المدافع أمام المجلس ، ومع أنه سحب كل ذلك بعد وقت قصير إلا أن الضرر كان قد وقع ، لقد كان بيدرو يدافع عن النظام الديمقراطى عندما كان فى جدال مع أبيه ، ولكن عندما اختلف مع رعاياه على حقوقهم الديمقراطية وقف ضـــد رغباتهم فى عناد وكبرياء وتعجرف . فقد أصر على حقه فى تعيين حكام الولايات الشمالية بدلا من أن يعطى الناس فرصة انتخابهم ، فانفصلت الولايات الشمالية وكونت « الاتحاد الكونفدرالى الاستوائى » مما اضطره إلى استخدام مزيد من القوة للقضاء على هذا الاتحاد .

وفى أثناء هذا ماتت ليوبولدينا الحكيمة العاقلة تاركة وراءها خمسة أطفال بلا أم ، فتزوج بيدرو أميرة أوربية حسناء ولكنها كانت صغيرة السن جداً ومات كذلك الملك يوحنا ، فورث بيدرو عرش البرتغال ، واعترض البرازيليون على هذا الموقف فى عنف وقوة حتى إنه نزل عن عرش البرتغال لكبرى أولاده الأميرة الصغيرة ماريا دى جلوريا ، إلا أن الناس ظلوا يعتقدون أنه يفضل البرتغاليين ، وعندما اختلف للمرة الثانية

مع وزرائه طردهم وعين بدلهم فعلا سياسـيين برتغاليين ، فتحول الجميع ضده .

وكان بيدرو يقول : « سأفعل كل شيء من أجل الشعب ولكنى لن أفعل شيئاً بأمر الشعب » .

وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فإن جنوده الذين كانوا دائماً ميالين له رفضوا الدفاع عنه ، وفي غمرة غضبه وغيظه وشعوره بالألم والوحدة كتب وثيقة تنازله عن العرش في منتصف الليل لابنه الصغير بيدرو ، ثم ذهب إلى السفينة متعجلا كما فعل أبوه من قبل ، تاركاً وراءه ابنه بيدرو وأطفاله الثلاثة الآخرين في حين أنه أخذ معه ابنته ماريا دي جلوريا التي ستصبح ملكة البرتغال في يوم ما . وفي آخر لحظة التمس من صديقه السابق ومستشاره جوزي بونيفاسيو دي اندرادا سيلفا أن يرعى أطفاله من بعده .

وفي اليوم التالي وقف الصبي الأشقر الصغير الذي كان قد بلغ الخامسة من عمره بين مربيته وبين اندرادا سيلفا في شرفة القصر يحرك منديله الصغير للجماهير ، وكان الناس يصرخون صرخات عالية ، ولم يكن الطفل ليدرك أنهم يعنونه بهتافهم : « يعيش الدوق بيدرو الثاني » .

وتعطل أبوه بيدرو الأول بسفينته في الخليج ، وعندما سمع صيحات الجماهير وقذف المدافع تحية للملك الجديد ، أدرك أن كل شيء سيسير الآن على ما يرام .

وكان بيدرو الصغير برازيلياً وقد أنشأه البرازيليون على النمط الذى يريدونه من حاكمهم . فكان من حسن حظهم أنه شب ذكياً حى الضمير ، فقد شعر بأنه يجب عليه أن يتعلم كل شيء ليكون حاكما جيداً ، وكان بطبيعة الحال يلهو مع شقيقاته كأى صبى صغير . ولكن عندما تقدمت به السن كان نهماً فى الدراسة خشية ألا يتوافر له الوقت الكافى ليكمل تعليمه . فلقد كانت البلاد تنقسم إلى أحزاب سياسية تتطاحن فى قتال مرير عنيف ، حزب يريد قيام الجمهورية ، على حين يريد حزب ثان الملكية الدستورية التى كانت قائمة فعلا ، فى حين كان حزب ثالث يريد استدعاء بيدرو الأول من البرتغال . وقامت عدة ثورات نتيجة لمحاولة الأحزاب الاستيلاء على السلطة . ووضح أخيراً أن الوسيلة الوحيدة لإنهاء النزاع الذى يشتد بين الأحزاب السياسية إعلان أن بيدرو قد بلغ السن التى تخوله تولى الحكم بالرغم من أنه كان فى الخامسة عشرة وإن كان ظاهرياً أكبر من سنه ، وكان قد اكتسب ثقة الجميع بجده ، وإقباله على العمل، وهكذا فى سنة ١٨٤٠ قبل أن يحدث ما هو أكبر وأخطر - أعلن تولى بيدرو أمر الإمبراطورية وتوج باسم بيدرو الثانى .

وكانت هذه فى الواقع البداية الحقيقية لحياة البرازيل كأمة ، ولنصف قرن نمت البلاد فى رخاء ، فقد كان بيدرو الثانى زعيما عظيما للشعب البرازيلى ، ونشأ على مثاله وشاكلته جمع كبير من الرجال الذين يختلفون عن خلفاء السياسيين البرتغاليين القدامى نواب الملك . كانوا رجالا يقدرون قيمة حقوق الإنسان وحريته أكثر مما يقدرون أى شيء آخر ، وكان

الكثيرون يفضلون أن يفتدوا ثرواتهم حتى يمكن أن يتحرر كل البرازيليين، ولا تزال روح هؤلاء الرجال قائمة حية إلى اليوم فى الزعماء البرازيليين الشبان الذين رفعوا علم الكفاح من جديد فى سبيل الديمقراطية ، وكثير من هؤلاء لايزالون يطلبون العلم ، ولكن من تقاليد أمريكا اللاتينية أن يهتم الطلاب اهتماما كبيراً بالسياسة ، وأن يقوموا بدور إيجابى نشط فيها، ومن ثم فإن لهم نفوذاً أكبر بكثير مما للطلاب فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا .

واستمرت الفورات والثورات طوال السنوات الأولى من حكم بيدرو، استمرت فى الولايات التى كان البرازيليون يكافحون فيها للحصول على حقوقهم التى أغفلت ظلماً لأجيال طويلة .

ولكن سرعان ما بدا بوضوح أن بيدرو الثانى والأميرة النابولية التى تزوجها — الامبراطورة تريزا كريستينا — يعيشان من أجل بلادهما . وكان بيدرو موفقا فى اختيار الرجال الحكماء وزراء له ، وقد عملت الجمعية العامة المكونة من مجلسين والتى تشبه فى صورة ما الكونجرس الأمريكى فى تنسيق تام ، وازدادت ديمقراطية بيدرو مع تقدمه فى السن ، فنبذ كثيراً من التقاليد الملكية البرتغالية القديمة ، وارتدى بدلة سوداء بسيطة فى الوقت الذى كان الملوك يرتدون حللا فاخرة مرصعة بالجواهر ، وحدد بيدرو يوماً أطلق عليه اسم « يوم استقبال أسرتى البرازيلية » فكان أى مواطن يستطيع أن يذهب لمقابلة الملك ليشكو إليه ما يلقاه من ظلم .

وشهدت البرازيل نصف قرن من التقدم فى الصناعة والتجارة والفن،

ولم يحدث أى نزاع داخلى ، وكان من الممكن أن يتوافر رخاء أعظم وأكبر لولا اشتراك البرازيل فى حربين خارجيتين بسبب حب البرازيليين للحرية وبسبب غيرة الإمبراطور ، كانت إحدى الحربين لمعاونة أهل الأرجنتين فى خلع الديكتاتور مانويل روساس وحققت هذه الحرب نجاحا ، ولكن الحرب الثانية لتحرير برجواى من الطاغية المتعطش للدماء سولانو لوبيز استمرت سبع سنوات قبل أن يسقط لوبيز ، وفقدت البرازيل فى خلالها الكثير من المال والأرواح .

وكانت مشكلة الرق أعقد مشكلة واجهها بيدرو لأن كل إنتاج البلاد يقوم على أساس استخدام الرقيق ، وكان بيدرو بعد أن تحرر العبيد فى أمريكا الشمالية يعتزم أن يحذو حذوها . ووقف أكثر التقدميين فى البلاد إلى جانبه فى هذه المسألة ، فصدرت عدة قوانين تحرم تجارة الرقيق، وكانت الولايات المتحدة تكافح فى ذلك الوقت من أجل هذه المشكلة نفسها . ثم صدر قانون آخر ينص على أن كل الأطفال الذين ولدوا لآباء من العبيد يعتبرون أحراراً من لحظة ولادتهم . وكان هذا يحل مشكلة الرق تدريجاً على أساس أن الرقيق كبار السن يموتون بين سنة وأخرى . وتولى بيدرو رياسة صندوق لتمويل تحرير عدد معين من العبيد كل سنة ، ومنح بيدرو الصندوق بسخاء حتى كانت الأسرة المالكة تعايش فى ضيق أحياناً بسبب هذا السخاء . ثم صدر قانون آخر يحرر الرقيق الذين يبلغون الخامسة والستين ، وقلل هذا من عدد العبيد بقدر كبير ، ولكن الأمر لم يكن يسير بالسرعة التى ترضى دعاة تحريم الرق ، وكانت على رأسهم الأميرة إيزابيل ابنة بيدرو

وريثة العرش ، واكتسبا بانضمامها لصفوفهم قوة كبيرة ، وهكذا فإنه عندما مرض بيدرو واضطر إلى الذهاب إلى أوربا للعلاج ، عمل دعاة التحريم بسرعة ومرروا فى الجمعية العامة قانوناً وقعته إيزابيل كوصية على العرش فى غياب أبيها .

وكان هذا بداية النهاية، لأن أصحاب الرقيق فقدوا شيئاً ثميناً ، وأصبح الكثيرون منهم فقراء ، وتبع هــذا أن قامت فى بعض أنحاء جنوب البرازيل حالة أشبه بما حدث فى جنوب الولايات المتحدة إثر الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) ؛ إذ قلت الأيدى العاملة اللازمة للعمل فى حقول قصب السكر والتبغ والقطن ، وتلت ذلك أوقات عصيبة أثرت فى حياة البلاد كلها .

ووجه الناس اللوم إلى الأميرة إيزابيل بسبب هذا الموقف وبسبب بعض القرارات التى جاءت نتيجة مشورة غير حكيمة ، وفقدت إيزابيل شعبيتها لاسيما وأن صحة الدون بيدرو كانت قد ساءت بالقدر الذى أوضح أن إيزابيل ستكون إمبراطورة قبل انقضاء وقت طويل . وكان كل هذا يجرى خفية عن بيدرو الذى كان يسترد صحته ببطء فى قصره الريفى فى بيتروبوليس ، وعندما وقعت الواقعة وأعلنت الجمهورية كان ذلك مفاجأة للرجل الذى كان يصرخ دائماً : « عندما تصبح البرازيل جمهورية أود أن أكون أول رئيس لها » .

وكان أول رئيس للجمهورية الجنرال ديودورو دى فونسيكا قائد الجيش ؛ إذ كان الزعماء الجمهوريون قد عقدوا اجتماعاً سريا طويلا فى

الوقت الذى كان الجنود يعدون فيه العدة للثورة ، ولم يكن بيدرو وأفراد أسرته يعرفون شيئاً عن ذلك ، ولكن وزراءه كانوا على علم به، وحاولوا اعتقال المتآمرين ، وبعثوا ببرقية إلى بيدرو ليعود إلى ريودى جانيرو . ولكن فى خلال هـــذه الفترة كانت وثيقة إعلان الجمهورية قد كتبت ووقعت ، وركب الجنرال ديودورو من مبنى رياسة الجيش مسرعاً لإعلان القرار للجماهير التى كانت تنتظره ، ثم قاد بعد ذلك عرضاً عسكرياً كبيراً فى طرقات العاصمة وأطلقت المدافع وأنشد الناس النشيد القومى ، وأخيراً جاءت الجمهورية التى تعطل إعـــلانها طويلا بسبب روح بيدرو الثانى الديمقراطية ، وكان هذا هو اليوم الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٩ ، وتحتفل البرازيل بهذا اليوم إلى جانب احتفالها باليوم السابع من سبتمبر : يوم الاستقلال .

ولثالث مرة فى أقل من سبعين سنة تغادر الأسرة الملكية الحاكمة البرازيل فى هدوء وبسرعة على ظهر سفينة تمخر بهم عباب المحيط الأطلنطى ، مثلهم مثل أى لاجئين عاديين .

ومرت سنتان قبل أن تتولى الأمر حكومة مرضية — عـــلى رأسها ديودورو دى فونسيكا كرئيس جمهورية منتخب ، وعلى أساس دستور كثير الشبه بدستور الولايات المتحدة الأمريكية — ولم يستكمل ديودورو دورة رئاسته ، ذلك لأنه خاصم الكونجرس الذى اعترض على تدخل الجيش فى الشئون المدنية ، فاضطر ديودورو إلى الاستقالة بعد أن حل الكونجرس حلا غير دستورى ، كما حدث لبيدرو الأول من قبله ،

وكما فعل فارجاس فى سنة ١٩٣٧ . وتولى السلطة بعده نائب الرئيس .

وقاست جمهورية البرازيل — ولا تزال تقاسى — من تسلط الجيش، وهناك مشكلات أخرى نابعة من الولايات وعلاقاتها بالحكومة المركزية .

واستغرقت الزراعة فى البرازيل وقتاً طويلا لتتحول إلى نظام لا يعتمد على الرقيق ، كما أن السمعة الحسنة التى اكتسبتها البلاد فى الخارج إبان حكم بيدرو أخذت فى الوهن فى أثناء حكم رؤساء الجمهورية الأولين ، فهبط سعر العملة ، وتوالت الأزمات الاقتصادية ، وحل نظام السخرة[1] محل استخدام الرقيق فى المزارع ، وعجزت الحكومات المختلفة عن القضاء على الأمية التى كانت مرتفعة النسبة بين السكان ، فاقتصر حق التصويت على طبقة صغيرة وبقيت أغلبية لها خطرها غير ممثلة .

ونشأت أعظم المتاعب السياسية بسبب العرف الذى بدأ فى أول عهد الجمهورية بأن يجىء رؤساء الجمهورية بالتعاقب من أقوى ولايتين ، ميناس جيرايس وسان باولو، مما أثار الغيرة والسخط فى بقية أجزاء البلاد. ومع هذا لم تنجح أية ثورة فى تغيير الحكومة حتى خرجت إحدى الولايات على هذه القاعدة . فقد دبر الرئيس واشنجتون لويز (وأصله من ولاية سان باولو) أن ينتخب رجل آخر من سان باولو خليفة له فى سنة ١٩٣٠ ، وقامت ثورة تحت زعامة مرشح المعارضة جتوليو فارجاس من ولاية ريو جراند دوسول وأثيرت الاتهامات عن الفساد وتزوير الانتخابات ،

(١) تعنى القيام بالعمل فى الحقول سداداً لدين . (المترجم) .

وامتدت الثورة واتسع نطاقها وتحولت إلى حرب أهلية ، وكسب الثوار الموقف ، وقبل أن يكمل واشنجتون لويز مدة رياسته أرغم على الاستقالة لصالح فارجاس . ولكن انتصار فارجاس ما لبث أن تزعزعت أركانه لما لجأ إليه من تدابير التعسف فقد ألغى الدستور والحقوق المدنية ، وحرية الكلام ، وحرية الصحافة . ومع أنه قد برز فى البداية كبطل فى أعين الجماهير فإنه سرعان ما راح ينزلق على مراحل ليقوم بدور الديكتاتور الفاشى وكانت الفاشية تسود الجو فى أمريكا اللاتينية . وفى النهاية وضع فارجاس دستوراً يسمح له بإصدار القوانين بمراسيم . ومع كل ذلك لم يفقد شعبيته إلا بعد وقت طويل .

وفى تلك الأثناء كانت البرازيل قد انضمت إلى جانب الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، برغم وجود جماعة قوية من النازيين فى البلاد . وكان من الغريب أن يقاتل الجنود البرازيليون فى الجبهة الإيطالية من أجل قضية الديمقراطية ، على حين أن فى وطنهم حكومة فاشية . ولم يكن هذا ليستمر طويلا ؛ إذ عندما عاد الجنود البرازيليون إلى وطنهم كانت حكومتهم قد وعدت بإجراء انتخابات عامة فى الثانى من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٥ وكانت هى أول انتخابات عامة تجرى فى البلاد منذ خمس عشرة سنة .

وباقتراب موعد الانتخابات انتشرت الإشاعات عن تدبير مؤامرات سياسية ، وخشى الناس أن يحدث انقلاب على صورة ما يؤدى إلى تأجيل الانتخابات أو إلغائها كلية . وهكذا فإن قادة الجيش — الذين كان

الكثيرون منهم قد عاونوا فارجاس من قبل على الاحتفاظ بمنصبه — والجنود — أرغموا رئيس جمهوريتهم على أن يستقيل وأن يهرب من العاصمة ، وجرت الانتخابات فى نظام وعدالة وفاز بالرياسة الجنرال « أوريكو دوترا » بعد أن حصل على أغلبية كبيرة جعلت الناس يتقبلون النتيجة دون أية مناقشة .

ولكن فارجاس عاد وفاز بالرياسة فى الانتخابات التالية ، وبقى فى الحكم حتى أغسطس سنة ١٩٥٥ عندما أرغمته المعارضة فى داخل حكومته على الاستقالة ، فما كان منه إلا أن انتحر .

وخلفه نائبه جواكافيه فيلو ، ثم جاء بعده الدكتور جوسيلينو كوبيتشك سنة ١٩٥٦ ، وهو طبيب له خبرة واسعة بالإدارة الحكومية . وقد انتخب بأغلبية كبيرة .



٤
ريو دى جانيرو

كان للرحالة البرتغاليين فضل استكشاف خليج جوانابارا . وعندما أبحروا بمحاذاة الساحل البرازيلى كانوا يختارون للأماكن المختلفة أسماء من التقويم . ولما صادف وصولهم فى أول يناير عام ١٥٠٢ إلى الموقع الذى قامت فيه عاصمة البرازيل فيما بعد فقد أطلقوا عليه اسم « نهر أول يناير » ؛ ذلك لأن الثلاثين ميلا التى يمتد فيها الخليج إلى الداخل نحو الجبال بدت لهم كمصب نهر ، وكان من الطبيعى أن يظنوه كذلك ؛ لأن المستكشفين الذين كان من بينهم أمريجو فسبوتشى لم يشاهدوا خليجاً فى مثل هذا الامتداد من قبل . وقد بقى الاسم بالرغم من عدم وجود نهر ، ثم اختزل الاسم فصار « نهر يناير » : « ريودى جانيرو » .

وعندما اختارت جماعة من المستعمرين الفرنسيين موقع تلك المدينة بعد ذلك بقليل لم يكن أحد يفكر فى تخطيطها ، أو يتصور المدينة العملاقة التى وضعوا أساسها . وكان المستعمرون قد تشاجروا مع زعيمهم فيلجانيون ، فنزحوا عن جزيرته الواقعة فى الخليج ، والتى لا تزال تحمل اسمه ، إلى تل على الأرض الرئيسية ، ويرجع سبب اختيارهم للأرض العالية إلى رغبتهم فى إقامة حصن لإبعاد البرتغاليين الذين كانوا يزعمون لأنفسهم حق اكتشاف البرازيل ، وكانوا غاضبين على الفرنسيين لاستقرارهم هناك .

ولكن هؤلاء الهوجونوت الفرنسيين ، مثلهم مثل أولئك الذين نزلوا أرض الولايات المتحدة ، كانوا مضطرين إلى الهجرة إلى مكان ما هربا من الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه فى فرنسا الكاثوليكية ، وكان ملكهم الفرنسى سعيداً للتخلص منهم ومن مشكلاتهم ؛ وبخاصة لأنهم هم أنفسهم قد جمعوا النقود التى مولوا بها مستعمرتهم ، وظن الملك أيضاً أنه يملك حق السماح لهم بأن ينزلوا أرض العالم الجديد ، لاعتقاده أن رجلا فرنسياً اسمه جان كوزان كان قد اكتشف قارة أمريكا الجنوبية باسم فرنسا ، وأنه كان أول من سار بسفينته على طول الساحل البرازيلى باحثاً عن أسواق للتجارة فى الأراضى الجديدة ، وكان مجىء الهوجونوت فى الوقت المناسب لإثبات ماتزعمه فرنسا ولإعطائها موطئاً فى تلك القارة .

ولم يلبث ملك البرتغال أن قلق لهذا ، وبعث بأوامره إلى القبطان ميم دى سا فى مستوطنة باهيا لطرد الفرنسيين . على أنه فى نفس الوقت كان الفرنسيون النشطون قد بنوا بعض الدول الأوربية الطراز التى صنعوا لأجلها قوالب الطوب الأحمر والقرميد فى قمائنهم ، وقامت هذه الدور وسط أكواخ هنود التامويو المصنوعة من أوراق النخيل . وكان لهؤلاء الهنود قرى عديدة على طول خليج جوانا بارا ، فأطلقوا اسم « كاريوكا » (أى دار الرجل الأبيض) على منازل الفرنسيين ، ولا يزال هذا الاسم يستخدم فى ريو التى يطلق على أبنائها اسم « كاريوكيين » . وكان الهنود مسالمين للغاية وأظهروا رغبتهم فى التبادل مع الرجل الأبيض ، فكانوا يقدمون جوز الهند ، والأدوات المصنوعة من الريش ، والقردة ،

والببغاوات ، والأخشاب البرازيلية ، فى نظير الخرز ، والمرايا ، والأقمشة والحلى المعدنية ، والفؤوس ، وغيرها من الأدوات .

وهكذا استمر الوئام حتى جاءت من باهيا سفن القبطان ميم دى سا يقودها ابن أخيه استاسيو ، وبدأت السفن تطلق نيرانها ، واستمر القتال طويلا لأن هنود التاموريو كانوا يقاتلون إلى جانب الفرنسيين ، فجند البرتغاليون أعداء التاموريو ليقاتلوا فى صفوفهم . وقد استمر الفرنسيون يقاومون البرتغاليين طيلة سنتين بعد أن اعتصموا بأعلى التل ، ولم يهزموا إلا بعـــد أن وصل القبطان ميم دى سا بنفسه على رأس قوات أخرى للاشتراك فى المعركة الأخيرة التى قتل فيها استاسيو .

وفكر ميم دى سا بعد ذلك أن « موروودو كاستيللو » — أى قلعة الجبل التى صمد فيها الفرنسيون تلك المدة الطويلة — تحتل مكاناً ممتازاً ، فقرر أن يبنى فى مكانها حصناً أكثر مناعة للحامية البرتغالية ، وكذلك كانت المدينة البرتغالية فى حاجة إلى إحباط محاولات المستعمرين من الدول الأخرى .

ويعتبر استاسيو دى سا المنشىء الحقيقى لمدينة ريو ، ولكن لم يكن ليخطر بباله أو ببال الفرنسيين ماستصبح عليه تلك المدينة حتى ولو كانوا على دراية بتخطيط المدن ؛ إذ أن موقعها من أعجب المواقع فى العالم لقيام عاصمة كبيرة ونموها . فلم تكن هناك أرض مستوية ، وكانت الشواطىء الرملية على طول الساحل ضيقة تغطيها المستنقعات بسبب المد العالى الذى كان

يطغى عليها ، كما أن الجبال العالية كانت ترتفع خلف الشواطىء مباشرة تاركة مساحات صغيرة جداً صالحة للبناء .

واليوم تكشف لك نظرتك الأولى إلى المدينة عن هذه الجبال التى صنعها الإنسان ممتدة على ساحل البحر لأميال حتى تصد المد العالى ، وقد ردمت الأرض وراء هذا الجدار لإنشاء طريق متسع تحيط به الأشجار المدارية ، ونمت المدينة فى هذه المحارات الضحلة التى يدور حولها الجدار ، وانتشرت فى الوديان القصيرة الضيقة بين الجبال العالية ، بل وحتى على جوانب الجبال متى توافرت الأرض المنحدرة التى يمكن البناء عليها ، وترتفع فوق حافات الدور جرف عمودية ذات أشكال عجيبة ، تصفها الأسماء التى تطلق عليها مثل : « كوركوفادو » أى الأحـــدب « دويس ارمانوس » أى الأخوان ، « بيكودى باباجايو » أى منقار الببغاء ، ثم « بانودى أسوكار » أى قمع السكر ، و « قمع السكر » هذا عبارة عن صخرة مدببة ترتفع من حافة الماء إلى ارتفاع ١٢٠٠ قدم ولا تبعد كثيراً عن وسط المدينة ، وتصعد عربة صغيرة على سلك كالقاطرة الهوائية ناقلة السياح لمشاهدة المنظر الجميل من أعلاها .

وجبل سانتا تريزا الذى يرتفع فى وسط الحى التجارى كصف من السلالم الخلفية أقل انحداراً من قمع السكر ، وتبدو المنازل على منحدراته متأرجحة ، وللكثير منها ثلاثة طوابق فى واجهتها وطابق واحد فى الخلف أو العكس . وبهذا الحى خط ترام شديد الانحدار تكاد عرباته تنزلق براكبيها إلى وسط المدينة .

وعندما تشاهد مدينة ريو من الجو يتضح لك كيف وقفت هذه الجبال عائقاً لنمو المدينة . فقد أعطتها هذه الجبال شكلا من أغرب الأشكال ولكنها فى الوقت ذاته أضفت عليها جمالا بديعاً بمناظرها الخلابة وأفقها الرائع عند غروب الشمس . ولكنك تتساءل : أين تستطيع المدينة أن تتسع بعد ذلك مادامت كل أرض تصلح للبناء تشغلها إما الدور وإما الحدائق . وكان هذا أحد أسباب تغيير عاصمة البرازيل من ريو إلى المدينة الجديدة برازيليا .

وعندما تبدأ بك الطائرة فى الهبوط فإنك تشاهد عدداً كبيراً من مداخن المصانع ، ولكنك لا تشاهدها فوق المنازل ، وربما كانت العمارات السكنية المطلة على المحيط ذات هواء منعش نوعا . ولكنك لا تزال فى المنطقة المدارية وكل مايحتاج إليه الإنسان حتى فى وسط الشتاء هو مدفأة كهربية .

وعندما تدخل طائرتك فى الممر الجوى بين الجروف التى تبدو أكبر من حقيقتها ، وعندما تزوم الطائرة مارة بالتمثال الضخم الهائل للمسيح المخلص المنقذ الذى يعلو قمة كوركوفادو (الأحدب) فإن مطارسانتوس دامونت الذى أطلق عليه اسم الرائد البرازيلى المخترع لصناعة الطائرات يبدو كأنه ينهض لاستقبال الطائرة ، وهناك منطقة ممتدة من الأرض تصل إلى عشرين فداناً لا يشغلها شىء تقع فى جوار أعلى المبانى التى تملؤها المكاتب ، وستبدو لك أرضاً مغفلة مهملة فى مثل هذه المدينة المزدحمة ،

ولكن الواقع أنها قد ردمت حديثاً ولا تزال تسوى لإعدادها للبناء ، وسترى السيارات وهى تنقل الأتربة لردم الأرض على حافاتها .

وإذا كنت تحاول تحديد موقع «تل القلعة» حيث أنشأ استاسيو دى سا المدينة فى البداية فان يمكنك ذلك ، فقد ذهب وانتهى ، فمنذ سنوات جاء إلى ريو رجال شركة هندسية من أمريكا الشمالية ومعهم كراكات ضخمة وأنابيب للتصريف ، وعملوا لعدة سنوات يجرفون تل القلعة ويسحونه إلى الخليج ومن ثم لم يبق منه اليوم شىء عدا الاسم «كاستيللو » مكتوباً على السيارات التى تسير فى ذلك الحى .

وكانت توجد أسفل « كاستيللو » فى جوار المطار الحالى أرض صالحة تصلح لشق الطرقات الجديدة وإقامة الأبنية ، وتوجد بها الآن الأبنية العالية التى تشغلها دور الحكومة ومكاتبها فى ناطحات سحاب ، وقد توافرت الأتربة الكافية لإنشاء المطار الكبير فى المنطقة التى كانت من قبل ماء ، ولكن لايزال حى الأعمال فى حاجة ماسة إلى الأرض ، حتى إن تل سان أنطونيو قد أزيل هو الآخر لإيجاد المزيد من الأرض المستوية لإنشاء الأبنية .

وليس مشروع تل القلعة أول مشروع هندسى ضخم قام به أهل ريو ذلك لأنه منذ أكثر من أربعين سنة فكر عدد من أعلام المهندسين فى استحداث الطرقات القديمة والمبانى التى تضيق الصدر فى حى الأعمال فى المدينة البرتغالية القديمة ، وشقوا عدة فتحات فى قلب المدينة من جهة البحر

على أحد الجانبين ، تاركين الميناء إلى الجانب الآخر ، ثم هدموا وأزالوا كل شيء يقع فى طريق هذا الشارع الواسع « ريو برانكوا » .

وبينما كان أفنيدا ريو برانكو يصلح من مبانيه القديمة كان غضب الناس يشتد ، فقد تكاثرت الأحجار والأتربة ، وكان الناس يتعثرون بها حين سيرهم ، فضلاعن أن الكثيرين أرغموا على ترك المساكن التى يشغلونها ، وكانت المكاتب فى المناطق المجاورة قليلة جداً ، ورفض بعض أصحاب أكبر مصانع المدينة أن يجلوا عن مبانيهم حتى أخرجوا منها بوساطة رجال الشرطة ، ولقد أثار هذا الناس وتزايد غضبهم ، وتطلب العمل وقتاً طويلا فلم تكن فى المدينة سيارات للنقل ، وكانت المخلفات والأنقاض تنقل محمولة على العربات التى تجرها الثيران أو على ظهور البغال ، وكانت مواد البناء تنقل بنفس هذه الوسيلة لإقامة المبانى الجديدة .

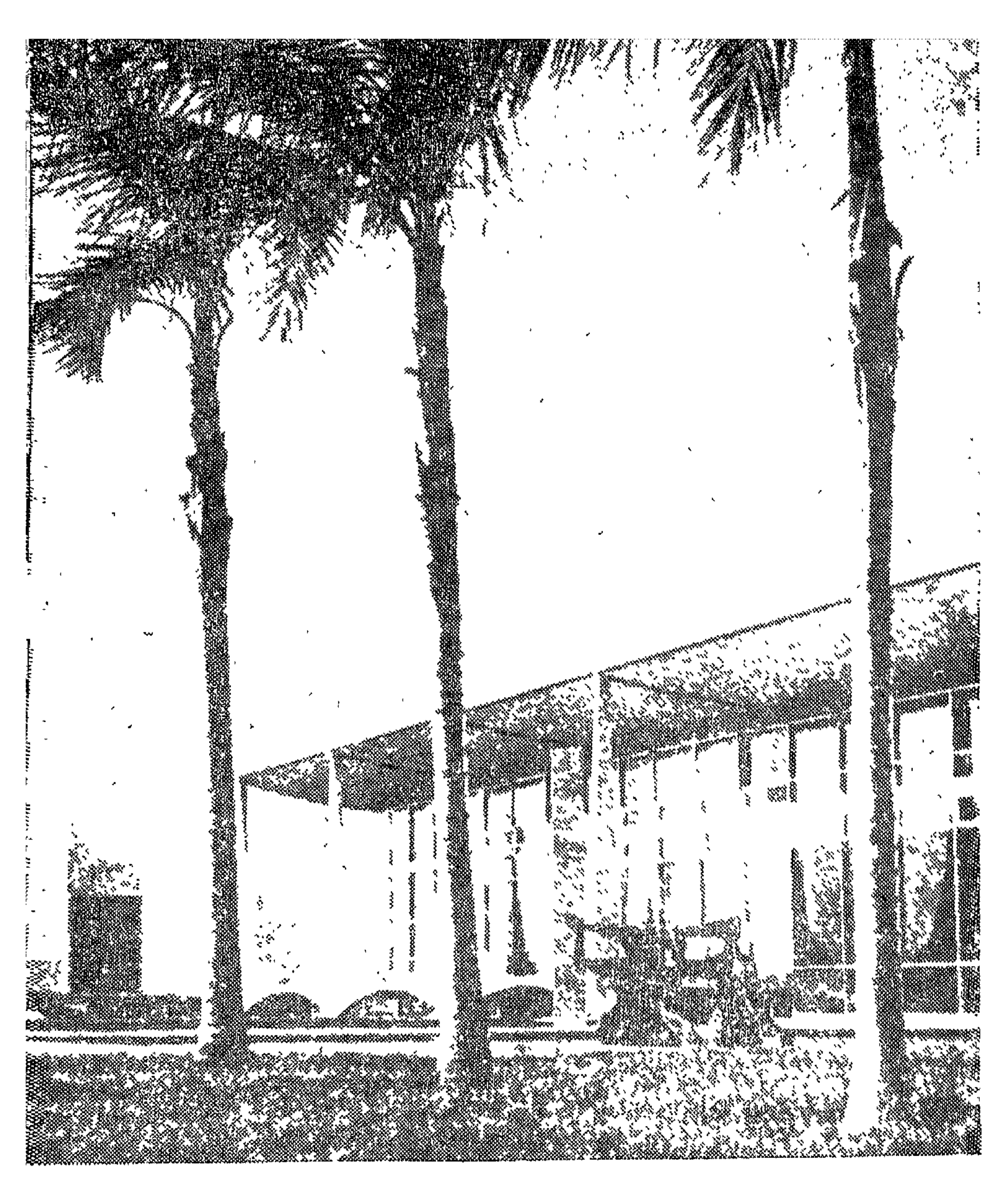
ولكن عندما انتهى كل شيء ، وبخاصة عندما حلت مكان الحوانيت البرتغالية القديمة القائمة بما كان يعلوها من غرف المكاتب بنوافذها الضيقة ، مبان جديدة جميلة ، واستمتع الناس بالمنظر الجميل ، كما استمتعوا خاصة بهواء البحر يهب من « بيرامار » ليرطب الجو فى أشهر الصيف ، وأحس الناس بالزهو لهذه المبانى العامة الجديدة ، مثل دار الأوبرا بزخرفها الجميل ، وهذه الدرجات المهيبة من أحجار البناء البرازيلية النفيسة ، مثل قصر العدالة ، والمكتبة الوطنية ، وقصر مونرو أو دار مجلس الشيوخ . ولقد أطلق على هذه الدار اسم مونرو رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، وقد أقيم البناء أصلا على أنه الجناح البرازيلى فى المعرض الذى أقيم فى سانت لويز

بمناسبة شراء لويزيانا ، ثم نقل بعد انتهاء المعرض على طول الطريق من سانت لويز إلى ريو دى جانيرو .

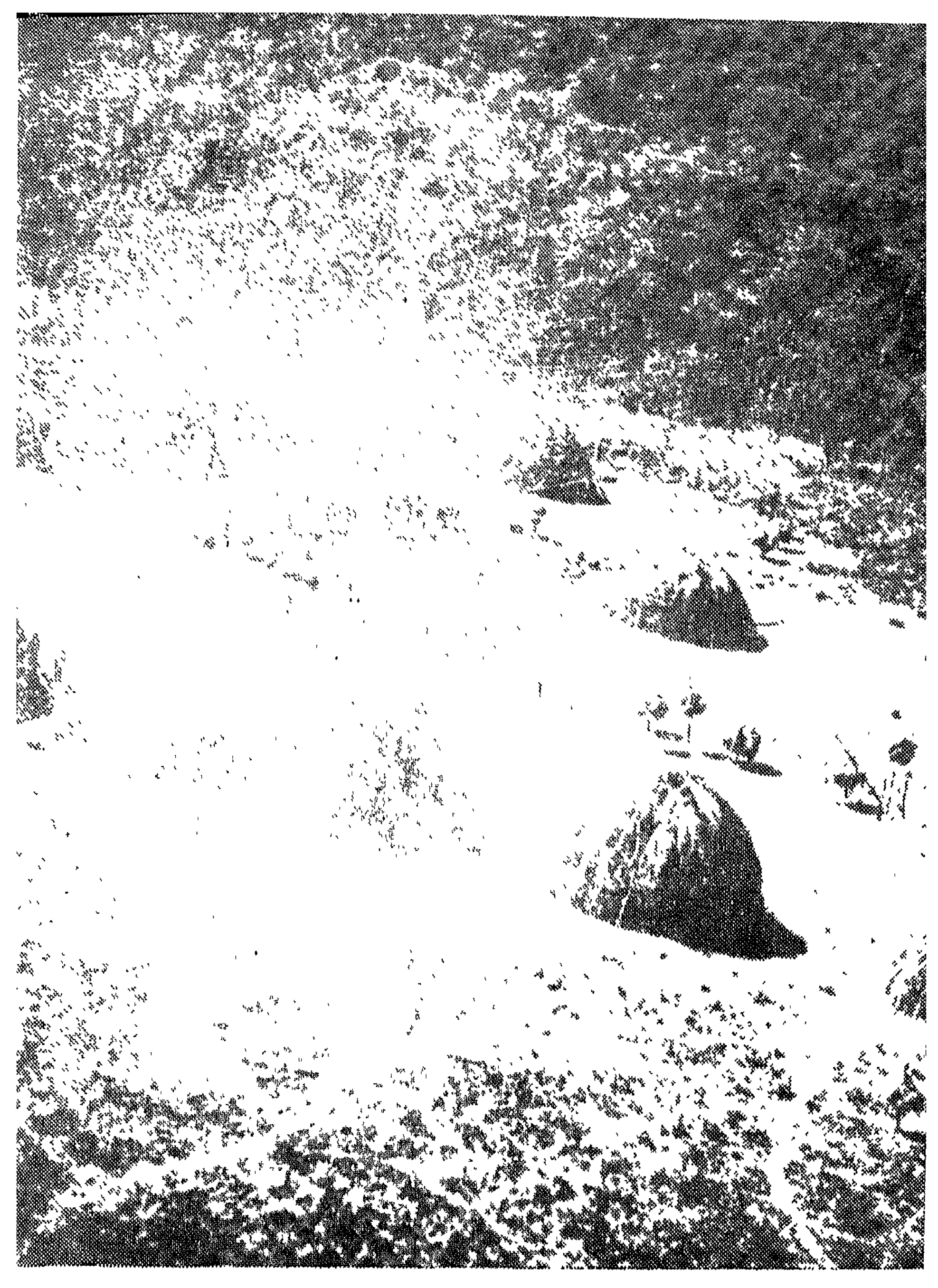
وتقام اليوم ناطحات سحاب جديدة مكان هذه الأبنية القديمة ، ولا يزال هذا القسم من المدينة واحداً من أكثر أقسام المدينة الخلابة اجتذابا للانتباه ، واستمالة للناس ، بما فيه من حدائق ، ولميدانه الفسيح وللأفاريز « المزايك » ، وللمنظر الجميل الذى يبدو فيه الخليج عبر قنة « قمع السكر » . ثم لهذه الكثرة لدور السينما التى فيه ؛ فلقد أقيمت إلى جانب الميدان عدة دور للصور المتحركة ، وكثير من المقاهى ، مع محال كبيرة تبيع الحلوى والأشربة المنعشة لرواد المسارح ودور السينما .

ويوجد فى الطرف القصى الآخر لطريق « افينيدا ريو برانكو » الجزء المفيد من الخليج حيث ترسو السفن ، وقد أنشئت « أرصفة » حديثة تمتد لعدة أميال خصص الجزء القريب منها لسفن الركاب ، وتوجد عادة دائماً سفينة من سفن الركاب مربوطة عند طرف الميدان الفسيح فى جوار منتدى السياحة ، وترى السياح المشدوهين متجولين فى المنطقة من حوله .

وعلى مقربة من هذه المنطقة كانت ريو قد بدأت قبل الحرب العالمية الثانية مغامرتها الثالثة المدهشة للإنشاء ، وذلك بإنشاء شارع « أفينيدا » الرئيس جيتوليو فارجاس ، وهدمت المبانى القديمة فى شارعين متوازيين من شوارع حى الأعمال قرب المرافىء ، وتكررت قصة ريو برانكو ثانية فقد رفض أصحاب المكاتب والمخازن أن يخلوها ، والواقع أنه كان من



برازيليا العاصمة الجديدة للبرازيل وقد افتتحت فى ٢١ / ٤ / ١٩٦٠.
وهى مدينة كثيرة الأبنية الحديثة مثل « قصر الفجر » .



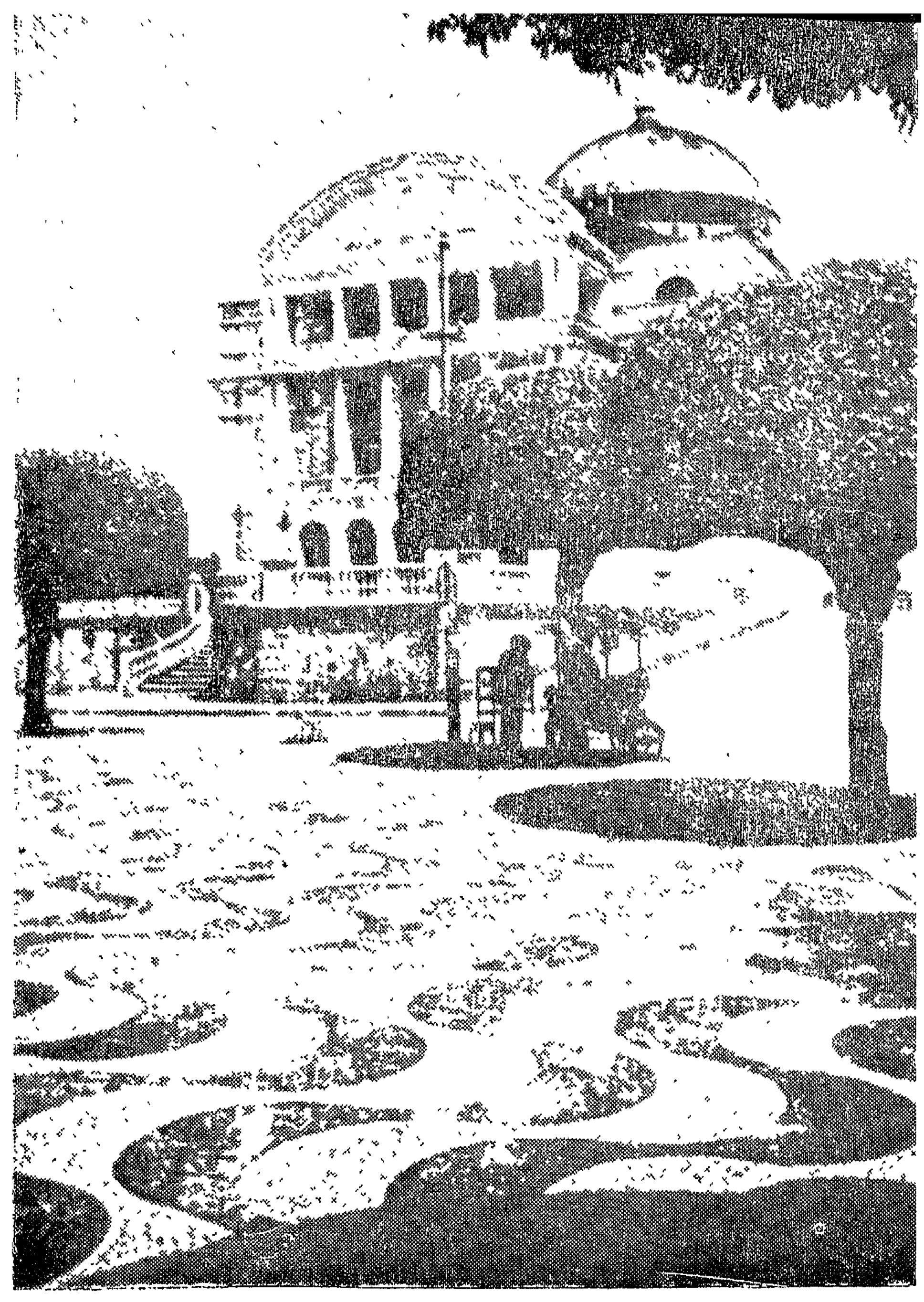
قرية هندية من الجو

النباتات الاستوائية على طول مجرى مائى فى غابات الأمازون

عامل من عمال المطاط يحدث شقا فى شجرة مطاط

منزل من سعف النخل

منازل فى نهر الأمازون أقيمت على طوالات خشبية

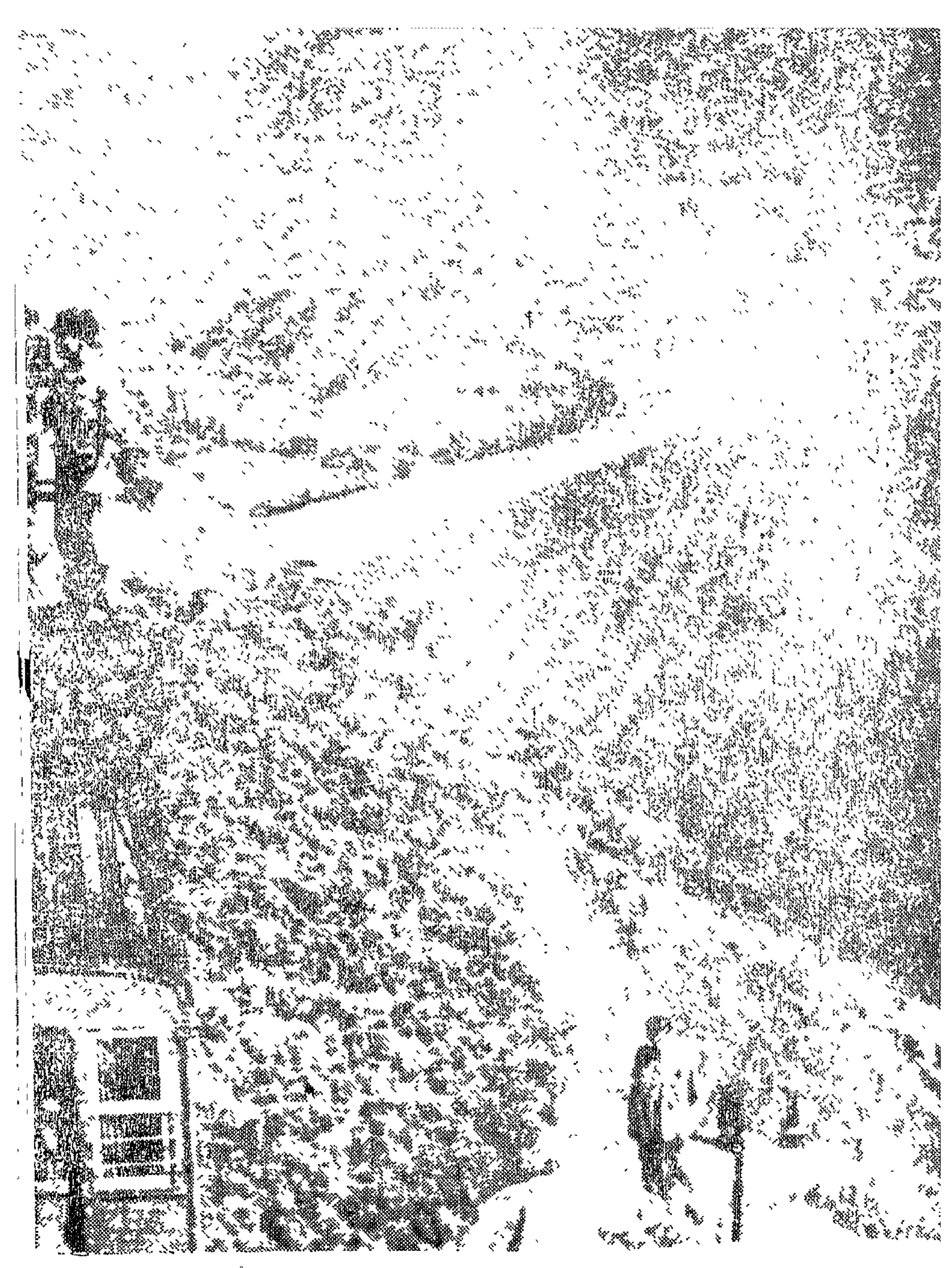


دار أوبرا ماناوس مع طوار من الموزايك



تفريغ شحنات القوارب فى سنتاريم

خليج جوانابارا توضح الصورة ميناء ريو وقمة شوجارلوف



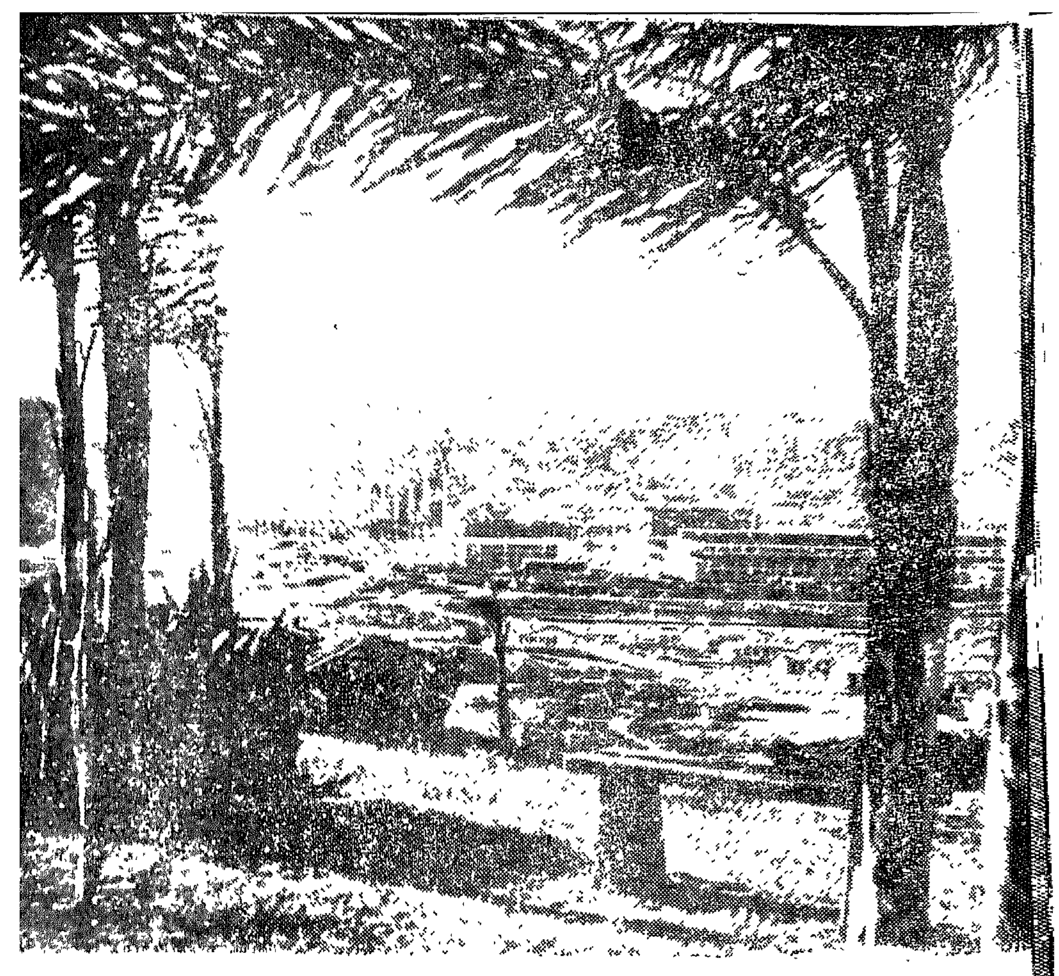
القطار الهوائى إلى قمة « شوجارلوف » فوق ميناء ريو

سان باولو

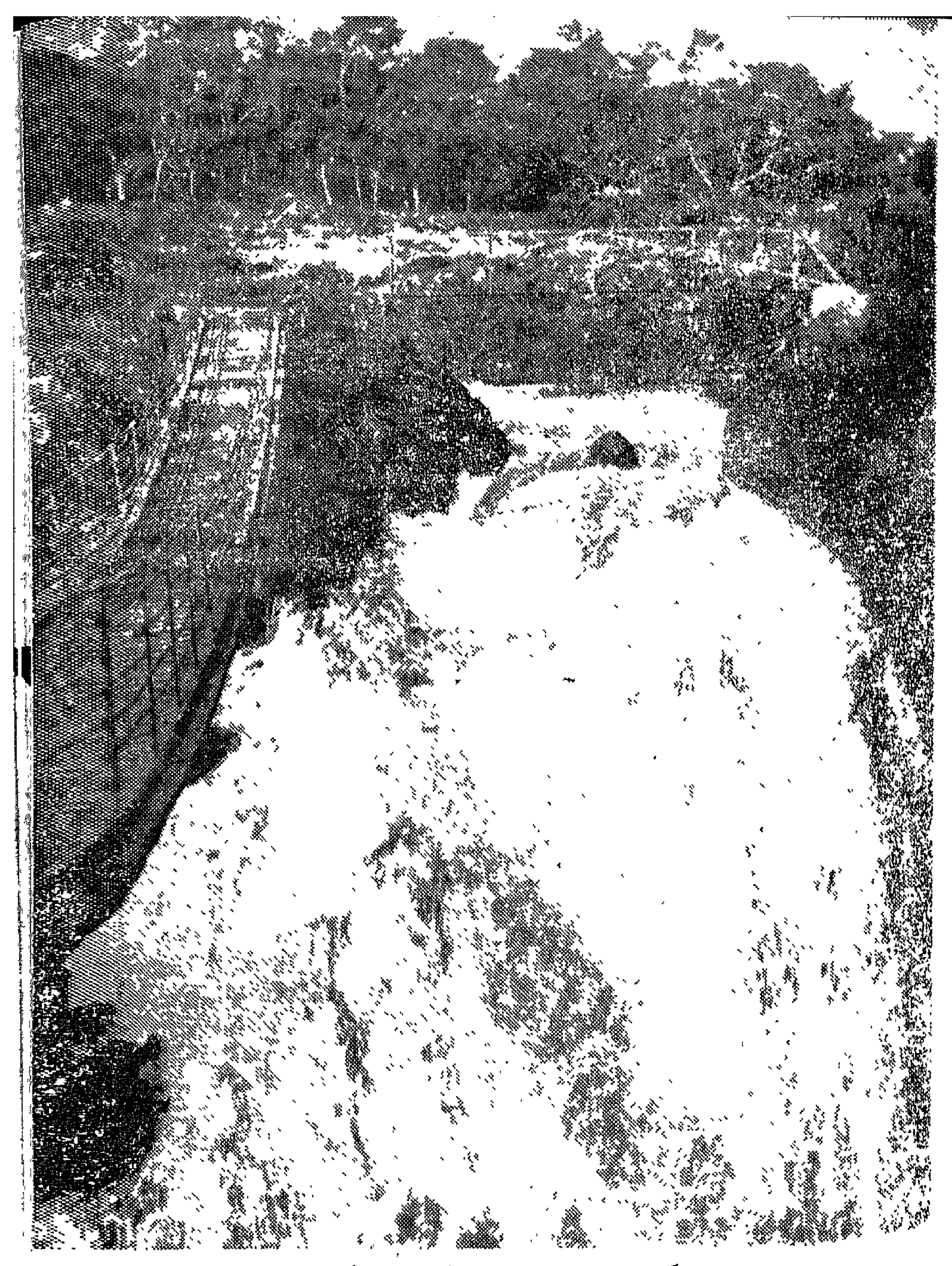
طريق قديم فى باهيا



غسل الذهب فى ميناس جيريس



مصنع الصلب فى فولنا ردوندا



كوبري معلق فوق مساقط سيت كويداس



أشجار الموز فى سانتوس بولايه سان باولو

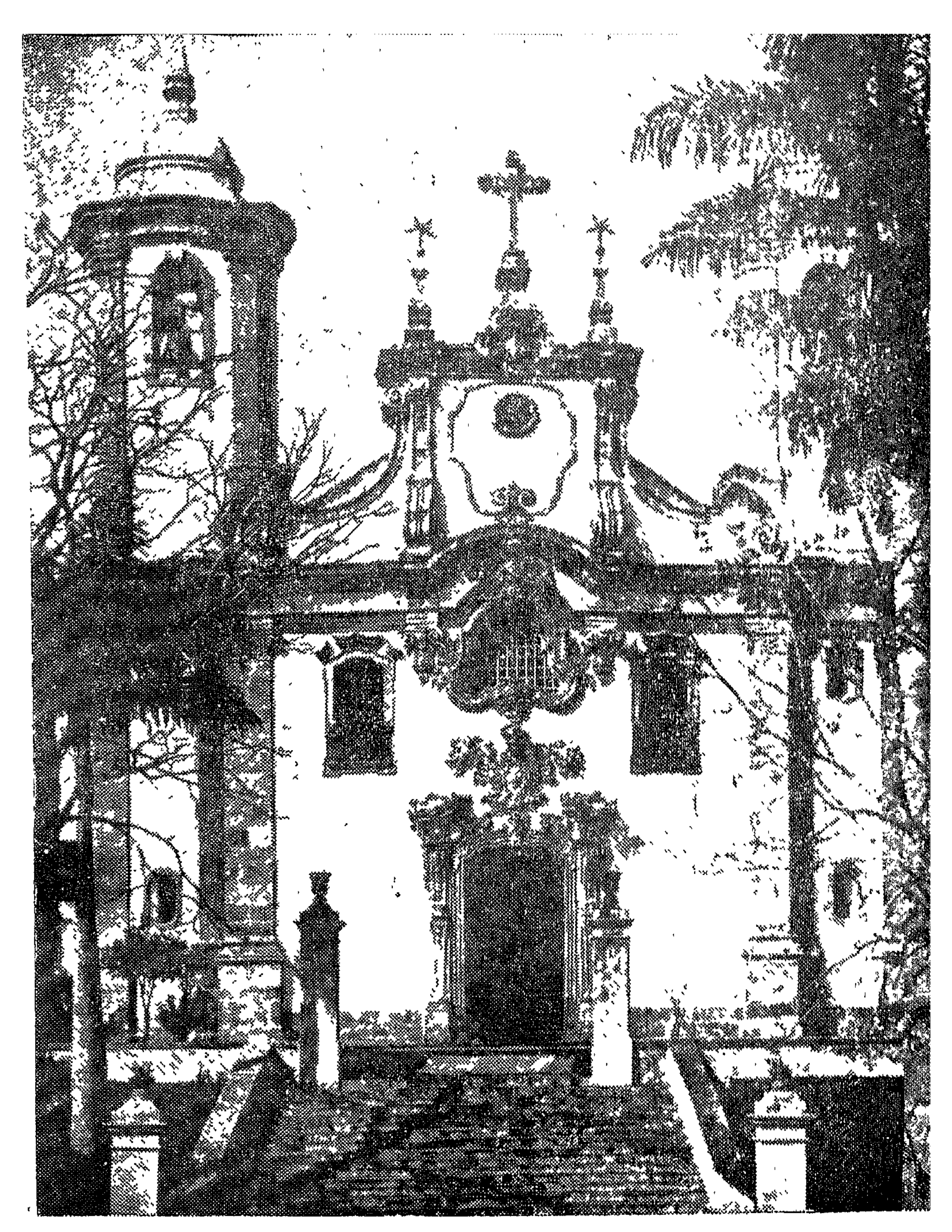


نساء السوق فى باهيا

سان سلفادور بباهيا

قصب السكر فى برنامبوكو

هندى جورانى من ريو جراند دوسول



كنيسة أورو بريتو

رصيف « بندقية البرازيل »



تسلق شجرة جوز
الهند فى بارايبا

الضرورى هدم عدة مبان فى وقت واحد ، ولم تكن تتوافر المبانى التى تتسع لتنتقل إليها المخازن والمكاتب التى تهدم ، ومن ثم تم بسرعة بناء ناطحات فى حى القلعة «كاستيللو» وتضاعف العمل وبدأ عمال الهدم عملهم بسرعة .

وفى أثناء هذا لم تترك احتياجات الحرب إلا أقل القليل من الغازولين ، ولم يكن من الميسور الحصول على سيارات نقل جديدة لمتابعة العمل ، فكان من الضرورى إحضار العربات التى تجرها الثيران ثانية من الريف ، وعادت البغال إلى العمل فى نقل الأنقاض وأحجار البناء ، فكانت الصور التى التقطت لإنشاء هذا الطريق فى السنوات من ١٩٤١ إلى ١٩٤٤ تبدو كتلك الصور التى التقطت لإنشاء أفيندا ريو برانكو فى سنة ١٩١٠ .

وقد احتمل البرازيليون الذين يكرهون القذارة وسوء النظام كل هذا متجهمين عابسين ، كانوا يتسلقون أكوام الصخور ويخطون بحذر وسط ركام الأتربة فى الوقت الذى تطلق فيه غلايات البخار من الطراز القديم التى تولد القوة لعمليات الإنشاء الدخان والسناج (الهباب) على أرديتهم البيضاء الجميلة ، ويسود الدخان الرخام الذى يغطى أجمل أبنية المصارف ، وكان من الواضح أن سنوات ستمر قبل أن تستبدل كل الأبنية القديمة فى أفيندا جيتوليو فارجاس بناطحات سحاب جديدة ، ولكن البرازيليين يذكرون تاريخ أفيندا ريو برانكو ، ومن ثم فإنهم لم يشكوا إلا قليلا من المشروع الجديد ، على أن الشىء نفسه يحدث ثانية فى المدينة التى تحس بحمى الرغبة فى إقامة الأبنية ، ولم تتسبب حتى الحرب فى إبطاء التشييد بدرجة

ملحوظة ، ذلك لأن ريو يجب أن تنمو صاعدة لأعلى نحو السماء بحكم أنها تقوم فى منطقة مغلقة بين البحر وبين الجبال على مثال ما كان على نيويورك أن تنمو وأن تمتد على جزيرة مانهاتن الضيقة بين نهر ايست ونهر الهدسون.

وسببت الحرب الإسراع فى نمو ريو دى جانيرو التى تعتبر اليوم واحدة من أحدث مدن العالم .

وبالإضافة إلى أن ريو دى جانيرو مركز هام للثقافة وللحياة السياسية ، فهى أيضاً مدينة صناعية ، وقد مكنها السلم وانتهاء الحرب من استعادة حركة التجارة الخارجية الواسعة ، وبدأت الغلات تفيض من داخل البلاد لتصدر إلى الخارج ، وزادت الواردات عن طريق ميناء ريو العظيم كثيراً حتى يمكن أن توصف المدينة اليوم بأنها مزيج من واشنطون ونيويورك على قياس صغير .

ولا شك أن هذا النمو قد تعطل فى وقت الحرب لنقص البنزين ولنقص السيارات وعربات السكك الحديدية على مثال ما أحست بالنقص كل البلاد الأخرى ، وكان الناس يقفون فى صفوف طويلة انتظاراً للأوتوبيسات ، وكان الركاب يتعلقون بالعربات فى ساعات انتهاء العمل ، كما يزدحم ركاب القاطرات حتى على درجاتها الخارجية ، وكان سكان الضواحى الذين يذهبون إلى أماكن عملهم بالقاطرات يتعلقون حتى بالقاطرة أو بعربات الفحم ليصلوا إلى محال أعمالهم ، وكان هذا كافياً لأن يفسد مزاج أى شخص ، إلا أن أهل ريو احتفظوا بما عرفوا به من لطف وبشاشة وظلوا يبتسمون للحياة كما هى .

وإذا ما وقفت تراقب الناس وهم يمرون بك فإنك لابد أن تتأثر بمظاهر الود التى يبدونها . فالنساء والرجال الذين يقفون فى صفوف انتظاراً لسيارات الركوب قد ينزلون عن أماكنهم لامرأة تحمل طفلا أو لشخص متقدم فى السن أو لمريض ، ولا يزال الناس يتركون مقاعدهم لتجلس السيدات اللاتى يقفن فى السيارات ، وهذه عادة لا يعرفها أحد فى أى دولة أخرى من دول أمريكا الجنوبية ، ويتبادل الناس التحية حتى وإن لم يكونوا أصدقاء ، وهم يحيون بعضهم بعضاً بأدب إذا جلسوا على نفس منضدة المقهى ، أو إذا نقلوا مقعداً لا يجلس عليه أحد من منضدة إلى أخرى ؛ إذ تقضى العادة أو العرف باستئذان الشخص الذى يجلس إلى جوار هذا المقعد ، ولا يزالون يتبعون الكثير من قواعد المجاملات العامة الشائعة المتعارف عليها منذ أن كان أهل ريو يعرفون بعضهم بعضاً ، بل لايزال كل فرد يبتسم تلك الابتسامة الدافئة التى عرف بها أهل ريو عند هذه الاتصالات الاجتماعية الصغيرة العارضة .

وعندما يتقابل صديقان تتحول الابتسامات إلى قهقهة عالية إظهاراً للسرور ، ويحيي الصديقان أحدهما الآخر مظهرين سعادتهما للقاء ، ويربت كل منهما كتف الآخر ثم يمد يده لتصل إلى ظهر صديقه رابتاً ظهره ، ويطلقون على هذا « امبراسو » ؛ أى الاحتضان . وهذا هو الطابع البرازيلى للتعبير عن الصداقة والود ، ويدعو أحدهما الآخر ليتناول كوباً صغيراً من القهوة ، ثم يتجهان إلى أقرب مقهى .

وإذا راقبنا أسرتين تتقابلان فى الطريق رأينا الرجال يتعانقون

(امبراسو) ، وتقبل كل سيدة النساء الأخريات على كلا الخدين ، ويقبل الأطفال أيدى كبار السن ، ويقبل الرجال أيدى السيدات . وليس هذا كله مجرد عرف متبع ، بل إنهم يفعلونه فى حرارة وبإخلاص مما يوضح أن الناس يشعرون بالسعادة فعلا لهذا اللقاء . ولما كان كل هؤلاء يقفون وسط الطوار « الرصيف » فإن المارة الذين يضطرون للدوران من حولهم ليتابعوا سيرهم يبدون هم أيضاً سعداء بدلا من أن يشعروا بضيق لأن هذا الجمع يسد طريقهم ، والواقع أن الفرد بعد أن يعيش فى ريو بعض الوقت ويعتاد رؤية هذا ، يبدو له أن أهل بلده الذين يلقاهم فى طريقه باردو الحس جافو الطباع ، عـــلى نقيض أولئك الذين قابلهم فى طرقات ريودى جانيرو .

وبالطبع يتحدث كل فرد اللغة البرتغالية ، ولكنك لا تستطيع أن تسير فى وسط المدينة دون أن تسمع أناساً يتحدثون باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، بل وربما باللغتين الاسبانية والإيطالية أيضاً ؛ ذلك لأن المدينة عابئة دائماً بالأجانب وباللاجئين والمهاجرين الذين يجيئون ليقيموا إقامة دائمة فى البرازيل ، أو بالأفراد الذين لهم نشاط تجارى دولى ، وتستطيع أن تعرف هؤلاء الغرباء من مظهرهم ومن ثيابهم ، ولكن هناك كذلك طوابع مختلفة كثيرة من البرازيليين أنفسهم فى المدينة ، فالناس يجيئون من كل من الولايات العشرين التى تكون البرازيل ، وينحدرون من سكان وفدوا من جميع الدول الأوربية تقريباً ، كما ينحدرون من السلالات الهندية والإفريقية التى فى البرازيل ذاتها ، وتتفاوت ملامحهم من الأفراد الشقر

ذوى العيون الزرق إلى السمر الذين تبدو عيونهم فى لون القطيفة السوداء .

ولما كانت اللغة الإسبانية شديدة الشبه باللغة البرتغالية فى قواعدها الأساسية فإن أغلب البرازيليين يفهمون اللغة الإسبانية ، على حين أن الأمريكان الإسبان لا يفهمون اللغة البرتغالية بنفس الدرجة ، ويعرف البرازيليون المتعلمون لغة أجنبية واحدة على الأقل ، ولقد كانت اللغة الفرنسية هى اللغة المفضلة فيما قبل ، ولكن الكثيرين يتعلمون الآن اللغة الإنجليزية ، وبين أهل ريودى جانيرو كثيرون يتقنون خمس لغات أجنبية، والواقع أنهم لماحون فى اللغات حتى إنه عندما يوجد أجانب فى حفل فى ريودى جانيرو فإنك تسمعهم ينتقلون بالحديث من لغة إلى أخرى فى سهولة ويسر بدرجة تدهش أهل أمريكا الشمالية .

وهذا التأثير العلمانى Cosmopolitan لامتزاج عدة أجناس وعدة لغات معاً فى إطار واحد يستقر فى أذهان الزائرين بقوة ، ولكن إذا سئل أحد سكان المدن البرازيلية الداخلية عن رأيه فى أهم الصفات البارزة المميزة لسكان ريودى جانيرو فالمحتمل أن يقول : اهتمامهم بملابسهم . وسيضيف أن أهل ريو يدخرون من طعامهم حتى يشتروا ثياباً أفضل ، وهم يخجلون من أن يُروا فى ثياب ليست على أحدث طراز ، أو أن يروا فى ثياب قديمة قد تكون جيدة مناسبة فى أجزاء أخرى من البلاد وإن كان كل أهل البرازيل يعنون بثيابهم أكثر مما يعنى أهل أمريكا الشمالية .

ولكن الذين لا يرتدون ثياباً جيدة فى المدينة هم شحاذوها . وإن كان أغلب هؤلاء يبدون دائماً نظيفى الأجسام ، لأن أى فرد يستطيع أن

تجد مكاناً له فى الحمامات الشعبية ، وتبدو الثياب الغالية الثمن من التيل والكتان و « الشارك سكين» التى يرتديها الموثرون مصقولة ، كما تبدو الثياب المصنوعة من الحرير والصوف وكأنه جىء بها لتوها من محل تنظيف الثياب ، وحتى ثياب العمل المصنوعة من القطن فإنها تبدو وكأنها خرجت لفورها من أحواض الغسيل ، وحوانيت الحلاقين ومحال التجميل للنساء مزدحمة دائماً ، ويصفف الرجال شعورهم وتبدو دائماً لامعة مغطاة بالدهان (البريلنتين) ، وتصفف كل امرأة شعرها فى طابع جميل ، وفى كل طريق تهب عليك نفحات من الروائح العطرية و « الكولونيا » من الرجال الذين يكونون قد خرجوا من فورهم من صالونات الحلاقة ، كما تواجهك هبات من عطور مركزة تتصاعد من النساء ، وقد اعتاد أهل المناطق الاستوائية الشذى المركز لأزهارهم وعطورهم ، ويحبون استخدام الروائح العطرية ، ولقد تعلم أهل البرازيل أن يصنعوا عطورهم عندما قطعوا عن فرنسا بسبب الحرب ، وينتجون ثيابهم فى مصانع النسيج البرازيلية التى لا تمد السوق المحلية باحتياجاتها فحسب ، بل وتصدر هذا الإنتاج إلى بلاد أمريكا الجنوبية الأخرى . وإذا اشتريت بكرة خيط من بيرو أو إكوادور فقد ترى فى سهولة أنه قد طبع عليها « صناعة برازيلية » .

ومن الأشياء التى لابد وأن تكون قد لاحظتها كثرة عدد المقاهى على « الأرصفة » حيث يجلس الناس دائماً فى الظل ، ويتزاحم الناس هناك قبل طعام الغداء وبعد الساعة الرابعة مساء حتى إنه ليصعب أن تجد منضدة خالية على طول طريق أفينيدا ريو برانكو ، ومع أنه يوجد هناك عادة

قليل من النساء والأطفال إلا أن الغالبية دائماً من الرجال ، ذلك لأنهم يتلاقون لإنهاء الأعمال فى هذه الأماكن الطريفة ، فيتناولون القهوة أو المشروبات المنعشة أثناء مناقشة الأعمال ، وتجد بعض المقاهى خاصة بتجار الحلى ، وأخرى خاصة بالوسطاء (السماسرة) وهكذا .

والبرازيليون لا يقبلون على المشروبات الروحية ، وهم يفضلون أفضل ما يفضلون « ريفريسكو دى كوكو » ؛ وهو شراب مخفف من لب جوز الهند المضروب مع السكر والثلج ليكون شراباً ذا رغوة ، أو يحتسون شراباً يطلقون عليه اسم « جورانا » ويصنع من فاكهة تشبه حبة البن الذى يقتصر نموه على منطقة واحدة فى الأمازون حيث يقوم الهنود المحليون بإنتاجها ويطلق عليها هناك « العين الهندية » ؛ لأن شكلها يشبه فعلا عيون الهنود من السكان .

وتصنع الفواكه الاستوائية الغريبة فى مشروبات وتباع مثلجة كما يحدث فى ماناوس ، ولشراب الكوكا كولا شعبية فى البرازيل ، وتعبأ الزجاجات هناك محلياً ، ولكن القهوة هى الشراب المفضل ، ويحتسيها الناس فى هذا القسم الأوسط من البلاد أكثر من مرة فى أثناء النهار حيث يعتبر إنتاج البن وبيعه أهم الأعمال كلها ، وتوجد عدة محال فى الطريق العام تبيع القهوة ، ولهذه المحال أبواب واسعة ليستطيع الرواد الاندفاع إلى الداخل فيتعجلوا شراء البطاقات للحصول على القهوة ، ثم يحتسوها فى أكواب صغيرة دون أن يفقدوا دقيقة واحدة فى هذا كله ، ويملأ كل فرد كوباً تقريباً بالسكر حتى نهايته قبل أن يصب فيه الشراب الساخن الذى يتصاعد

منه البخار ، ولاقتصاد الوقت ولتوفير جهد الخروج لاحتساء القهوة فإنها توزع فى المكاتب فى ساعات معينة ، ويبعث رجال الأعمال لإحضار القهوة إلى مكاتبهم من المقاهى القريبة للترحيب بعميل هام له قدره ، وحتى فى أثناء الصعود فى مصعد أى ناطحة سحاب فإن صبى المقهى ينفذ إلى المصعد الملىء بالناس حاملا أكوابه على شفارج (صينية) ويسكب القهوة للصاعدين يحتسونها بين طبقات المبنى فى صعودهم ملقين فى « الصينية » بقطع من العملة الصغيرة ذات السنت والسنتين ، وأكوابه الصغيرة قرنية الشكل تتسع لما يملأ ملعقتين من الملاعق الكبيرة ، وتوضع فى حوامل من المعدن على مثال أكواب الصودا الصغيرة ، ويحتسى بعض الناس ما يقرب من اثنى عشر كوباً صغيراً من القهوة فى اليوم ، بما فى هذا ما يحتسونه منها بعد وجبات الطعام وما يحتسونه قبل النوم ؛ إذ أن القهوة لا تبقى البرازيليين متيقظين ، على مثال ما تسبب لغيرهم من الناس .

وبالإضافة إلى المقاهى التى تنتشر على « الأرصفة » نشاهد محال الحلوى وهى مزيج من صالات الشاى ومحال بيع المثلجات ، وتزدحم هذه حتى تضيق بروادها فى ساعات احتساء الشاى ، ولكنك لا تجد غالباً أحداً يشرب الشاى ، ولا حتى « الماتى » ، وهو الشاى البرازيلى الذى ينبت فى أقصى جنوب البرازيل . بل إن أغلب مايطلبه هؤلاء الرواد المثلجات ، و « الدندرمة » المغطاة بالشراب والفاكهة والكعك من شتى ألوان الفطائر الفرنسية واللبن المضاف إليه خلاصة الشعير والآيس كريم بالصودا من أجهزة أمريكية ، ولكن لايقف الناس لاحتسائها ، لأن كل فرد يجلس

منتظراً فى صبر حتى يقدم له مايطلبه ، ولكن فى بعض هذه المحال صناديق زجاجية مسخنة توضع فيها بعض الفطائر الصغيرة المحشوة باللحم وفطائر الجمبرى Shrimp Croquettes وغير هذا من الفطائر التى تختص بها البرازيل والتى يتخير الناس منها حاجتهم ويأكلونها وقوفا أمام هذه الصناديق ، ويتناول العملاء هذه الوجبة الخفيفة إما بواسطة ملاقط خشبية رفيعة كالتى تستعمل لتنظيف الأسنان، وإما بأن يمسكوها بمنديل من الورق مما لا يضطرهم لغسل أيديهم . ويقف الناس المهندمو الثياب حول صناديق الفطائر الساخنة هذه يتحدثون إلى الأصدقاء الذين جاءوا أصلا لتناول هذه اللقيمات الشهية ، وهذه عادة لطيفة .

وتقع محال بيع المرطبات — كما نتوقع — فى حى الأسواق الذى لا يكاد يفصله شىء عن الجزء التجارى من المدينة ، ذلك لأن وسط المدينة لا يوجد به اتساع كاف لغير ذلك . ولكى يشاهد الإنسان المحال التجارية فإن عليه أن يسير على قدميه متطلعاً إلى نوافذ الحوانيت ، ولا يشق ذلك على المرء لأن اثنين من أهم الشوارع فى حى البيع بالتجزئة مخصصان للمشاة فقط وهما لا يتسعان لغير ذلك من وسائل النقل ولكنهما يكفيان للتجول الهادىء الذى يقوم به أهل المدينة متنقلين من باب إلى آخر ينظرون إلى معروضات الحوانيت وإلى البضائع المعلقة فى مداخلها مما يضفى عليها جو أيام العطلات .

وأحد هذه الطرق البهجة « روادى اوفيدور » أى شارع القاضى ، وقد جاء هذا الاسم من الأيام القديمة عندما كان الكثير من الطرق تسمى

تبعاً لأولئك الذين يعيشون بها ، ولكن يمكن أن يطلق اليوم على هذا الطريق « شارع القراء » ؛ ذلك لأن به اليوم الكثير من المكتبات وواجهات العرض المليئة بأحدث المؤلفات تغطيها أغطية لامعة تحميها الأتربة ، ولكن أسفلها أغلفة من الورق العادى ، لأن البرازيليين يحبون أن تجلد كتبهم وفق أذواقهم الخاصة ، ونشاهد فى هذه المكتبات عدداً كبيراً من هواة استطلاع المؤلفات الجديدة التى ترد إلى المكتبات كل بضعة أيام . وسترى بينها بعض أسماء المؤلفين الذين تعرفهم وعناوين الكتب التى تذكرها ؛ ذلك لأن الكثير من المؤلفات الناجحة التى تصدر فى أمريكا الشمالية تترجم اليوم إلى اللغة البرتغالية ، كما أن من بينها الكثير من الكتب الفنية والعلمية ، لأن البرازيليين يتوقون إلى معرفة مايجرى فى العالم خارج وطنهم الكبير الشاسع المساحة .

وفى هذا الشارع متاجر لاتبيع سوى الحرير ، وأخرى تتخصص فى الجوارب فقط ، وهذا أحد الأشياء العجيبة فى التسويق والابتياع فى ريو ، فلا يوجد متجر واحد فى المدينة يبيع مختلف السلع ، بل إن لكل نوع المحل الخاص الذى يبيعه دون غيره ، فمتجر المظلات لا يبيع غير المظلات بل وحتى هناك محال تتخصص فى بيع المناديل وحدها ، ويعرض الكثير من متاجر الحلى فى شارع أوفيدور منتجات عجيبة مدهشة من مناجم الماس فى البرازيل ، من العقيق الفاخر ومن « الأكوامارين » الأصداف الحجرية ، ومن الياقوت الأصفر الذهبى .

وتعرض حوانيت الهدايا حلياً مصنوعة على شكل فراشات ذات

أجنحة زرقاء ، ومصنوعات جلدية من جلود الأفاعى والتماسيح ، وصوانى وصناديق من الخشب الوطنى الفـــاخر الذى يعتبر خشب صنوبر بارانا المنقوط أفضلها .

ويطلق على الشارع الآخر الذى يستخدمه المارة المترجلون وحدهم اسم شاعر معروف هو جونسالفيس دياس الذى يحب الجميع أشعاره ، مع أنه قد عاش فى ريو منذ سنوات طوال يكتب ويعلم الطلاب فى المدارس عندما كانت البرازيل لا تزال امبراطورية . وتوجد سوق الأزهار الجميلة فى أحد طرفيه وتعرض فى واجهات متاجر الأزهار كل الأشياء الأنيقة .

وستلاحظ فى تجوالك وجود حوانيت تبيع ثياب النساء وأخرى لملابس الأطفال ، والبعض لملابس الرجال فقط ، وتستوقفك الأزهار الخلابة الزاهية فى المحال المخصصة لبيعها ، كما تشاهد فاكهة المناطق الاستوائية المجففة فى محال البقالة الراقية ، إلى جانب الأوعية الزجاجية التى تحتوى على شتى أنواع الفواكه من حوض الأمازون ، أو من مناطق أخرى بعيدة من هذه البلاد الفسيحة . وسوف يلفت نظرك كثرة المحال التى تبيع العطور وأدوات التجميل والتى تتلألأ واجهات عرضها بزجاجات أنيقة. وستدهشك مخازن الأدوية والعقاقير هى الأخرى ، وما يوجد منها فى وسط المدينة يتصف بالضخامة ، وهى تمتلىء بالعملاء الذين يتراصون فى صفين أو ثلاثة خلف موائد العرض منتظرين دورهم لشراء حاجتهم من الأدوية ، لأن هذه المحال ليست سوى صيدليات لا تبيع المرطبات أو أى سلع أخرى غير الدواء .

ويزول الشعور بالغربة عند الزوار الأمريكيين عندما يقع بصرهم على « لوخا أميريكانا » — أى « المتجر الأمريكى » — وهو مايقابل محال « الخمسة والعشرة سنتات » فى الولايات المتحدة . وقد أسس هذه المتاجر الرخيصة مواطن من أمريكا الشمالية — وقد ترتفع فيها الأسعار إلى دولار أو أكثر . وتبدو واجهات العرض والأقسام الداخلية وأماكن بيع المرطبات و « السجق » فى الطابع الأمريكى بالرغم من أن الفتيات اللاتى يقدمن لك ماتطلبه لا يعرفن كلمة واحدة من اللغة الانجليزية .

وتقع السوق المركزية للمواد الغذائية قرب الميناء ، ويمكنك إذا شاهدتها أن تعرف ماذا يأكل أهل ريو . وبعض المطاعم التى تقع فى هذه المنطقة قديمة العهد ، وهى توجد بالقرب من ميدان « ١٥ نوفمبر » وهو تاريخ تأسيس الجمهورية .

ويضم هذا الجزء القديم من المدينة عدداً من الكنائس البديعة والمبانى ذات الطراز البرتغالى التى تعود إلى عصور ماضية . ويقع قصر تيرادنتيس — وهو الاسم الذى يطلق على مجلس النواب — على مقربة من هذا الحى . ويقوم أمام هذا البناء تمثال برونزى ضخم لتيرادنتيس (مقتلع الضرس) الذى أعدم فى هذه البقعة عام ١٧٩٢ لتزعمه حركة كانت تستهدف استقلال البرازيل عن البرتغال . وفى الفترة التى رزحت فيها البرازيل تحت حكم فاشى أغلق هذا المجلس كما أغلق مجلس الشيوخ ؛ لأن الرئيس الديكتاتورى كان يشرع جميع القوانين بنفسه كما يتراءى له . وكان تمثال تيرادنتيس يبدو كأنه ينظر محزوناً لهذا الانتهاك الجديد للحريات التى مات فى سبيلها . ولكن كلما

استعاد البرازيليون حتمهم فى وضع القوانين التى يعيشون فى ظلها تتغير ملامح التمثال وتعود إليه السكينة .

وتتدفق جموع الناس باستمرار فى جميع شوارع هذا الحى من المدينة فى طريقهم إلى المعديات المزدحمة التى تعبر خليج جونابارا الفسيح ، وتتجه هذه السفن إلى نيتروى Niteroi توأم ريو التى تبعد عنها بحوالى عشرين دقيقة ، ونيتروى عاصمة ولاية ريو دى جانيرو وتضم أحياء تجارية وصناعية خاصة بها ، وهى مدينة منفصلة تماماً عن ريو دى جانيرو عاصمة البرازيل السابقة التى كانت تقع فى إقليم فيدرالى ، تشبه فى ذلك واشنطون التى تقع فى « إقليم كولومبيا » . ولمدينة نيتروى علاقات وثيقة بريو دى جانيرو على غرار ما بين جيرسى سيتى ونيويورك .

وتتلألأ أضواء نيتروى فى الليل فى شكل أقواس يتميز بها خليج ريو ، وتبدو هذه الأضواء وكأنها تنفذ من واجهة عرض ضخمة لمتجر حلى اكتظت بالعقود الماسية والأساور ومشابك الزينة .

ومن الطبيعى أن يوجد فى مدينة أنشئت منذ أربعمائة سنة ويسكنها حالياً ما يربو على ثلاثة ملايين ونصف مليون من السكان الكثير من الأماكن التى يجب مشاهدتها ، وهى فعلا من الكثرة بحيث يتعذر على الإنسان أن يخصص لها من الوقت ما يكفى لإشباع نفسه منها . فهناك متاحف للتاريخ والفن وللتاريخ الطبيعى ، وفيها مجموعات رائعة من الفن الهندى توضح كيف تطورت البرازيل ، كما تلقى ضوءاً على ما تتكون منه البلاد بطريقة

أقوى تأثيراً من تصفح الكتب . وهناك مكتبات ومبان عامة لكل منها طابع خاص يثير اهتمام المشاهد ، وترجع بعض الكنائس الكاثوليكية إلى الأيام الأولى للإرساليات البرتغالية ، وهي تحتوى على كنوز ثمينة من الرسوم الزيتية والخشب المحفور والفضة ومن الثياب الكهنوتية والحلى ، وهذه الكنائس مفتوحة الأبواب على الدوام ولا تخلو من بعض الناس فى أى وقت حتى فى الأوقات التى لاتقام فيها الصلوات . ومع أنه توجد جماعات كبيرة من البروتستانت إلا أن أغلب البرازيليين من الكاثوليك وهم متدينون إلى حد بعيد .

ويوجد حتى فى الحدائق العامة والميادين مايستحق المشاهدة ، فهناك النافورات والبحيرات الصناعية والقنوات والجسور « الكبارى » الزخرفية وتماثيل الأبطال البرازيليين ومجموعات من النباتات والحيوانات من المناطق الحارة ، ولكل هذه الأشياء جاذبيتها الخاصة .

وحديقة باسيويا ببلكو هى إحدى الحدائق القديمة الساحرة ، ويعنى اسمها (المتنزه العام) ، وتواجه هذه الحديقة الخليج فى جوار قصر مونرو ، وكانت فى الأصل مستنقعاً يضاء ليلا بشمعة واحدة فى مشكاة دير ، كما كان يعلق مصباح يشعل بالزيت ، أعلى باب منزل مجاور ، ولكن منذ مائة عام جفف المستنقع وغرست أشجار ضخمة هى التى تجمل الحديقة اليوم ، ويتجول جمع غفير من الناس فى طرقات الحديقة فى ظلال الأشجار نهاراً وليلا ، ولا يوجد اليوم مايسجل ماضيها كمستنقع إلا الاسم الذى يطلق على طريق عام قصير يسمى « روديس ماريكوس » ، أى شارع البط البرى ،

ويؤدى المتنزه إلى « أفينيدا بيرامير » أى طريق الكورنيش ، وتحف به المتنزهات التى توجد بها النافورات الملونة والسياجات النباتية التى شذبت فى أشكال حيوانات مثل الجمال والفيلة والأسود وغيرها .

ولعل أجمل حدائق ريو هى الحديقة النباتية التى تقع على السفوح الدنيا لجبل « جافى » . ويتكون مدخل هذه الحديقة من صفين من أشجار النخيل الملكية القديمة التى استمدت منها البذور لغرس النخيل الشاهق الارتفاع الذى تشاهده فى جميع أنحاء المدينة. ولقد بدأ إنشاء هذه الحديقة الملك يوحنا ملك البرتغال عندما حكم البرازيل . وتشتمل هذه الحديقة على أكثر من مائة فدان من الأشجار والنباتات النادرة ، منها حديقة جلبت من الأمازون من الأقاليم التى مررت فوقها بالطائرة فى طريقك إلى ريو .

وفى الطرف الآخر من المدينة حديقة « كوانتادا بوفيستا » أى حديقة المنظر الجميل ، وهى ضخمة المساحة ، وكانت أصلا حديقة خاصة شيد فى وسطها قصر الملك يوحنا، واطرد نموها فى أثناء حكم ابنه الامبراطور دوم بيدرو الاول ، ثم حفيده الإمبراطور دوم بيدرو الثانى ، وهى متنزه رومانسى جميل ، ولقد حول قصر الأباطرة إلى متحف قومى ، وتضم هذه المساحة حديقة حيوان تتخصص فى الحيوانات والطيور البرية العديدة التى توجد فى البرازيل .

ويؤم هذه الحدائق جموع كبيرة من البرازيليين فى أيام الأحد بغية النزهة بالرغم من أن حماسة السكان الحقيقية تتجه إلى مباريات كرة القدم التى تقام أيام الأحد . وتشبه فرق كرة القدم التى تشترك فى مبارياته

البطولة القومية أو بطولة أمريكا الجنوبية — تشبه فرق دورى البيسبول فى الولايات المتحدة . ويتمتع مشاهير اللاعبين بشعبية تجعل منهم أبطالا حقيقيين . وتمتلىء الملاعب الضخمة بمئات الآلاف من المشاهدين ، أو يقبع الناس فى بيوتهم فى أثناء المباريات يتتبعون تفاصيل سيرها على أجهزة الراديو أو التليفزيون . ويكاد كل طفل يبدأ تدريبه على لعب الكرة بمجرد تعلمه السير ، وتستخدم لذلك كرات التنس أو البرتقال . ويأمل كل منهم أن يصبح بطلا فى يوم من الأيام . وقلما يقيم الوافدون من أمريكا الشمالية مدة كافية فى البرازيل لتستهويهم لعبة كرة القدم بالطريقة التى تمارس بها هناك والتى تختلف عن كرة القدم الأمريكية . وإذا استثنينا سباق الخيل فإن أنواع الرياضة القومية الأخرى تعتبر أقل جاذبية للزائر الأجنبى من صعود جبل « شوجرلوف » (قمع السكر) تلك الصخرة العارية التى ترتفع ألفاً ومائتى قدم من سطح الماء فى الخليج . ويذهب الركاب إلى قمة هذا الجبل فى عربات تتدلى من سلك غليظ وتسبح بهم فى الهواء فيجدون أنفسهم على القمة المدببة لذلك الجزيرة الصخرية التى نحتتها الطبيعة فى شكل قمع السكر . ومنظر ريو من هذه القمة منظر أخاذ ولكنه أقل روعة من المنظر الذى يشاهد من قمة كوركوفاد والتى تبلغ ضعف ارتفاع قمع السكر . وتستخدم السيارات العامة للوصول إلى هذه القمة فتصعد بركابها طريقاً طويلا تحف به الغابات الجميلة ليهبطوا من تلك السيارات فوق هذا « الأحدب » .

ومن أماكن النزهة الأخرى المفضلة تلك الجزر الجميلة المتناثرة

فى الخليج بنخلها وخضرتها أو المصايف فى جبال أورجان ذات القمم المدببة التى ترسم خطاً مضرساً فى السماء يوحى منظرها بآلة أرغن ضخمة بما فيها من أنابيب . وأهم هذه المصايف الجبلية هى مدينة بيتروبوليس العاصمة الصيفية التى أسسها دوم بيدرو الثانى عندما كانت ريودى جانيرو مكاناً غير صحى للإقامة فى فصل الصيف . وتشتهر بيتروبوليس بمناظرها البديعة وأزهارها الجميلة ، ولكنها بالإضافة إلى ذلك مدينة صناعية هامة تكثر بها مصانع النسيج التى تدار بالقوى المائية . وتنتقل الحكومة إلى هذه المدينة فى أشهر الصيف كما تزدحم بالمصيفين الذين ينتشرون فى شوارعها التى تزدان جوانبها بالأزهار أو فى الطرقات التى تخترق غاباتها . ويخيل إليك أن كل فرد يمارس إحدى الألعاب كالتنس أو تنس الطاولة أو الجولف أو الغطس فى حمامات السباحة من ارتفاعات مختلفة . ويمتلك أثرياء ريو منازل فى هذه المدينة لا يقيمون فيها إلا أربعة أشهر من ديسمبر إلى مارس وهى أشد الشهور حرارة . وهناك كثير من الفنادق القديمة و « البنسيونات » ولكن هناك فندقاً عظيماً هو فندق « كويتاندينا » Quitandinha وهو من أكبر وأفخم فنادق أمريكا الجنوبية ، ويتمتع فيه السياح من كل مكان بمسبحه المغطى « حوض السباحة » وبضروب الرياضة المختلفة فى الهواء الطلق .

أما مدينة تيريزوبوليس Therespolis فهى مصيف صغير تملأه الأزهار ويربطه بمدينة بيتروبوليس طريق جبلى ساحر كما يخدمها خط حديدى من نيتروى توأم ريو عبر الخليج .

وتتعدد ألوان الألعاب الرياضية فى ريو دى جانيرو ، ويستطيع شباب

المدينة أن يسهموا فيها أو أن يشاهدوها ، وتتضمن هذه مباريات مائية ، وسباق اليخوت ، والسباحة والغطس وسباق الخيل وتسلق الجبال ، هذا فضلا عن النزهات الخلوية والرقص فى المنتديات الخاصة كما تكثر دور السينما والمسارح والفرق الموسيقية الساحرة ، ويحب أهل ريو الموسيقى الجيدة ، ويقدم الملحنون والموسيقيون البرازيليون برامج ترويحية مستمرة رائعة بل لايوجد عازفون على البيان أفضل من البرازيليين ، كما أن ريو تجتذب دائماً ذوى المواهب من خارج البلاد للحماسة الكبيرة وللتشجيع المنقطع النظير الذى يبديه البرازيليون ، فى ترحيبهم بالفرق الأجنبية ، وتجىء فرق الأوبرا لإحياء موسم قصير فى دار أوبرا البلدية الجميلة .

ويستطيع كل فرد عندما لايجد مايشغله أن يذهب إلى شاطىء البحر للسباحة وللاستمتاع بالماء ، وفى البرازيل قانون قديم يجعل الشاطىء ملكاً عاماً للجماهير، فلا يسمح لأى فرد بتملك أرض على الشاطىء ، كما لا يسمح بإقامة أى بناء إلى مدى محدد منه ، وهكذا تتوافر أميال على شاطىء البحر تخصص للسباحة والاستحمام ، كما توجد بعض المناطق الرملية الفسيحة يقصدها الناس على طول العام عندما يريدون ، وتقضى فيها الأسر أيام العطلات حتى إنهم لايعودون إلى دورهم إلا لتناول الطعام والنوم .

ويلعبون هناك كرة اليد وكرة القدم والريشة الطائرة ، بينما يقضى الأطفال الوقت يبنون القلاع من الرمل ويتعلمون السباحة والغطس قبل أن يتعلموا المشى ، وتكتسب بشرات الجميع سمرة خفيفة بتأثير أشعة الشمس حتى يبدوا كالهنود وإن لم تكن فيهم أى دماء هندية .

ويستطيع الفرد أن يطيل إقامته فى ريو دى جانيرو ماشاء مستمتعاً بوقت طيب ، ولا تشبه هذه المدينة أى مكان آخر فى العالم ، ففيها جمال وسحر وعمل ومرح ، ثقافة وأنس ورقة ، فيها كل ماهو برازيلى خالص الطابع .

ولكن توجد أماكن أخرى فى هذا الإقليم الساحلى المزدحم السكان لها هى الأخرى جمالها فى طابع خاص ، ومن ثم فإننا يجب أن نبدأ رحلتنا إلى الولاية المجاورة ميناس جرايس (ومعناها المناجم العامة) التى يؤتى منها بالماس ، وعاصمتها بللو هوريزونتى ، أى الأفق الجميل .



٥

ميناس جيرايس

يطلق سكان ولاية ميناس جرايس على أنفسهم اسم مينيروس Mineiros ؛ أى عمال المناجم ، سواء أكانت مهنتهم الطب أم المحاماة أم الفلاحة أم كانوا عمال مناجم حقيقيين . وهم يفاخرون بعاصمة ولايتهم أعظم الفخر ، فهى مدينة خططها الإنسان ، يحلو لهم مقارنتها بواشنطون . فقد وضع تصميمها أولا على الورق وبدىء باختيار موقع جميل لها على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم . وهذا الارتفاع فى المناطق المدارية يعطى مناخاً لطيفاً . وكان التصميم يقضى بإنشاء مدينة حدائق (جاردن سيتى) على أكمل طراز . وبالفعل لم تبدأ أى عملية من عمليات البناء إلا بعد سنوات طويلة من التفكير والتخطيط .

وعندما تقلع بك الطائرة من العاصمة تتخذ اتجاهاً شمالياً وتعبر جزءاً من ولاية ريو دى جانيرو وتصل بك إلى عاصمة ميناس جرايس فى ساعة . وتطير الطائرة نصف رحلتها فوق أول طريق عام طويل أنشىء فى البرازيل — وهو أهم مشروع تدين له ولاية ميناس جرايس بتطورها وتنميتها . وتراه اليوم وهو يعج بسيارات الركوب الخاصة والعامة وبالشاحنات التى تنقل حاصلات هذه الولاية العديدة من مواد غذائية إلى منسوجات . وقد حلت هذه الشاحنات والسيارات محل المسافرين القدماء الذين كانوا يمتطون الجياد أو يركبون العربات التى تجرها الخيل ومحل البغال التى كانت

تحمل بالذهب والبن ؛ وهى السلع التى من أجلها أمر دوم بيدرو الثانى بإنشاء هذا الطريق من نحو مائة عام . وتشاهد فى رحلتك الجوية بعضاً من أغنى الحقول والمراعى ومزارع البن، كما تشاهد كثيراً من المدن الصغيرة المزدهرة ومدينة جويز دى فورا Juiz de Fora (قاضى الحدود) ، وهى مدينة صناعية كانت فيما مضى نهاية هذا الطريق ، ولكنها الآن مدينة كبيرة نوعاً تضم مصانع كثيرة للنسيج .

وعندما تهبط بك الطائرة فى بللو هوريزونتى تشاهد دائرة التلال التى تضفى جمالا على غروب الشمس ،، ومن ثم سميت المدينة بالأفق الجميل . وسترى أيضاً كيف خططت المدينة التى تمتد شوارعها من مركزين كل منهما دائرى، يشغل أحدهما ميدان مبنى البلدية ويشغل الآخر حديقة قصر الحاكم . ويبلغ اتساع هذه الطرق مائة قدم مما يسمح باستيعاب نمو حركة المرور فى المستقبل ، وقد غرست الأشجار على جانبى كل طريق ، وهناك أكثر من مائة ميدان ومتنزه صغير . وتخرج من المدينة طرق متسعة إلى المناطق الصناعية ، ويحيط بها طريق دائرى ، ولكن المنظر الذى سيلفت نظرك أكثر من غيره هو منظر مبنى حديث الطراز تنعكس صورته من سطح بحيرة خاصة به . وهذا المبنى هو معرض دائم تعرض فيه عينات من كل شىء تنتجه الولاية ، وبخاصة المعادن القيمة والأحجار الكريمة .

وبالإضافة إلى المعرض الدائم تعقد سوق سنوية فى منطقة فسيحة للعرض، ومن أهم معالم هذه السوق معرض الماشية التى يؤتى بها من المزارع والمراعى التى تتخصص فى تربيتها ؛ ذلك لأن ميناس جرايس وإن كان

لها مكان الصدارة فى إنتاج المعادن تحتل المركز الثانى بعد ريو جراند دو سول فى الماشية التى تربى للذبح ولحلاب اللبن فضلا عن الخيول والخنازير ، وخاصة السلالات الوطنية من البقر المسنم Zebu ومن عجول براهما Brahma steers والتى تعرف باسم العجول البرازيلية الهندية ، إذ جاءت أصولها من شرق الهند ، ولها سنام كبير فوق كتفيها ، وللذكور عيون رقيقة معبرة وجلد مترهل متهدل ، وآذان متدلية على مثال ما تصورها رسوم وولت ديزنى .

وبالرغم مما تتصف به بيللو هوريزونتى من أناقة وجمال فإن السياح الذين يفدون إليها من أمريكا الشمالية لا يطيلون إقامتهم فيها لأن هناك بالقرب منها عدة مدن تعدين تاريخية تستحق الزيارة ، أهمها عاصمة الولاية السابقة أورو بريتو Ouro Preto ، أى الذهب الأسود ، ويمكن الوصول إليها بالسيارات العامة .

وقد حولت مدينة أورو بريتو بأكملها إلى تذكار قومى كما حولت الأراضى المحيطة بها إلى حديقة قومية ولم يغير بها شىء منذ أيام الاستعمار . وهى عزيزة جداً لدى البرازيليين الوطنيين بوصفها المكان الذى انبعثت منه حركات الكفاح الأولى المطالبة بالحرية والاستقلال . ولعلها من هذه الوجهة تشبه وليامزبرج فى ولاية فرجينيا التى أعيدت إلى حالتها الأصلية التى كانت عليها أيام حرب استقلال الولايات المتحدة . فكما أن وليامزبرج تزخر بذكريات واشنطون وجيفرسون وباتريك هنرى ، فإن أوروبريتو تحتفظ بروح الأبطال الأوائل وبخاصة تيراديتيس . وهو طبيب الأسنان

البطل الذى جرأ عـــلى تحدى البرتغال وإثارة شعور الشعب للحصول على الاستقلال .

وكان تيراديتيس – بعد أن انتصرت الولايات المتحدة فى حرب الثورة – يحمل فى جيبه أينما سار نسخة من دستور الولايات المتحدة ، يقرأ صفحاته لـكل من ينصت له ، وتجمع من حوله الـكثيرون من المعدنين ولـكنه فشل فى القتال برغم شجاعته وشجاعة رجاله ، وشنق تيراديتيس فى ريو دى جانيرو حيث يقوم تمثاله ، وكان شنقه فى القسم القديم من المدينة ، ويحتفلون فى البرازيل « بذكرى استشهاده » كما يحتفل أهل الولايات المتحدة الأمريـكية بيومى ميلاد واشنطون ولينـكولن .

ويلاقى المـكان الذى يجتمع فيه الثوريون فى أوروبريتو كل تبجيل واحترام . أما منزل تيراديتيس فقد دمرته السلطات البرتغالية التى كانت تقضى أوامرها بعدم الإبقاء على أى أثر له يذكر الأجيال المستقبلة به .

وقد أدت هذه الإجراءات التى عمت كل أنحاء هذه الولاية إلى انتقال جميع الثروات والمناجم إلى أيدى البرتغاليين بدلا من المواطنين البرازيليين الذين اكتشفوها ، وقد أحدث ذلك شعوراً مريراً عند الأهالى كان العامل الأساسى فى التاريخ الثورى الطويل الذى يميز هذه الولاية .

ولم تتطلب إعادة أوروبريتو إلى أصلها جهداً كبيراً ، فالمدينة تاريخ خاص تشاركها فيه عدة مدن برازيلية قديمة أخرى من مدن التعدين ، فلقد كان نمو المدينة سريعاً عندما كان العبيد يستخدمون فى جمع

الذهب من رمال الأنهار وغيرها من المجارى الضيقة حيث تراكم المعدن النفيس من عصور بعيدة الأمد ، فلما استخلص كل ما بها من ذهب توقف نمو المدينة قرناً كاملا .

وكان الذهب يرسل إلى البرتغال ولا يسمح للبرازيليين أن يحتفظوا بشيء منه ولا أن يتزينوا به ، ولم يكن هذا القانون يطبق على البرتغاليين الذين يعيشون فى أوروبريتو ، ولهذا فإنهم بنوا المنازل والكنائس الجميلة التى غطيت مذابحها برقائق الذهب ، وصنعت أوعية التناول من الذهب أو الفضة الخالصة ، كما زينت الصور بأثمن الحلى .

واستطاع بعض البرازيليين أن يجمعوا ثروات برغم هذا القانون ، وعندما كانت صناعة التعدين مزدهرة كان فى هذه المدينة الصغيرة التى تقوم وسط الجبال أجمل مافى البرازيل من الصور والتماثيل والأخشاب المحفورة ، كما كانت تضم بعضاً من أجمل نماذج العمارة فى عهد الاستعمار . ومن حسن الحظ أن صدرت القوانين التى تصون كل هذه الآثار القديمة قبل أن تقتحم الصناعة الحديثة المنطقة كلها ، هذا عدا أن مدينة « الأفق الجميل » بيللو هوريزونتى قد اختيرت لتكون عاصمة الولاية ، وهذه يمكن أن تمتد وأن تتسع دون حاجة إلى إتلاف الآثار التاريخية التى فى أوروبريتو . ويكاد المرء يشعر أنه قد انتقل إلى عالم غير هذا العالم عندما يشاهد نافورتها الجميلة وكباريها الساحرة ، بل وحتى الأحجار الصغيرة التى رصفت بها طرقاتها . وقد أمكن الاحتفاظ بالمنازل ذات الأسقف المقوسة التى تعلمها البرتغاليون من الصين ، وبالمصابيح المصنوعة من الحديد

المطاوع وواجهات المنازل وأركان الحدائق المزدانة بالقراميد المصورة والمداخل التى استخدم فى إنشائها حجر الطلق ، هذا بالإضافة إلى الكنائس ، وهى جميعها توضح لنا حياة البرازيل فى العصور الماضية .

ولا شك أن الرقيق قد عاشوا حياة تعسة فى أكواخهم الحقيرة ، فى الوقت الذى عاش فيه السادة فى منازل جميلة ، ومع هذا فقد استطاع العبيد أن يحصلوا على نصيب تافه من الذهب وبنوا كنيسة جميلة لقديسهم الأسود ، ولقد كانوا يعملون فى صفوف منتظمة كما يعمل الجند وقد انغمرت أقدامهم فى المياه المثلجة من المجارى الجبلية ، وسياط المشرفين مرعة لتلهب ظهور من يتوقف منهم عن العمل ، وقد مات الكثيرون منهم بالتهاب رئوى ، ولكن البعض عاش وأثرى فى ظل القوانين الجديدة التى سنت فيما بعد لحمايتهم .

وقد اشتهر من بين هؤلاء الرقيق رجل اسمه شيكو رى ، كان زعيما إفريقياً اشترى من سوق الرقيق فى ريو دى جانيرو هو وأفراد أسرته وعدد كبير من أفراد قبيلته ، وعمل الرجل بنشاط وصبر عظيمين فى أثناء الساعات المحدودة التى كان يسمح بها للعبيد فى ذلك الوقت أن يعملوا لأنفسهم . واستطاع بجهود جبارة أن يجمع من الذهب ما يكفى لشراء حريته وحرية أبنائه ، واستمر الجميع فى عمل متواصل حتى حرروا بقية أفراد قبيلتهم ، ووضعوا يدهم بعد ذلك على موقع نهرى تحتوى رماله على ذهب فجمعوا منه ثروة مكنتهم من الإنفاق على تشييد الكنيسة الجميلة . وبقى شيكو رى ملكا على شعبه ورئيساً للاحتفالات السنوية التى يقيمونها

فى كنيستهم فى اليوم السادس من يناير ، اليوم الذى ذهب فيه الملوك الثلاثة بالهدايا إلى بيت لحم على ما يقول العهد القديم ، ولما كان أحـــد هؤلاء الملوك الثلاثة إفريقيا ، كان لهذا اليوم معنى خاص عند الرقيق وخاصة عند شيكو رى الذى ولد ملكا فى إفريقية ، وفى هذا اليوم تقام صلاة خاصة فى الكنيسة ويعقب الصلاة عرض عظيم يسير فيه شيكو رى تحت ظلة من القطيفة ، ثم تقام بعد هذا حفلات للرقص فى شوارع المدينة .

ولم يكن هذا ليقارن بالحفلات الفاخرة التى كان يقيمها السادة البيض فى أيام مجد أوروبريتو . كان كل ما يستخدم فى تلك الاحتفالات والمواكب الكنسية ، وكل ما يمسك به الموظفون البرتغاليون وأصحاب المناجم يغلف بالذهب ويزين بالماس ، وكانت ملابس رجال الدين الموشاة والمطرزة بخيوط الذهب صلبة العود حتى لتقف وحدها ولو لم يرتدها أحـــد ، وكانت مسامير العربات تصنع من الذهب الخالص ، وكانت المربيات وخدم المنازل يتزين بالأساور والسلاسل والأقراط الذهبية الكبيرة ويضعن فى أصابعهن خواتم من الماس ، كما يضعن على صديرياتهن مشابك من الماس . ولم يكن الناس يفكرون فى شىء غير الذهب ، وماذا يمكن أن يشترى بالذهب ؟ وكيف يمكن أن تخدم السلطات البرتغالية للاحتفاظ ببعض ما يستخرجونه منه ، فلم يكن القانون يسمح بأى صناعة أخرى للناس غير استخراج الذهب .

ولهذا فلا عجب أن الذين اكتشفوا الماس احتفظوا بالسر خفية من ملك البرتغال إلى أطول وقت ممكن ، ولكن عندما أرسل الملك

حاكما إلى مناطق التعدين وبدا أنه من المحتمل أن تتسرب الأنباء أرسلت بعض النماذج من إنتاج الماس إلى البرتغال ، ومنح الملك كل المواطنين يوم عطلة عامة ، وازدحمت الكنائس بالناس فى كل بلاد البرتغال لأداء صلوات الشكر ، وبدأت الأحجار تصل إلى البرتغال بمعدل ضخم ، فقد زيد من عنف القوانين العادية بل وفرض القانون الجديد حكم الإعدام جزاء لمن يخالفه ، ونص على أن كل الماسات التى تزيد زنتها على العشرين قيراطاً حق خالص للملك ، فضلا عن أربعين فى المائة من كل ما ينتج من الماس سداداً للضرائب ، وكان إنتاج الماس كبيراً ، بل ولربما بلغت جملة حصيلة ما استخرج من المناجم فى الخمسين السنة التى تلت اكتشافه مليونى ماسة ، وكان مركز تعدين الماس مدينة « ديامنتينا » وهى مدينة ساحرة أنيقة تشبه أوروبريتو وتقع على مسافة مائتى ميل لشمالها .

واستمر تدفق الناس لاستخراج الماس لوقت طويل بعد أن انتهى الاندفاع لاستخراج الذهب ، ولا تزال سبع ولايات من ولايات البرازيل غنية بالماس ، ولا تزال ديامنتينا التى اتجه إليها جنون البحث عن الماس فى السنوات العشرينيات من القرن الثامن عشر واحدة من أفضل مناطق استخراجه ، ولقد أمكن فى السنوات التالية الكشف عن أحجار أخرى ثمينة مثل « التورمالين » والتوباز والزبرجد والزجاج البللورى .

ومع أن التعدين حالياً ليس بالقدر الذى كان عليه فيما مضى ، إلا أن وسائل التعدين الحديثة قــد أبقت لميناس جرايس مكان الصدارة فى البرازيل ، ولا يزال فى الولاية أعمق منجم لتعدين الذهب فى العالم إذ

يصل عمقه إلى ميل وربع الميل وتملكه شركة إنجليزية ، وتبدو قرية « موروفيلهو » — التل القديم — التي قامت حول المنجم ببيوتها الخلوية الصغيرة ذات الأحجار الحمراء والمدافىء ذات المداخن ثم صفوف السياجات وحدائق الورود وكأنها قطعة من أرض إنجلترا اقتطعت منها ووضعت في البرازيل متماسكة متكاملة . أما اليوم فقد اكتشفت موارد معدنية أخرى بدأت تجلب الثروات إلى أهل الولاية بقدر لم يبلغه تعدين الذهب والماس في أيام البرتغاليين ، إذ وجدت في الولاية جبال بأكملها من الحديد الخام — وهذه إذا أضيفت إلى مواطن الحديد الأخرى في البرازيل تقدر بنحو ربع احتياطي العالم من هذا المعدن . كما أن هناك كميات لاحصر لها من المنجنيز ومن معادن أخرى تحتاج إليها صناعة الصلب .

ولكن لسوء حظ ولاية ميناس جرايس أن أقيمت مصانع الصلب التي مولت بقرض كبير من الولايات المتحدة في فولتا ريدوندا بولاية ريو دي جانيرو ، واعترض أهل ميناس جرايس على هذا الاختيار لموقع المصنع خارج الولاية ؛ إذ أن مستودعات الحديد تتركز كلها حول بيللو هوريزونتي « الأفق الجميل » .

وأقوى الولايات نفوذاً في البرازيل هي بالترتيب : ريو دي جانيرو تليها سان باولو ثم ميناس جرايس ، وتغار كل ولاية من الأخرى في هذه المجموعة ، فولاية ريو دي جانيرو كانت فيما مضى تحيط بعاصمة البرازيل وقد استفادت تلك العاصمة بما شيد بها على حساب الاتحاد من

« الأرصفة » والتسهيلات الملاحية ، كما أنفقت مبالغ طائلة على تحسين المدينة وتجميلها عندما كانت العاصمة السياسية للبلاد .

وتغذى ميناس جرايس ميناء ريو دى جانيرو بحاصلاتها الكثيرة ، كما تجد فى هذه المدينة الغنية سوقاً من أفضل أسواقها ، ولكن الواقع أن ثراء ميناس جرايس كان — كما رأينا — بسبب المناجم الأولى التى وجدت بها وخاصة مناجم الذهب والأحجار النفيسة ، وبعد ذلك جاء البن الذى جعل الولايات الوسطى الثلاث ، سان باولو وميناس جرايس وريو دى جانيرو تكاد تتعادل فى الأهمية ، فقد كان البن قوة جعلت هذه الولايات الثلاث تحتل مراكز الزعامة فى البلاد .

٦
ساوباولو المدينة والولاية

توجد أربع طرق للرحلة من ريو دى جانيرو إلى ساو باولو وأسرعها بالطبع طريق الجو ، ولكنك تستطيع الذهاب بالسفينة إلى ميناء سانتوس. أو بالسيارة على طريق جيد للسيارات، والاختيار الرابع أن تذهب بالقطار على الخط الرئيسى للخطوط الحديدية الوسطى فى البرازيل والتى تملكها الحكومة .

ولما كان رجال الأعمال يسافرون كثيراً جيئة وذهاباً بين هاتين المدينتين، اللتين هما أكبر مدن البرازيل فإنه يوجد قطار خاص فاخر يبدأ رحلته فى ساعة متأخرة مساء ، وكل القطار عربات للنوم على الطراز الأوربى ، فبدلاً من وجود ممر فى وسط العربة يوجد ممر ضيق فى أحد الجانبين تفتح عليه أبواب « دواوين » صغيرة كثيرة ، ولكل منها نافذة خاصة ويشغل « الديوان » كل عرض القطار فيما عدا الممر الضيق ، وتوجد غرفة صغيرة للبس والزينة بين كل ديوانين متجاورين ، وهذا تنظيم مريح جدا ، ففى كل ديوان فراشان يعلو أحدهما الآخر ، وتوجد فى « الديوان » منضدة ومقاعد تنطوى ، وأضواء للمطالعة ، ومياه جارية و « الديوان » بمثابة « جوسك » قمرة فى سفينة بخارية . ومن الطبيعى — ونحن لا نزال فى البرازيل — أن نجد الرجل الذى يقدم القهوة يتنقل من ديوان إلى آخر

طوال الليل ، وستلقاه أمامك عند باب الديوان يحمل « صينيته » بمجرد أن تضغط الجرس .

على أن السياح يفضلون قطاراً يسير فى ضوء النهار حتى يستطيعوا رؤية الأرض من حول الخط الحديدى ، وبالإضافة إلى القطارات المنتظمة التى تسير فى أثناء النهار توجد أيضاً وسيلة أخرى للرحلة سوف تروق لك — وهى « الليتورينا » ، وهى عبارة عن عربة أكل مزودة بمقاعد مريحة وتسير على القضبان بوساطة بطاريات مشحونة بالكهرباء ، ويقدم طعام الغداء فى منتصف النهار . أما القهوة فتوزع طوال ساعات اليوم ، ويوزع الشاى فى المساء ، وتصل هذه العربة إلى سان باولو فى وقت مناسب لتناول طعام العشاء .

وتبدأ العربة فور مبارحة ريو فى تسلق المدرج الجبلى الذى يفصل الساحل عن الأرض المرتفعة ، وتندفع العربة عبر عدة أنفاق وتتابع سيرها فوق أرض مرتفعة وعرة حتى تصل إلى هضبة متموجة السطح ذات تربة حمراء زاهية . وتبدأ إذ ذاك أرض المزارع ، فترى حقول قصب السكر والذرة ومراعى الماشية ، كما ترى مزارع لنباتات جميلة ذات أوراق زخرفية الشكل ، تعصر ثمارها لاستخراج زيت الخروع ، وستجد أحراش البرتقال فى تلك المنطقة وكأنها لا تتوقف عن الإنتاج ؛ ذلك لأنك تجد الثمار الصفراء والأزهار البيضاء هنا وهناك فى وقت واحد . كما توجد زراعات عارضة للبن ؛ ذلك لأنك لن ترقب المنطقة التى تنتج المحصول الرئيسى من

البن حتى تقترب من سان باولو أعظم منطقة لإنتاج البن فى البرازيل إن لم يكن فى العالم كله .

ويجرى طريق السيارات إلى سان باولو بجوار الخط الحديدى ، وهذا جزء من الشريان الأمريكى الكبير الذى سيربط يوما ما جميع الأمريكان من الولايات المتحدة حتى أقصى جنوب الأرجنتين . ويحب بعض سائقى السيارات الخاصة وسيارات النقل زيادة سرعاتهم لمسابقة قاطرتك ، وسترى أن أغلب هذه السيارات وقد غطتها الأوحال أو التراب الأحمر مما يدلك على أنها قد قطعت مسافات طويلة على الطرق الفرعيـــة . ويزداد عدد السيارات كلما اقتربت من سان باولو ، فهى مركز صناعة السيارات وفيها أكبر عدد من السيارات فى البلاد ، وهنا تختفى المزارع الكبيرة وتحل محلها مزارع صغيرة تتوسطها مساكن صغيرة أنيقة . ولا يوجد ما يفصل بين هذه المزارع وبين الضواحى التى تمتد لمسافة طويلة ، والواقع أن المدينة كانت تتسع بسرعة كبيرة فى المناطق الريفية المحيطة بها — وكان معدل إنشاء المساكن الجديدة ٧٠٠٠ مسكن سنوياً — وذلك قبل أن تتسبب الحرب العالمية الثانية فى إبطاء هذا التوسع .

وأول ما يلاحظه الزائر لسان باولو هو تزاحم السكان وعجلتهم مما جعلها تسمى « شيكاغو البرازيل » . وسان باولو أكثر ارتفاعا وألطف حرارة من المدن الساحلية ، وطرقاتها أكثر حركة من شوارع العاصمة ريو دى جانيرو ، والناس يسيرون بسرعة أكبر ، ويبدون أكثر دأباً ولكنهم أقل سعادة وأقل تودداً . فابتساماتهم ليست حاضرة ، كما لو لم يكن

لديهم وقت لذلك ، وتحس كأن كل فرد لا هم له إلا أن يذهب إلى مكان ما وأن يفعل شيئاً ما ، وهذه هي شيمة أهل المدينـــة التي مكنتهم من جعل مدينتهم ثانية مدن البرازيل سكاناً بعد ريو دي جانيرو .

وقد تطبع سكان سان باولو بروح النضال منذ وصول أول رجل أبيض ، وكان بحاراً برتغالياً اسمه رامالو ، بعد تسلقه الحاجز الجبلي متعقباً درباً من دروب الهنود حتى أقام في هذا المكان وتزوج ابنة رئيس القبيلة ، وكان هذا الرئيس واسمه « تيبيريسا » قد اختار — دون علم منه — هذا الموقع الذي كان مقدراً له أن يصبح أهم مدينة صناعية في أمريكا الجنوبية. ففضلا عن كونها ملتقى طرق تسير في كل اتجاه ، فإن مناخها منعش ، ومياهها جيدة وفيرة ، وتربتها غنية بخصبها .

ولم يلبث أن لحق برامامو اثنان من المبشرين هما نوبريجا وآنشيتيا اللذان أقاما الكنيسة الكاثوليكية والمدرسة لتعليم الهنود ، وكان هذان البناءان بداية العمران الذي قامت المدينة حوله ، وراح سكان سان باولو الأولون يغزون الأرض إلى غاية المدى الذي يمكن أن يصلوه ، وقد ظلوا يفعلون هذا منذ ذلك الوقت . . بل إنهم لا يزالون يفعلونه حتى اليوم بغزواتهم التجارية .

ولا يقتصر الاختلاف بين سكان سان باولو وسكان العاصمة على أن الأولين أكثر حركة ونشاطاً ، بل إن لهم مظهراً مختلفاً ، وقد يرجع هذا جزئياً إلى أن أغلب المليونين الذين يسكنون المدينة من الأجانب ، والإيطاليين أكثر هؤلاء عدداً . وقد أضفوا على الطعام والعادات طابعاً إيطالياً ، كما

إنهم يسيطرون أيضاً على الصناعات الهامة . وكانت أكبر ثروة جمعها برازيلى هى تلك التى كونها إيطالى يدعى « ماتارانسو » ، الذى وفد إلى سان باولو كمهاجر فقير . ويحتل البرتغاليون المركز الثانى بين الأجانب من حيث عدد السكان ، ثم يأتى بعدهم الإسبان والألمان . وهذا المزيج من السكان يجعلهم أشبه بسكان أمريكا الشمالية ، وتبدو سان باولو نفسها كما لو كانت مدينة كليفلاند أو ديترويت بطرقها التجارية الفسيحة وناطحات سحابها — إذا استثنينا الجزء القديم منها .

وتؤدى بنا الطرقات الفسيحة إلى منازل جميلة وحدائق مبهجة ، وبالرغم من أن النهار بارد رطب ، والليالى قارسة البرد فى الشتاء فوق هذا السهل المرتفع فإن الأزهار تنبثق من التربة الخصبة الحمراء طوال العام وتتفتح للشمس الدافئة عندما تعلو فى كبد السماء ، وتختلط الأركيديا والأضاليا Azaleas مع الورود وأزهار الداليا وغير ذلك من أزهار البلاد الباردة . ذلك لأن سان باولو هى المدينة الكبيرة الوحيدة فى العالم التى يقع نصفها فى المنطقة المدارية ،ويقع نصفها الآخر فى المنطقة المعتدلة ، فهى تقع على كلا جانبى مدار الجدى ؛ وقد أنشئ ملعب للجولف على طول هذا الخط الوهمى ، مما يعطى اللاعبين فرصة فريدة فى نوعها بأن يدفعوا الكرة من أحد جانبى الخط إلى الجانب الآخر .

ويقبل أهل المدينة « البوليستاس » بشغف على العمل إقبالهم على المرح ، وهم يتوقون إلى « الأكبر » وإلى « الأفضل » فى كل شىء ، مما ينعكس على دور التعبئة ، ومصانع النسيج ، بل وأيضا على متاحفهم

ومدارسهم ومظاهر نشاطهم الثقافى ، وفى الموسيقى والفنون كما فى الألعاب الرياضية . ففى سان باولو يوجد أكبر المحال التجارية فى البرازيل لبيع مختلف السلع ، كما يوجد بها مضمار رياضى ضخم يستحق الزيارة . ففيه مقاعد لثمانين ألف متفرج ، وهو فى حد ذاته مدينة تحتوى على مطاعم وحانات وعيادات طبية، ومستشفى للطوارىء، وملاعب مغطاة واستراحات، ومساكن لإقامة الفرق الرياضية الزائرة ، ومدرجات إضافية، وقاعات للموسيقى، وأجهزة للإذاعة ، كما يوجد برج عجيب للإضاءة عند إجراء المباريات ليلا ، فضلا عن إضاءة أسفل سطح الماء لمشاهدة المباريات التى تجرى فى حوض السباحة ليلا ، وتذاع هذه المباريات الرياضية إلى جميع أنحاء البرازيل ، ويترقب الناس نتائجها كما يترقبون نتائج سباقات الخيل الهامة .

على أن الزائر الذى يجىء إلى سان باولو من أمريكا الشمالية ، والذى اعتاد مايشاهده بها من مناظر فى وطنه ، لايجد فى هذه المدينة مايجده فى ريودى جانيرو من سحر وجاذبية ؛ إذ لا يكاد يوجد فرق بين سان باولو وأية مدينة صناعية حديثة فى أمريكا الشمالية . فالشوارع الضيقة فى الحى التجارى القديم تزدحم بعربات الترولى وبسيارات الركوب وسيارات النقل التى صنع أغلبها محلياً — كما صنعت إطاراتها من مطاط برازيلى فى نفس المدينة . وإذا ما صعدت إلى أعلى أحد الأبنية العالية الكثيرة ، أو تسلقت تلا فى الحى السكنى لرأيت غابة من المداخن التى تطلق الدخان من أفواهها والتى تفسر لك سر هذا النشاط . وبالإضافة إلى المصانع التى تدار محركاتها بالوقود يوجد عدد كبير غيرها يحصل على القوة المحركة من

محطات الكهرباء المائية . وفى المدينة عدد لاحصر له من الطرقات الموحشة تتمع على جوانبها منازل قاتمة كئيبة هى بيوت العمال الذين يديرون آلات تلك المصانع ؛ ذلك لأن العمال البرازيليين يتقاضون أجوراً منخفضة .

وكانت كل ثروة سان باولو — فى وقت من الأوقات — تأتى من البن وحده . أما الآن فهى تستمد من محصولات أخرى مثل القطن والرز والفاكهة ، كما تحققها أيضاً من الصناعات المطردة النمو . ولكن الواقع أن البن قد جعل سان باولو قوية متعجرفة إلى حد أن كان سكان الولاية يستنكرون دائماً عبء الضرائب الإضافية التى تفرض لصالح الحكومة الفيدرالية ، ولم تنقطع محاولاتهم ، إما للسيطرة على الدولة كلها ، وإما للانفصال عنها وإقامة جمهورية منفصلة ، وقد أدت هذه الأنانية إلى قيام ثورة فى عشرينيات هذا القرن ، بل وإلى حرب أهلية فعلية سنة ١٩٣٠ . وقد أوجد هذا تربة صالحة لمؤامرات من جانب هتلر قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكن هذه الفترة قد مضت وانتهت ، واكتشف « البوليستاس » أنهم يحتاجون إلى باقى بلاد البرازيل كسوق لتجارتهم بقدر ماتحتاج الدولة إليهم . ولا يزال البن أهم عناصر التجارة فى هذه الولاية الفسيحة التى تصل مساحتها إلى جملة مساحة ولايتى نيوإنجلاند وبنسلفانيا من الولايات المتحدة الأمريكية .

ويعتبر تل ابيرانجا Ipiranga أطرف مزار تاريخى فى هذه المدينة. فعنده أعلن الامبراطور دوم بيدرو الأول سنة ١٨٢٢ الاستقلال عن البرتغال ، ويفتخر « البوليستاس » لأن الحادث قد جرى فى إحدى ضواحى مدينتهم ، كما

أنهم يفخرون بالدور الذى لعبوه فى مناوأة البرتغال وتحديها برفضهم دفع الضرائب الفادحة الباهظة ، فكانت سان باولو زعيمة حركة التمرد على مثال مافعلت بوسطون إزاء مشكلة « الشاى » فى فجر حروب الثورة الأمريكية، وأنشئ متحف أبيرانجا فى نفس المكان فى تاريخ لاحق ، ويقوم هناك تمثال كبير من البرونز للدوم بيدرو الأول وقد امتطى جواده ملوحا بسيفه كما فعل عندما أطاق صيحته التاريخية « الاستقلال أو الموت » ، وقد رسم المشهد المثير كله بارزاً على قاعدة التمثال ،ويشاهد فيه الإمبراطور الصغير وقد همز حصانه مندفعاً أعلى المنحدر تحيط به حاشيته التى أقسم أفرادها على مساندته وسيوفهم مرفوعة فى الهواء .

وقد احتفظ كذلك بالكوخ البدائى المصنوع من سعف النخل الذى قضى فيه الدوم بيدرو تلك الليلة ، ويقوم الكوخ فى أرض المتحف دليلا بيناً على عناد وقوة ذلك الإمبراطور الأول الذى أحب مثل هذه المغامرات الخشنة، وكانت لديه الشجاعة ليخطو أول خطوة ناجحة لتحرير البرازيل من الظلم والاضطهاد .

ويعتبر معهد بوتانتان أكثر مايمكن أن تراه فى المدينة طرافة ، فهو شىء غير عادى : مشروع آخر من المشروعات العلمية التى أسهمت بها البرازيل لخير العالم . ومع أنه ليس بأهمية معهد أوزوالد كروز فى ريو دى جانيرو حيث تدرس كل أمراض المناطق الحارة، إلا أن معهد بوتانتان قد أنقذ حياة الآلاف من الناس ، ويعرف أحسن مايعرف باسمه الشائع : « مزرعة الأفاعى » ، فهو فعلا مزرعة أفاع . وقد أقيم المعهد لتربية

الأفاعى واستخلاص سمومها لمنع وعلاج التسمم من لدغات الأفاعى . وترسل مئات الأفاعى السامة من مختلف أنحاء البرازيل كل سنة إلى هذا المعهد فتعيش حياة طبيعية ما أمكن فى أوكار صغيرة مصنوعة من الأسمنت ، وليوضحوا لك كيف يستخلص السم يسير أحد العمال أمامك وسط الحيات الجاجلة وغيرها من الزواحف القاتلة، وقد ارتدى حذاء طويل العنق وبيده عصا مزودة بسلك يمسك به الأفعى من عنقها، ثم يضغط بإصبعه على غدد السم فوق قدح من الزجاج فتبصق الأفعى السم من فمها ، ثم يؤخذ القدح إلى المعمل لإعداد « المصل » وتعبئته فى حقن تعطى تحت الجلد ، ويرسل هذا المصل إلى كل مكان فى البرازيل ، وتحتفظ مخازن الأدوية فى المناطق الريفية والمزارع الحديثة الكبيرة بكميات من هذا المصل لاستعماله عند الحاجة ، كما يحمله المستكشفون معهم أينما ساروا ، والمصل جزء من صندوق الإسعاف الأولى فى كل المؤسسات الهندسية للإنشاء والبناء ؛ ذلك لأنه يجب حقن المصاب فور اللدغ لإنقاذ حياته .

وفى معهد بوتانتان مجموعات من الأفاعى غير السامة أيضاً يحتفظ بها لدراسة عاداتها ، كما يوجد فى مبنى المعهد متحف تعرض فيه نتائج البحوث عن طبيعة الزواحف وتأثير سمومها فى الناس . وتوجد أفاع مجففة كما توجد هياكلها ونماذج مكبرة من البلاستر لأنيابها ودرقاتها وحقائب السم موضحة الأعصاب والعضلات التى تفرز السم القاتل ، وهذه الزيارة دراسة مفيدة ولكنها أشبه بكابوس مزعج .

والآن — وقد انتهيت من رؤية كل مشاهد المدينة — يحسن أن تقوم بالرحلة إلى الأرض التى تزرع البن ، ولكن قبل أن تذهب إليها يجب أن تسمع قصة « البن » الشائقة والتى يعرفها كل طرف برازيلى ، فالقهوة — على خلاف الشاى الذى كانت له أهميته منذ تاريخ مغرق فى القدم فى الصين — شراب حديث نسبياً ، ويمكن أن يوعز اسمه النباتى « كوفى آرابيكا » أى « البن العربى » إلى أن أصله من بلاد العرب ، ولكن البن فى الواقع نبات إفريقى ، وقد نقلت شجرته إلى بلاد العرب بسبب أوراقها اللامعة ورائحتها النفاذة وثمارها الحمراء اللامعة ، وتقول أسطورة عربية الأصل : إن صبياً من رعاة الغنم رأى جماله وأغنام قطيعه تأكل ثمار وأوراق شجرة صغيرة ، فبقيت بعد ذلك تلعب وتقفز طوال الليل ، فتناول هو بعض الثمار الحمراء ومضغها ولم يتمكن من النوم . واعتاد بعد ذلك أن يأكل بعض الثمار كلما رعى قطيعه فى منطقة خطرة حتى لا يفاجئه لص أو أسد يغير على القطيع ، وسمع رجال الدين بالقصة ، فاعتاد المسلمون أن يأكلوا بعض الثمار عندما يريدون أن يقضوا الليل كله فى الصلاة والعبادة ، ولكن لا يعرف أحد كيف اكتشف أمر تحميص وطحن البن لصنع الشراب الزكى الرائحة ، على أنه فى الوقت الذى اكتشفت فيه أرض البرازيل كانت القهوة مشروباً شعبياً فى غرب أوربا .

وكانت للبن أهمية كبرى فى فرنسا حتى إن أول حاكم فرنسى ذهب ليتولى أمر جزر المارتنيك فى أوائل القرن الثامن عشر أخذ معه شجرة صغيرة من أشجار البن ، وقد تعطلت سفينته فى وسط المحيط لأسابيع

عندما هدأت الرياح وسكنت صفحة الماء . وعندما بدأت مياه الشرب تقل وأشرفت على الانتهاء ، ولما لم يكن يسمح للفرد بأكثر من رشفات قليلة من الماء كل يوم، قسم الحاكم نصيبه من الماء بينه وبين شجرة البن ، واحتمل هو الظمأ شهرين كاملين لينقذ حياة أول شجرة بن وصلت إلى العالم الغربي، وقد نمت الشجرة وأنتجت الثمر الذى أرسل لكل جزيرة ومستعمرة فرنسية مجاورة ، وصدر قانون فرنسى بأقصى العقوبات لمن يحمل بذور البن إلى خارج حدود المستعمرات الفرنسية .

وكانت واحدة من هذه المستعمرات جيانا الفرنسية ، وفى وقت ما ذهب موظف برازيلى من بارا لزيارة الحاكم الفرنسى لجيانا لتسوية وإقرار الحدود بينها وبين البرازيل ، فلما انتهت المهمة الرسمية كسبت البرازيل جزءاً من الأرض التى هى الآن إقليم آمابا الذى تغطيه الغابات الكثيفة على ساحل المحيط الأطلنطى شمال مصب نهر الأمازون ، إلا أن جانباً من الزيارة كانت له أهمية خاصة ، ذلك لأن زوجة الحاكم قدمت — كعادة الفرنسيين — كوباً من القهوة للزائر الذى فتن بالشراب ، ولكنه حزن عندما عرف بالقانون الذى يحرم نقل البذور لخارج المستعمرات الفرنسية، على أنه قبل أن يغادرهم أخذه الحاكم وزوجته إلى الحديقة ليشهد شجرة البن وليعجب بها ، وبينا كان الزوج يلتفت ناحية أخرى ملأت الزوجة الفرنسية جيوب الزائر ببذور البن .

ووزعت هذه الحبوب على عدد من المزارعين وبدأت زراعة البن

في شمال البرازيل ، وبعد ثلاثين سنة جاء مسافر بأربع بقلات من البذور حملها معه طوال الرحلة الطويلة البطيئة حول ساحل البرازيل حتى وصل إلى ريو دى جانيرو ، وقد أعطى بقلة منها إلى رهبان كابوشين[1] الذين اعتنوا بزراعتها وأحاطوها برعاية كبيرة ؛ فكانت هذه البقلة هى وحدها التي عاشت من الأربع بقلات ، ولا تزال هذه الشجرة قائمة فى حديقة الدير السابق لهؤلاء الرهبان فى شارع ايفيار يستودافيجا .

وكانت هذه الشجرة الأم هى أصل كل مزارع البن التى قامت فى ولاية ريودى جانيرو وامتدت حتى وادى نهر بارايبا فى ولاية مناس جرايس ، وحصل كثيرون من المزارعين فى تلك المناطق على الثروة من زراعة البن ، وذلك قبل أن تمتد زراعته على نهر بارايبا فى ولاية سان باولو التى كان ارتفاع الأرض وخصب التربة واعتدال الجو فى صالح زراعة البن خاصة .

وتغطى أرض البرازيل آلاف المزارع التى ينبت فيها البن للاستهلاك المحلى ، ولكن الولايات التى تفضل غيرها لإنتاج المحصول الذى يصدر هى ريو دى جانيرو ومناس جرايس وسان باولو ، وفى الأخيرة أكبر مناطق لزراعة البن ؛ إذ بها بليون ونصف بليون شجرة تغطى أربعة ملايين من الأفدنة تنتج نصف محصول البرازيل من البن .

وتكاد مزارع البن تبدأ عند أطراف المدينة ثم تمتد فى جميع أنحاء

---

(١) طائفة من الرهبان الفرنسيسكان الذين يرتدى كل منهم قباء بقلنسوة . (المترجم)

الولاية تقريباً ، وفيها حالياً اثنتا عشرة منطقة لزراعة البن ، بعضها قريبة قديمة ، وبعضها بعيدة مهدت واقتلع منها ما كان فيها من نباتات زرعت حديثاً ، وهذه هى الأفضل ، ذلك لأن الأشجار أو الأعشاب العالية تستنزف خصب التربة .

وقد اتبع البرازيليون نفس الأسلوب السيء الخاطيء الذى اتبعه سكان أمريكا الشمالية ، فحيثما وجدوا أرضاً طيبة فسيحة فإنهم مهدوها وزرعوها ، وبذلك فإنهم أجهدوا الأرض الطيبة بمحصولاتهم ، فإذا ما أنهكت الأرض تحركوا ومهدوا مزيداً من الأرض الجيدة وزرعوها . ولكن لما كان البن هو محصول البرازيل الأول من قرابة مائة عام ، كما انقضت خمسون سنة منذ أن تصدر محصولات سان باولو ، فقد أخذت الأراضى الجيدة التى تصلح لزراعته تصبح نادرة . وتوجد الآن مشروعات مختلفة لحث المستوطنين على أن يتوغلوا إلى مسافات أبعد وأبعد فى أراضى البرية البكر .

وكان زراع البن هم أول من جاءوا بالإيطاليين بالآلاف عبر البحر ، وذلك بعد تحرير العبيد ، فلقد بدأوا ينشرون الإعلانات فى صحف إيطاليا لدعوة الناس إلى الهجرة ، كما عقدوا الاتفاقات مع دول أوربية أخرى ومع اليابان ، لإرسال جماعات كبيرة من المستعمرين . ولما كان لزاماً على أصحاب المزارع أن يفوا بالوعود الزاهية من حيث تهيئة المساكن وفرص العمل التى نصت عليها العقود ـ فقد شيد الكثيرون منهم منازل للعمال

تشتمل على غرفتين أو ثلاث غرف. وتمتد هذه المساكن عادة فى صفوف تشبه أحياء العبيد فى مدن الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة . وتكاد بعض هذه المزارع تبلغ حجم قرية كبيرة بما فيها من الشوارع والكنيسة والمتجر والمدرسة ومبانى المزرعة المتعددة ، وعادة ما يكون لها مستودعها الخاص الذى يصدر منه المحصول . وكان لإحدى المزارع القديمة بالفعل ثلاثون ميلا من الخطوط الحديدية وقاطراتها الخاصة بها .

وتستطيع أن ترقب بعض هذه المزارع الكبيرة ، كما ترى المزارع الصغيرة لصغار المستوطنين فى رحلة بالسيارة لمسافة سبعين ميلا إلى بلدة كامبيناس ، وتستطيع أن تقوم بعدة جولات فرعية طريفة على الطريق فى أثناء رحلتك .

وتتنوع مناظر المزارع على طول الطريق ، فإن بعض المزارع التى أجهدت تربتها قد حولت إلى مزارع للعنب وبساتين للبرتقال ، أو حولت إلى مراع خصصت لتربية الماشية من السلالات الأوربية ، وتجىء هذه بكسب أكبر مما يمكن الحصول عليه من تربية ماشية براهما المختلطة بالماشية المحلية على مثال ما نجد فى أجزاء كثيرة من البرازيل ، والمراعى خصبة غضة مليئة بعشب (حشيش) خاص يقال له « عشب التسمين » ويستخدم لتسمين العجول التى تلاقى سوقا طيبة فى مصانع تعبئة اللحوم بسان باولو .

وستجد على الطريق عدداً من المدن التى يتميز بها الإقليم . وستتوقف لترى منطقة جميلة المنظر عند مسقط مياه يطلق عليه الهنود اسم « مساقط ايتو » ،

ولكنك فى هذه الرحلة ستمر بصفوف تمتد لأميال من أشجار البن متألقة متلألئة ، فإذا كانت رحلتك فى الربيع ، أى فى المدة من شهر سبتمبر إلى شهر ديسمبر، فستجد الأشجار مزهرة بأزهار بيضاء والهواء مثقلا برائحة عطرية نفاذة ، أما إذا كانت الرحلة فى الخريف الذى يبدأ فى شهر ابريل فستجد الهواء مليئا بالرائحة التى تطلقها حبات البن الحمراء اللامعة ، وفى ذلك الوقت يكون الناس فى هذا الجانب من البلاد قد نشطوا لجمع المحصول الثمين .

ويجمع الرجال والنساء المحصول ملتقطين حبات البن باليد ويلقون بها على قطع من الخيش مبسوطة على الأرض أسفل الأشجار ، ويقفون على سلالم متحركة يسهل حملها للوصول إلى الأغصان العالية المرتفعة ، ويحمل آخرون الثمار ويلقون بها فى مياه جارية تحملها إلى معامل إعدادها حيث يفصل اللب عن البذور بالآلات ، وتفرد الحبوب بعمق عدة بوصات على أفاريز من الأسمنت ،ويحرك بعض الرجال هذه الحبوب باستمرار بوساطة مدمّات حتى تجف فى الشمس والهواء ، ثم يضعونها بعد أن تجف فى حقائب من الخيش استعداداً لشحنها .

وعندما ينتهى جمع المحصول كله ، ينهمك كل فرد فى حساب دخله ؛ ذلك لأن العمال يزرعون البن مـــقابل نصيب من المحصول ويتعرضون لنفس المحن التى مر بها زراع أمريكا الشمالية الذين كانوا يشاركون فى المحصول ، فيعيش هؤلاء العمال بالدين بقية السنة ، يشترون

الطعام بل ويبتاعون كل احتياجاتهم من متجر المزرعة ، ويأملون دائماً أن تنتهى عملية تقدير المحصول بأن يحصلوا على فائض يدفع لهم نقداً بعد تسديد ما كانوا قد اقترضوه .

ويوجد فرق كبير بين الدور البسيطة التى يعيش فيها العمال وبين قصر المزرعة الكبير الذى يعيش فيه صاحب الأرض عندما يكون مقيما فى مزرعته على مثال ما نجد فى بعض الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية ، ولا يدرك فرد هذا التباين بقدر مايدركه بعض البرازيليين أنفسهم ، ولقد بدأت حركة من جانب بعض ذوى الضمائر الحية لرفع مستوى معيشة العمال الزراعيين الذين لا يمتلكون أرضاً ، ويستطيع هؤلاء العمال أنفسهم أن يغيروا من هذه الحال عندما يتكون لديهم وعى يجعلهم يشتركون فى حكومة بلادهم فى ظل نظام ديمقراطى .

وكامبيناس مدينة قديمة جذابة ، تعمل فيها الآن يد التجديد . وكانت من أوائل المحلات الريفية فى الولاية ، ولا يزال فيها طابع المبانى البرتغالية مع فيلات من طراز قديم لها حدائقها المليئة بأشجار الفاكهة ، وشهرتها التاريخية الرئيسية أنها مسقط رأس كارلوس جوميس أحد المؤلفين الموسيقيين البرازيليين ذوى الشهرة العالمية .

كان والد كارلوس مدرس موسيقى فى كامبيناس فى منتصف القرن الماضى ، وكان ذا أسرة كبيرة مكونة من ستة وعشرين طفلا من الأطفال الموهوبين ، وكان كلما ولد له ولد علمه الموسيقى ، ثم وجهه ليعمل فى

الفرقة الموسيقية التى تكونها الأسرة . وكان كارلوس فى العاشرة من عمره عندما أصبح عضواً فى هـــذه الفرقة الموسيقية ، وقد تعلم كما تعلم الباقون العزف على عدة آلات . وكانت أسرة جوميس تعزف فى الحفلات فى منطقة تمتد لمسافة أميال حول موطنها . وقد جعلهم الأب يحفظون عشرات المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية والشعبية الشهيرة فى ذلك العصر ، ومن ثم فقد أعطى كارلوس بداية طيبة ، واكتشف الدوم بيدرو الثانى الموسيقى الصغير الموهوب فأرسله إلى إيطاليا للدراسة ، وقد عمل هناك بجد كما كان يعمل مع أبيه ، وجاء أول إنتاجه الناجح فى إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت تمثل أوبراته ، وبخاصة أوبراه « جواراثى » التى نالت شعبية كبيرة ، ولب موضوعها الكفاح بين البيض وبين الهنود فى القرن السادس عشر ، وقد جاءت الفكرة لجوميس من رواية فى مجلدين تحمل نفس الاسم من قلم الشاعر الروائى الكلاسيكى خوزى دى آلينكار . ويستخدم جوميس فى مقطوعاته الموسيقية النــــاى والترومبيتة والخشخيشة التى يستخدمها الهنود ، ولا بد من وجود هذه الآلات فى الأوركسترا إذا أريد للموسيقى أن تعزف بنجاح .

ويحاول أهل كامبيناس أن يجعلوا من مدينتهم « سان باولو صغيرة » فقد نما سكان المدينة إلى أن بلغ عددهم مائة ألف ، ولها مصانعها التى تنسج الأقمشة وتصنع الفخار والآلات وأشياء كثيرة أخرى ، وتقع فى تقاطع أهم الطرق العامة فى الولاية ، كما أنها مركز للسكك الحديدية ، ويصل أحد الخطوط الحديدية التى تمر بها إلى حدود بوليفيا .

وعلى مسافة أميال كثيرة من كامبيناس تقع « فيلا أميريكانا » ، أى القرية الأمريكية التى نزلها أهل الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة لاجئين بعد هزيمتهم فى الحرب الأهلية ، إذ تذكرهم الأرض المتموجة بولاية تنيسى ، وقد كانوا يحلمون بالسعادة فى البرازيل بفكرة أنهم يستطيعون الاحتفاظ بعبيدهم ، ولكن برغم مامنحه لهم الدوم بيدرو الثانى من معاونة شخصية ليبدأوا حياتهم فى البرازيل فإن الكثيرين لم يلبثوا أن أسفوا لترك وطنهم وعادوا من جديد إلى الولايات المتحدة . وسرعان ماعرف الذين بقوا أن ماحملوه معهم من نقود لاقيمة له ، وكان القليلون منهم هم الذين تعلموا حرفة ما لكسب عيشهم فضلا عن أن الأحوال المعيشية فى الولاية كانت بدائية إلى درجة كبيرة . أما الذين بقوا منهم فقد تركوا ذرية كبيرة يعيش معظمهم فى المدن وكلهم من أصحاب المهن ، وهم يرسلون أبناءهم إلى الولايات المتحدة للدراسة فى جامعاتها ، ولايزالون برغم مرور عدة أجيال يحتفظون بطابعهم الأمريكى . ولم يستوطن إلا عدد قليل جداً بالقرب من فيلا أميريكانا . ولكن الكنيسة الصغيرة التى شيدوها هناك محاطة بقبور كثيرة تحمل على شواهدها أسماء أسر قديمة من أسر الجنوبيين .

وتستطيع أن تذهب من كامبيناس بالسيارة ، أو بالطائرة ، أو بالقطار إلى « النهر الأسود » والذى يبعد مائتى ميل عنها ، وهناك تجد أغنى منطقة لزراعة البن ، ولكنها لا تختلف عن غيرها كثيراً . ومن ثم فإنك بدلا من أن تذهب إليها فستفضل أن تتبع أحمال البن فى طريقها إلى ميناء

سانتوس على خط حديدى يقال إنه الخط الذى يلقى أكبر عناية فى العالم ؛ ذلك لأن الشركة الانجليزية التى أعطيت امتياز هذا الخط قد شق عليها أن تبعث إلى انجلترا بأكثر من نسبة مئوية معينة من كسبها ، ولهذا فهى تنفق الزيادة فى الكسب على تحسين الخط الحديدى . وتصل إلى آلتودى سيرا أو إلى حافة سلسلة الجبال بعد أن تترك سان باولو بقليل بوساطة هذا الخط الحديدى ، وهذه هى نفس الشرفات التى تفصل الأرض العالية عن ساحل البحر لمئات الأميال على طول الساحل البرازيلى ، وتستطيع هنا أن ترقب مدى العناية بالخط الحديدى ، فكل حجر صغير من الدكة التى تمسك بالعقد والشدادات يبدو مصقولا ، ولا ترقب أى أثر للصدأ الذى قد يشوب اللمعان الفضى للقضبان الحديدية ، وستجد أعمدة التلغراف وأكشاك الإشارة مدهونة لامعة ، وترقب الحدائق المليئة بالأزهار على جانبى الخط الحديدى ، وتختلف هذه كلها عن الصورة القاتمة الكئيبة التى هى الطابع العادى للخطوط الحديدية .

ولكن سرعان ماتحول عينيك عن هذه الأعجوبة ، لأن قطارك يندفع لأسفل فوق منحدر وعر ، وترى أمامك المناظر الجميلة للمدينة الفريدة فى طابعها ، فتتبين الميناء والجزر الجميلة التى لا تبعد عنها كثيراً . فالواقع أن سانتوس نفسها مشيدة على جزيرة يفصلها عن الأرض الرئيسية مجرى نهرى ضيق - مما يجعل ميناءها من أكثر موانىء العالم أمناً .

ولقد كانت سانتوس يوماً ما مباءة للأمراض ، يخشاها الملاحون ، ويخافونها ، وتتجنبها السفن ما استطاعت . ولكنها أصبحت مدينة جميلة

صحية يسكنها مائتا ألف ، بها حدائق مدارية بديعة وأميال طويلة من الشواطئ الرملية المتماسكة . وفيها كل وسائل الاجتذاب التى تجعل منها مدينة سياحية ، ففيها الكثير مما يمكن أن يشغلك ، كما يتوافر كل ماهو أنيس أليف سهل المنال فى مدينة من هذا الحجم الكبير ، ويقول سكانها إنهم يقضون بها أفضل وقت فى العالم ، ففيها المصائد الجميلة لصيد البر والبحر ، ويتوافر الوقت لركوب الخيل وقيادة القوارب البخارية والقوارب الصغيرة ذات المجاديف ، وتساق الجبال والاستحمام فى البحر ، والسباحة فى المياه الهادئة ، ويجد الزائر المتعة فى كل لون من ألوان الرياضة والسباق ، فضلا عن الملاهى الكثيرة فى المدينة وفى الجزر .

ويتوافر فى إحدى هذه الجزر . . جواروجا . . كل ألوان اللهو مجتمعة معاً فى إطار واحد ، ويجيئها الزوار من سانتوس فى أيام الآحاد لقضاء اليوم كله بأطفالهم على الشاطئ الرملى ، كما يجئ سكان سان باولو ليقضوا أسابيع الشتاء الباردة وسط أمواج الساحل الدافئة وتحت شمس جواروجا الساطعة ، والواقع أن فنادق ومنازل سانتوس تزدحم دائماً بالنزلاء القادمين من سان باولو لما اشتهرت به من الحفاوة بنزلائها وبجوها المتحرر من الرسميات .

وسان فيسينتى إحدى الجزر الأخرى الهامة ، وهى الآن إحدى ضواحى سانتوس ، وكانت أول مستوطنة فى البرازيل إن لم تكن أول مستوطنة فى أمريكا كلها ، ولقد أنشئت هذه المستوطنة على هذه الجزيرة سنة ١٥٣٢ ، وكان هذا تاريخاً مبكراً ولا شك ، فإن سانتوس نفسها لم تشيد إلا بعد هذا

بعشرة أعوام ، وكانت عندما أنشئت مستشفى للبحارة يطلق عليه اسم « مستشفى دوس سانتوس » ، أى مستشفى القديسين . وفى سنة ١٥٩١ نزل القرصان الانجليز إلى البر وسلبوا كل ما استطاعوا أن يحملوه معهم ، وقد حدث هذا قبل أن تقام مستوطنة واحدة فى أرض الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

ولقد توافرت لك الآن فكرة طيبة عن المشاهد العامة فى المدينة وما يحيط بها قبل أن يطلق السلك القوى قطارك عند حافة الجبل ، ولكنك لاتزال بعيداً عن المدينة ويسير بك القطار فى منطقة مسطحة من الأرض مليئة بمزارع الموز ، ولقد كانت هذه الأرض مباءة للملاريا والحمى الصفراء اللتين اشتهرت بهما سانتوس ، إلا أن المستنقعات قد جففت ، وزرعت الأرض بأشجار الموز القصيرة التى تتدلى منها الثمار إلى مقربة من الأرض ، والأعذاق (جمع عذق) « السباطات » ثقيلة جداً حتى تبدو الجذوع القصيرة وكأنها تنوء بحملها ، ومع أن هذه الأشجار سهلة الزراعة وافرة الإنتاج ، إلا أن موزها ليست له النكهة الطيبة التى يفضلها هواة الموز ، ولكن ثمار أشجار سانتوس تملأ أسواق شعب يأكل أفراده الموز مع كل وجبة من وجبات طعامهم ، ومن ثم فإنه يدر ربحاً كبيراً ، فضلا عن أنه سهل النقل إلى جنوب البرازيل وإلى الأرجنتين ، وحتى إلى أوروبا ، ويسيطر على إنتاج الفاكهة وبيعها فى سانتوس كثير من اليابانيين .

ويصل بك القطار إلى سانتوس بعد أن يقطع بضعة أميال وسط صفوف من أشجار الموز التى تنبت كالحشائش العملاقة ، وتشم إذ ذاك رائحة البن ، رائحة زيتية حادة قوية ساطعة تنطلق من ملايين الجوالات من حبوب البن التى تملأ كل المستودعات وسيارات النقل الكبيرة والصغيرة وعربات السكك الحديدية ، وهى ليست بالرائحة المستحبة إلا لأولئك الذين يعملون فى زراعة البن وتجارته ؛ فهم ينشأون على حبها ، ثم تقابلك هبات ونفحات الهواء صاعدة من آلات تحميص البن لأن سكان سانتوس يستهلكون كمية كبيرة من البن ، ويحمص البن « طازجا » فى كل وقت ، سواء أكان هذا للاستهلاك فى المنازل أم فى المقاهى .

وتبدو لك سانتوس مدينة رضية الحياة ،هنية الطابع ، والناس هنا يسيرون متمهلين فى خطى أبطأ مما يفعل الناس فى ريو ، ولكنك عندما تقترب من سوق « بورصة » البن تراهم يسرعون الخطى على مثال الناس فى سان باولو ، وبالرغم من أن أسعار البن ونفقات الشحن ثابتة دائماً تنظمها قوانين صارمة إلا أن عمليات البيع والشراء عمليات كبيرة لها عنفها وأهميتها .

ولنفترض أنك ستزور المكاتب المكيفة الهواء لأمريكى ممن يمثلون مجموعة من المتاجر الأمريكية فى سانتوس ، ستجد موظفيه برغم الهواء الحار فى الخارج يرتدون صدريات خفيفة ،ولن تجد شيئاً غير عادى حتى يأخذوك إلى الغرف الخلفية التى يجرى فيها اختبار البن ، ففيها يفحص ما يشترى من البن ؛ ذلك لأن البن محصول خادع ، فإن حبوب شجرة واحدة قد تختلف

فى النوع والنكهة تبعا للفصل من السنة وتبعاً للجو . ولما كان أهل أمريكا الشمالية يشترون الصنف تبعاً لمزاجهم الخاص ، فإن هذه الأصناف يجب أن تظل هى هى دائماً ، ومن ثم تخلط معاً عدة أنواع مختلفة من الحبوب حتى يتم الحصول على النكهة المطلوبة .

وقد يكون من الطريف أن تراقب الأخصائى مختبر البن المحترف فى أثناء عمله ، فهو يجلس أمام منضدة مستديرة صغيرة تدور بما عليها من فناجين من القهوة السوداء التى صنعت من عينات صغيرة تم تحميصها خصيصاً لهذا الاختبار . ويحمل كل فنجان رقما ، ومهمة الخبير الذى يذوق عينات القهوة هى أن يتوصل إلى النكهة التى تمثل المستوى المطلوب للمتاجر التى يعمل لها . وهو يتناول رشفة واحدة من فنجان ثم يبصقها فى حوض أمامه ؛ ذلك لأنه لكى يبقى حاسة التذوق صحيحة يجب ألا يحتسى أى كمية من القهوة ، ثم يدير المنضدة ليتذوق ما فى الفنجان الثانى ، وهكذا حتى يختبر ما فى جميع الأقداح ، ويقيد رقم القدح الذى يعتبره أجودها ، ثم أرقام القدحين الثانى والثالث من حيث الجودة . ويبدو هذا عملا سهلا ، ولكن القليلين جداً هم الذين يمكن أن يكونوا مختبرين للبن ؛ إذ تتطلب هذه الحرفة تدريباً شاقا ، كما تتطلب حاسة ذوق مرهفة جداً يعنى بها صاحبها كما يعنى عازف البيان بأصابعه . ويجب على هذا الأخصائى ألا يدخن وألا يحتسى المسكرات وألا يتناول الأطعمة الحريفة .

ولابد أنك تريد بعد تعقبك للبن إلى هذه المرحلة أن تراه يشحن فوق السفينة التى ستنقله إلى حيث يصدر ، وسيدهشك منظر المرافئ ، فهى تمتد

إلى مسافة أربعة أميال طولا ، وفيها مراس لخمسين سفينة تشحن كلها فى وقت واحد ، وتحمل مجرات النقل صفوفاً لاتنتهى من الأكياس من المستودعات إلى ظهور السفن ، وتملأ عنابر السفينة وجوفها فى ساعات . وقد كان العمل يستغرق أياماً عندما كان الشحن يتم بنقل الجوالات على رؤوس العمال .

والآن يبقى أن تجرب بنفسك قدحاً من قهوة سانتوس الخاصة ، فدعنا نعد إلى أحد المقاهى القريبة من سوق « بورصة » البن ، حيث تقدم أحسن أنواع القهوة . املأ الكوب الصغير حتى حافته بالسكر كما يفعل كل برازيلى ، وراقب السائل السميك البنى اللون الذى يشبه التطينة ينساب من الآنية الصغيرة ليذيب السكر الذى يملأ الكوب ، وقد يكون الشراب قوياً ، إذ ستحس وكأن رأسك يدور ، ولكن خبراء البن فى سانتوس يفضلون تناول القهوة بهذه الطريقة .

٧
جنوب البرازيل

عندما تعبر مدار الجدى — الذى يخترق سان باولو — متجها نحو الجنوب فقد تتوقع أنك ستنتقل إلى جزء أبرد مناخا من البرازيل ، فكل شيء يتعلق بالمناخ هنا على النقيض مما اعتاده سكان نصف الكرة الشمالى ؛ إذ تزداد البرودة جنوباً ، كما أن شتاء البرازيل يقع فى شهور الصيف لدينا . ولكن الواقع أنك أحسست بتغير فى المناخ فى مكان ما فى أثناء سفرك بقطار « ليتورينا » من ريودى جانيرو إلى سان باولو ؛ ذلك لأنك ارتفعت عن مستوى سطح البحر وبلغت منطقة عالية هواؤها منعش ويكثر بها الضباب والمطر . أما الآن فعندما تتجه من سان باولو جنوباً إلى الولاية المجاورة لها — وهى ولاية « بارانا » ، فإنك لن تشعر بتغير يذكر فى درجة الحرارة ، بل سيخيل إليك فى بادىء الأمر أنه لا جديد فى هذه الولاية .

فهنا تجد نفس المساحات الواسعة التى تغطيها أشجار البن ومزارع القطن والذرة والرز ، وتربى الخنازير والماشية والخيول والبغال بنفس الأساليب ، ويمتد خط سان باولو الحديدى عبر ولاية بارانا والولايتين الواقعتين إلى الجنوب منها فى طريقه إلى الأرجنتين . ثم إن نفس الجزء البرازيلى من الطريق العام الذى يجرى فى كل بلاد أمريكا والذى شهدت جانباً منه من قبل قد امتد فى أقصى جنوب البرازيل حتى يصل حدود

أوروجواى . أما إذا أردت أن تصل إلى البحر فعليك أن تهبط من فوق هذا الحائط الجبلى . وأهل بارانا الذين يزيدون على المليون نشطون على مثال أهل سان باولو ، والواقع أن أهل سان باولو يحبون دائماً أن ينظروا إلى أرض ولاية بارانا على أنها جزء من ولايتهم ، ولا يبدى سكان بارانا اعتراضاً على ذلك ؛ لأن ولايتهم صغيرة المساحة ، تقل عن ربع مساحة سان باولو .

ولكنك لن تلبث أن تشاهد بعض المحصولات التى تشترك فيها هذه الولاية مع الولايتين الأخريين الواقعتين فى المنطقة المعتدلة . فهناك — أولا — تلك الغابات الشاسعة التى يتميز بها أقصى جنوب البرازيل ، كما أن هناك أراضى برية تختلف طبيعتها كل الاختلاف عن الأدغال المدارية فى الولايات الشمالية والوسطى ، وتغطى ملايين الأشجار التى تعرف باسم أشجار صنوبر بارانا آلاف الأفدنة ، وتنمو هذه الأشجار إلى ارتفاع كبير يصل إلى مائتى قدم ، وتوجد بعض أصنافها الممتازة التى يصل قطرها إلى ثمان أو عشر أقدام ، ولهذه الأشجار ظاهرة غريبة تعطى غابات بارانا منظرها الفريد ، فإن أغصان الأشجار تنمو فى دوائر بدلا من أن تخرج متعاقبة من جذوعها ، وهكذا تدور مجموعة من الأغصان حول جذع الشجرة ، وهكذا تتوالى الأجزاء العارية ودوائر الأغصان الملتفة حول الشجرة ، وهكذا تختلف هـــذه الأشجار عن أية أشجار أخرى ، وتعطى العقد الناتجة عن ذلك فى الخشب نمنمة طريفة يستخدمها النجارون فى شتى صناعاتهم الزخرفية — من كمات المصابيح Lamp - shades والصوانى إلى مختلف ألوان الأثاث ، ويصنع الورق من لب خشب

الصنوبر ، وهذه صناعة جديدة بدأت فى الولايات الثلاث عندما توقف الإمداد بالورق من خارج البلاد إبان الحرب العالمية الثانية .

ولكن أعظم هبة قدمتها هذه الغابات الجنوبية لكل البرازيل هى الـ (ماتى) ، والذى يعرف أيضاً باسم شاى براجواى ، ويصنع الشاى من أوراق شجيرة صغيرة من عائلة الإيلكس ، وتنمو هذه الشجيرات برية فى الأراضى العالية من غابات صنوبر بارانا ، ويلتقط أوراق الشاى من أراد ، ولكن مع هذا صار جمع هذه الأوراق صناعة حقيقية ، إذ يجب أن تجمع وتجفف ، بل وأحياناً تدخن وتعد للسوق ، وتبعد أحراش أشجار الماتى بعداً شاسعاً عن المدن ، فتخرج جماعات من الرجال ومعها معدات إقامة معسكر ، وتأخذ معها حاجتها من الغذاء ، بما فى ذلك الأبقار الحية ، ويقيمون فى هــــذه الغابات طوال كل صيف ، ويعملون من ديسمبر إلى يوليو ، فيجمعون الأوراق من شجيرات الماتى وينشرونها على الأرض لتجف ، ولكى يمكن حزم الأوراق الكثيرة الوبر فى شحنات صغيرة فإنهم يحزمونها فى جلد البقر ... الجلد الخام غير المدبوغ . ولما كان هذا الجلد ينكمش ويتقلص فى الشمس والهواء فإنه يضغط أوراق الماتى حتى يجب انتزاعها بقوة بعضها من بعض فيما بعد ، ثم ترسل هذه الحزم إلى المصانع فى المدن حيث تفرز الأوراق وتفرم ثم تعبأ .

وتجد هذا الشاى فى كل المستودعات والمتاجر الصغيرة فى طول

البلاد وعرضها ، وثمنه قليل جداً بالنسبة لسعر الشاى العادى الذى يقال له « الشاى الصينى » أو « الشاى الانجليزى » ، وقد زرع هذا النوع من الشاى فى البرازيل ، ولكن زراعته لم تلق نجاحا كبيراً . ولهذا فإنك إذا طلبت كوباً من الشاى فى أى مقهى صغير متواضع فثق أنهم سيقدمون لك الماتى فى إبريق شاى مع كوب وإناء للسكر وما إلى هذا من المستلزمات التى تقدم عادة مع الشاى الذى ألفنا شربه .

ولأهل جنوب البرازيل عاداتهم الخاصة بشرب الماتى، فهم يمزجون بعض أجزاء الأوراق المفرومة مع السكر فى قرعة صغيرة على شكل الكمثرى يطلق عليها الهنود « ماتى » ، ومن هنا جاء لهذه الأوراق اسمها الذى تعرف به الآن ، والمألوف أن تزين هذه « القرعات » أو تغلف بالفضة ، ويرسم على هذا الغلاف بعض الرسوم ، ثم يحفر عليها أسماء أصحابها ، ويسكب الماء الساخن على هذا المزيج من الأوراق والسكر ، ثم يمتص الشراب بوساطة أنابيب خاصة أو « بومبيلا » على ما يطلق عليها البرازيليون ، وفى أطراف هذه الأنابيب نتوء « بروز » بصلى الشكل مثقوب يحول دون امتصاص الرواسب « العكارة » ، وقد تملأ « القرعة » بالماء الساخن أكثر من مرة ، لأن أوراق الماتى تفقد قوتها بدرجة أبطأ مما تفقدها أوراق الشاى الذى نحتسيه نحن ، ثم إن المنقوع لا يتحول إلى مذاق مر بكثرة غليانه ، ويتناول الناس الماتى فى أقاليم إنتاجه عدة مرات فى أثناء النهار ، كما يحتسى غيرهم القهوة فى أقاليم أخرى من أرض البرازيل . ومن المناظر المألوفة فى الصباح البارد أن تجد بعض

الرجال يستندون إلى جدران دورهم فى الشمس يتناولون فطورهم السائل من الماتى خارج الدور ، وقد أطبقوا بأيديهم على آنية الماتى لتدفئتها ، ويمتصون السائل بوساطة الأنابيب « البومبيلات » ، وبعد برهة يخرج أحد الناس مسرعا من المطبخ حاملا غلاية فيضيف مزيداً من الماء الساخن إلى كل إناء .

وكان رجال الإرساليات الأولى قد وجدوا هنود « الجوارانى » يحتسون الماتى ويسافرون لأيام دون أى غـــذاء غيره ، وعندما نقل « الماتى » إلى أوربا أطلقوا عليه اسم « شاى براجواى » ، ذلك لأنه شحن على السفن التى سارت به فى النهر عبر أرض براجواى . وكان الرهبان الجزويت الذين يعيشون فى براجواى هم الذين نشروه بين الناس . وتروى بعض القصص الانجليزية القديمة أن الماتى كان يقدم فى الحفلات . غير أن الشاى الشرقى كان قد انتشر فى العالم على يد الانجليز ، ومن ثم ترك الماتى لأمريكا الجنوبية فكان المشروب الوحيد الأساسى فى كل مكان للجنوب من سان باولو بين المحيطين الأطلنطى والهادى .

وفى ولاية بارانا مدينتان حديثتا البناء وافرتا الحركة ، وتقع « كوريتيبا » عاصمة الولاية فى منطقة المرتفعات ، وهى مركز إقليم الزراعة وقطع الأخشاب الذى يحيط بها . ويزهى السكان بسقوط الثلج الذى يحدث مرة أو مرتين فى حياة الفرد العادى ، وتبدده الشمس بمجرد سطوعها .

ويربط العاصمة كوريتيبا بالمدينة الأخرى وهى ميناء باراناجو خط

حديدى بالغ الإثارة ؛ إذ يسير القطار لثلاث ساعات وسط أنفاق خانقة وفوق جسور « كبارى » وقناطر معلقة تعطى الراكب إحساساً بأنه فى قطار بمدينة الملاهى . وفى باراناجوا أجمل مرفأ طبيعى فى البرازيل ، ومن ثم فإنها قد تبز وتسبق سانتوس وريودى جانيرو يوما ما .

ولكن الواقع أن زوار هذه الولاية إنما يجيئون لرؤية مسقطى الماء العظيمين على نهر بارانا ، ولتمد ظلا فترة قصيرة فى إقليم اجواسـو ، إلا أن هذا الإقليم الذى كان قد اقتطع من ولايتى بارانا وسانتا كاترينا قد عاش لوقت قصير ولم يعد له وجود اليوم . وكان قطاع صغير من نهر بارانا الطويل يشكل حدود هذا الإقليم الغربية ، وكذلك الحدود التى تفصله عن إقليم بونتابورا Ponta Pora يفصل بين اجواسو وبونتابورا ، وبين ماتو جراسو وباراجواى . وفى النقطة التى تلتقى فيها هذه البقاع نجد « سيتى كويداس » ، أى المساقط السبعة . ولكن باستخدام طرق مختلفة للعد فى أوقات مختلفة من السنة قد يبلغ عدد المساقط عشرين مسقطا ، لأن نهر بارانا الأعلى — الذى يبدو كالبحيرة — يندفع فجأة من خلال خوانق عديدة ، وتقفز مياهه قفزات رهيبة من المستويات العالية إلى المستويات المنخفضة .

وهكذا فإنه بدلا من أن يكون هذا الطوفان مسقطاً واحداً مثل نياجرا ، نراه ينقسم إلى أقسام عديدة ، إلا أن كمية المياه الكلية أكثر من ضعف كمية مياه نياجرا . وتزأر هذه المساقط الكثيرة بصوت أعلى بكثير من زئير مسقط نياجرا بسبب الأصداء المخيفة التى تتردد جيئة وذهابا فى الخوانق

العميقة ، والموقع رومانسى جامح ، ولكن ما أجمل منظرأقواس قزح التى تتكون فى الرذاذ المتطاير الذى يعلو هذه المساقط .

أما المساقط الأخرى التى تثير الإعجاب على نهر بارانا فهى مساقط اجواسّو التى تعنى « المياه العظيمة » بلغة هنود الجوارانى. ولا تقع مساقط اجواسّو على مجرى نهر بارانا ، بل على مسافة قصيرة أعلاه على نهر اجواسّو ، وينبع هذا الرافد فى ولاية بارانا ثم يسير فى اتجاه جنوبى شرقى ليكون الحد الفاصل بين البرازيل وبين أحد أركان الأرجنتين، وهنا يقفز النهر فجأة فوق نفس الحاجز الصخرى الذى يكون المساقط السبعة على بعد مائتى ميل إلى الشمال .

ويحاول الناس دائما أن يثبتوا أن مساقط « سيتى كويداس » أكبر من مساقط اجواسّو ، أو أن يثبتوا العكس ، وأن كليهما أعظم من نياجرا . على أن الأرقام تدلنا على أن مساقط اجواسّو ضعف مساقط نياجرا سعة وأعلى منها بثلاث وأربعين قدما ، ولكن من الصعب أن نقارن منظر أو هيئة هذه المساقط البرازيلية بمنظر مسقط أمريكا الشمالية وذلك بسبب أن المساقط البرازيلية تنتشر فى حيز واسع ، فإن قسمى مساقط اجواسّو ينقسمان بوساطة الصخور الناتئة البارزة إلى مئات الشلالات ،ولكل منها اسم خاص به ، وكذلك فإن جزيرة تيرتل (السلحفاة) فى وسط المجرى الرئيسى تقسم المنظر الكامل للمساقط ، وهكذا فإن الوسيلة الوحيدة لكى ترى مساقط اجواسّو فى صورة واحدة متكاملة هى أن تنظر إليها من الطائرة عبر سجف الضباب وأقواس قزح التى تكونها .

وتعيش أجمل أنواع الأزهار على رذاذ هذه المساقط ، وتغذى أسراباً كبيرة من الفراش ، مما يجعل السير فى الغابات ممتعاً ، ويؤدى بك أحد الطرق وسط الغابة إلى نقطة مراقبة تستطيع عندها أن تحدق إلى أسفل بما يعادل عشرين طابقا إلى « سالتو يونيو » أى « قفزة الاتحاد » وسط السيل الجارف الذى يندفع فى خانق يطلقون عليه « حلق الشيطان » ، ويجرى خط التقسيم بين البرازيل وبين الأرجنتين وسط « سالتو يونيو » ، وعند هذه النقطة تبدأ حديقة الأرجنتين العامة (الوطنية) . ويوجد هنا مظهر جغرافى غريب ، حيث تمتد أراضى الأرجنتين على شكل لسان ضيق بين إقليم اجواسو البرازيلى وبين باراجواى . وسبب ذلك أن نهر بارانا ينحنى انحناء حادا إلى اليسار .

وتتملك طائرة من اجواسو عبر ذيل البرازيل الجنوبى الذى لا يقل غرابة عما شاهدته ، وتهبط بك الطائرة فى أكبر مدن الجنوب « بورتو أليجرى » أى الميناء السعيد عاصمة ولاية ريو جراند دوسول ، وسوف تلقى بنظرة خاطفة إلى سانتا كاتارينا (سانت كاترين) عندما تطير فوقها وتتوقف بك الطائرة لتتزود بالوقود .

ولهذا الطرف من البرازيل الذى يمتد على الساحل جنوباً تاريخ طويل مثل باقى أمريكا الجنوبية ، فيقال إن الحملة البحرية التى كان أمريجو فيسبوتشى Amerigo Vespucci يقود إحدى سفنها كانت أول حملة نزلت بهذا الساحل سنة ١٥٠٢ ، وبعد هذا بقليل تحطمت سفينة برتغالية هناك وعاش بعض

ملاحيها الذين وفدوا للسباحة إلى الساحل لعشرة أعوام فى جزيرة سانتا كاتارينا ، ولقد قامت مدينة فلوريانوبوليس أو « مدينة الأزهار » عاصمة ولاية سانتا كاتارينا فى المكان الذى قامت فيه يوماً أكواخ هؤلاء الملاحين الذين صنعوها من الحشائش .

ولكن البرتغاليين كانوا أكثر اهتماماً بالأراضى الشمالية الأكثر دفئاً ، لأنها كانت أصلح لإنبات قصب السكر باستخدام الرقيق الذين جىء بهم من إفريقية ؛ فلقد كانت أوربا مفتونة بالحلوى ، وكان السكر لونا جديداً من ألوان الترف ، وكان يباع بأعلى الأسعار ، هذا فضلا عن أن البابا كان قد أعطى إلى إسبانيا كل ولايات بارانا وسانتاكاتارينا تقريباً مع ولاية ريو جراند دوسول ، وقد أدى هذا إلى منازعات طويلة دون إقامة مستوطنات دائمة هناك ، بل إن هذا الإقليم لم يكن داخلا فى حدود الحكومة البرتغالية الأولى فى البرازيل .

وهكذا تعطل التطور الزراعى لهذه الولايات الثلاث حتى تم استقلال البرازيل ، وعندئذ قدمت الحكومة البرازيلية عروضاً مختلفة اجتذاباً للمهاجرين من أوربا ، وبدأت الجماعات تفد لإعداد المستوطنات والمستعمرات والمزارع الأسرية التى نمت حتى صارت اليوم هذه المجتمعات الحديثة الموفورة الرخاء التى نجدها الآن .

ولم تكن هذه المزارع الصغيرة لتقارن بالمزارع الفسيحة فى باقى أنحاء البرازيل حيث كان ملك البرتغال يمنح عدة أميال مربعة لمالك واحد .

وفى البداية كان الناس من كل جنسية يعيشون معاً، ولقد أخذ الألمان جزءاً من الأرض جعلوا منه ألمانيا مصغرة فى البرازيل ، وأقام المهاجرون البولنديون مزارعهم وقراهم على مثال مزارع وقرى بولندة ، ثم جاء الإيطاليون فى تاريخ لاحق ليزرعوا الكروم والخضراوات فى مزارع أشبه بمزارع إيطاليا .

وقد حدث شيء مثل هذا فى الولايات المتحدة حيث استوطنت مناطق فسيحة بالألمان والبولنديين واللتوانيين والإيطاليين ، ولكن على نقيض المهاجرين الذين نزلوا أرض الولايات المتحدة والذين صار أبناؤهم أمريكيين حقيقيين فإن مهاجرى البرازيل قد ظلوا أوربيين ، ولبثوا عدة أجيال لا يتحدثون غير لغاتهم ويعلمون أبناءهم فى مدارسهم الخاصة بهم ، وقد عاشوا بمعزل عن غيرهم ولم يمتزجوا بالبرازيليين الذين يتحدثون اللغة البرتغالية إلا بأقل قدر ممكن .

ومدينة بلوميناو Blumenau التى أنشئت قبل مائة عام نموذج لبلدة ألمانية فى أرض البرازيل ، ويسكنها اليوم أربعون ألفاً ، وقد فعل منشئها — وهو طبيب ألمانى أطلق اسمه على المدينة — أكثر مما فعله أى فرد آخر وحده لاستيطان ولاية سانتا كاترينا واستعمارها ، ولا تزال جوانفيل Joinville - وهى من أقدم هذه المستعمرات - تحتفظ حتى اليوم بطابعها كمدينة ألمانية ، وفى كلتيهما - بلوميناو وجوانفيل - كثيرون من المواطنين الشقر ذوى العيون الزرقاء . والواقع أن الناس السمر البشرة نادرون فى هذه المناطق ؛ ذلك لأن العبيد الذين كان يملكهم المستعمرون كانوا فى

الغالبية من خدم المنازل ، وقد زرع الأوربيون الأرض بأيديهم وحدهم .

وتنتشر صناعة قطع الخشب فى هذه الولاية وتكثر فيها مناشر الخشب ، ولهذا نجد هنا - كما وجدنا فى بارانا - المنازل التى تصنع قواعدها وأركانها من الخشب على مثال ما فى أمريكا الشمالية ، وبخاصة فى الأقاليم التى يسكنها البولنديون ، وحتى المبانى المشيدة من الآجر فى سانتا كاتارينا تقوم على دعامات خشبية ، كما هى الحال فى ألمانيا ، وتصنع عربات المزارع على الطراز الألمانى أو البولندى ، فتبدو غريبة قديمة الطابع فى هذه الأرض الجديدة الحديثة .

ومع أن كل ولايات البرازيل تنتج الرز إلا أنه يفسح المكان هنا جزئيا للقمح ولغيره من حاصلات المناطق المعتدلة . وقد أدخلت أساليب الزراعة الأوربية إلى سانتا كاتارينا ، كما أدخلت زراعة الحبوب والفواكه الأوربية ، ولا تنقل السفن من الموانىء الكثيرة الحركة إلى سائر أنحاء البرازيل الأخشاب والفحم والماتى فحسب ، بل وتنقل أيضاً التفاح والكمثرى والعنب وغيرذلك من فاكهة الأجواء الباردة ، كما تنقل البطاطس والبصل . وقد كان هذا كله يستورد من الخارج من قبل ، وتتضمن الصناعات المزدهرة فى كل من ولايتى بارانا وسانتا كاتارينا صناعات الجبن ولحم الخنزير والسجق وحفظ الفاكهة والخضراوات ، بالإضافة إلى صناعات الأحذية والأثاثات والأدوات المعدنية .

وعندما نعبر حدود ولاية ريو جراند دوسول فى اتجاهنا للجنوب

فإننا لا نزال نجد أنفسنا فى أقاليم تغلب عليها مستعمرات الأوربيين
ويرجع الفضل إلى الألمان فى إنشاء المزارع والصناعات فى ريوجراند
وبخاصة فى العاصمة بورتو أليجرى وما حولها . ويطلق عليها اسم المر
السعيد بسبب موقعها الجغرافى على المحيط حيث تستطيع السفن عابرا
المحيطات أن ترسو فى مكان داخلى آمن عند الطرف العلوى « لبحيرة البط
(لاجودوس باتوس) .

ومن الغريب حقاً أن هذه الكتلة الأرضية الفسيحة للبرازيل تكا
تخلو من البحيرات ، فيما عدا تلك المتصلة بالأنهار وبالمحيط مثل بحير
لاجوجراند على الأمازون ، والبحيرات المالحة على طول ساحل البحر
وأكبر هذه البحيرات « بحيرة البط » ، إذ تمتد لمسافة مائة وخمسين مي
بسعة ثلاثين ميلا ، وقد كونتها حركات المد والجزر التى تعمل جيئة وذه
وراء خط من الشعب والصخور الساحلية ، وعندما رآها المستكشفو
ظنوها خليجاً مصبيا واسعا لنهر عظيم ، ومن ثم أطلقوا عليها « ريوجراند
- أى النهر العظيم - وقد أطلق الاسم على الولاية كلها حتى بعد أن عرف
كل الناس أن نهرهم العظيم لم يكن سوى بحيرة البط .

وتكثر هذه الظاهرة الجغرافية على طول هذا الجزء من ساح
الأطلنطى ، فهناك مئات من البحيرات والخلجان الصغيرة والكبير
المنفصلة عن البحر ، ولقد كان يشك فى أن هذه البحيرات والخلجان مخابى
للغواصات فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ذلك لأنه كانت لهتلر خطة محك
لإقامة دولة نازية فى أمريكا الجنوبية تتكون من طرف البرازيل الجنو

والولايات المجاورة له من الأرجنتين ، وكان النازيون من سكان المستعمرات الألمانية فى جنوب البرازيل منظمين تنظيما جيداً وعلى استعداد لتسليم إقليمهم لألمانيا النازية ، كما كانت توجد عناصر مماثلة فى الأرجنتين المجاورة ، وكان هذا جزءاً من مشروع كبير يقوم على أساس تقطيع كل أوصال البرازيل والقيام بغزو نازى لأمريكا الجنوبية ، ولكن البرازيل انضمت للحلفاء فى الوقت المناسب لتحافظ على تماسك بلادها .

ولقد كانت ولاية ريوجراند - بمواردها الغنية ومدنها الحديثة وموانيها الجيدة - ذات حساسية خاصة بالنسبة إلى الأطماع الهتلرية الواسعة لسببين : أولا ، بسبب العدد الكبير من سكانها الأجانب الذين لا تربطهم مشاعر وطنية بالأرض التى ولدوا فيها ، وثانياً ، بسبب تاريخها الثورى الطويل ، فلقد ثارت الولاية عدة مرات ضد الحكومة المركزية .

ولكن « الريوجرانديز » كما يسمى سكان ريوجراند أنفسهم ليسوا كلهم بالأجانب أو بالنازيين . والواقع أن سهول ريو جراند الواسعة التى ترعى فيها الماشية يسكنها برتغاليون جاء الكثيرون منهم من جزيرة ماديرا ومن جزر الآزور بعد عراك مع حكومة البرتغال . وقد امتزج هؤلاء الثوار الأشداء فى تاريخ مبكر بقبائل ضارية من الهنود تشبه هنود السهول فى أمريكا الشمالية ، فنشأ عن ذلك الاختلاط جماعة « الجاوتشو » Gaucho المحبة للحرية والتى لا يعرف أفرادها الخوف . وعندما يجتاز المسافر المزارع المنظمة بما فيها من خنازير وأبقار ، ويمر بحقول الغلال وكروم العنب ، ويرقب الطرق الممهدة والخطوط

الحديدية وهذه الحركة المستمرة ، ثم ينتقل إلى أرض رعاة البقر فإنه يجد عالما مختلفا تماماً . إنه يرى تكساس أخرى ، ولكنها ليست تكساس الحالية بما فيها من مزارع الترفيه وجو الصور المتحركة ، بل تكساس القـــديمة الموحشة التي كانت موجودة قبل خمسين عاماً .

ويرتدى رعاة البقر البرازيليون سروالا واسعاً على الطراز التركى يسمى « بومباتشا » - يدخلونه فى أحذيتهم العالية المزخرفة التى تجلجل فيها المهاميز الفضية ، كما يحيطون وسطهم بحزام عريض مزدان بمعادن لامعة - يحمل مسدساً أو على الأقل سكيناً مخيفة فى غمد من الجلد ، وتغطى رؤوسهم قبعات « السومبرير » Sombrero التى تثبت بشريط من الجلد يلف حول أسفل الذقن ، ويحيطون أعناقهم بمنديل مزخرف فوق قميص من القماش الزاهى اللون ، وتكتمل معداتهم بالعباءة التى تسمى « بونتشو » Poncho ، ويبدو « البنجو » المهر المدرب مرحا هو الآخر بسرجه المزخرف ، وبلجامه المغطى بالفضة وبالأنشوطة المعلقة إلى جانب السرج ولا يزالون فى بعض مراعى تربية الماشية يستعملون « البولا » ، و « البولا » عبارة عن سوطين أو ثلاثة سياط من الجلد فى أطرافها كرات تدور حول أرجل العجل وتطرحه أرضاً ، وتستخدم « البولا » أيضاً لاصطياد « الايمو » — وهو النعام الصغير الذى يعدو فى جماعات عبر البرارى .

ولا يرتدى رعاة البقر هذا الطقم المزخرف الجميل ليشتركوا فى مباريات الركوب ، أو ليذهبوا إلى المدينة للزهو بما يرتدون ، وإنما

يرتدون ثيابهم الخاصة هذه لأنهم يعيشون حياتهم على ظهور الخيل ويرعون الماشية ، ثم لأنهم من الجاوتشو ، وهذا هو الطراز الصحيح لثياب « الجاوتشو » .

وأهل ريو جراند شعب قوى مرح ، وعاش الناس حياتهم هذه لأجيال كثيرة فى أرض يتوافر فيها الغذاء ، فلحم البقر يمدهم بالقوة ، و « الماتى » يزودهم بالفيتامينات . وقد تعاقبت أجيالهم وهم يقاتلون من أجل حريتهم ويرقصون رقصتهم الوطنية « رانشيرا » ، وينشدون أغنيات رعاة البقر ويروون أقاصيصهم المتعة والسرور .

ويتكلم « الجاوتشو » لغة برتغالية مختلطة بكثير من الكلمات الإسبانية ، وبعض أغانيه إسبانية الأصل ، ويعزف على الجيتار بإيقاع متقطع يختلف تماما عن الإيقاع المتأخر النبرات المعتاد فى الولايات الواقعة إلى الشمال ، ويغنى الجاوتشو أحياناً بصوت ذى طبقات عالية متكلفة ، كما يغنى الإسبان فى الأجزاء التى احتلها العرب .

ولكن الجاوتشو أول من ينكر أن فيه أى طابع إسبانى ، وبالرغم من أن البرازيليين قد استقروا على الجانب الآخر من خط الحدود المشتركة مع الأرجنتين ، وأن الأرجنتينيين قد اعتادوا اجتياز الحدود إلى داخل أرض البرازيل ؛ فقد كانت منازعات الحدود فى الماضى من الكثرة بحيث جعلت من القومية على جانبي الحدود مسألة عزة ووطنية .

وبينما كانت ولاية ريو جراند تنتقل جيئة وذهاباً بين الإسبان الذين

زعموا لأنفسهم أولا الحق فى تملكها وبين المستوطنين البرتغاليين القلائل الذين حاولوا الاحتفاظ بها فى أيديهم ، كانت قطعان من الماشية والخيول الوحشية تنمو وتتزايد وسط الحشائش الكثيفة التى تغطى السهول المرتفعة ، ولا يدرى أحد كيف جاءت هذه إلى هناك ؛ إذ أثبت العلماء أن الخيل والماشية لم تكن معروفة فى الأمريكتين فى عصور ماقبل التاريخ . ولهذا فإنه يظن أن هذه القطعان الوحشية التى تملأ الأرض فى داخل ولاية ريو جراند دوسول من نسل العدد القليل من الماشية والخيول التى فرت من جماعات الاستكشاف الإسبانية التى عبرت حدود الولاية جيئة وذهاباً فى طريقها من باراجواى وإليها بحثاً عن الذهب ، وعلى أية حال فإنه عندما اندفع المستوطنون إلى داخل أرض الولاية فإنهم وجدوا فى هذه الحيوانات ثروة أعظم من الذهب الذى كان الإسبان يبحثون عنه .

ولم تكن هناك وسيلة لنقل اللحوم إلى الأسواق العالمية قبل أن تقام المصانع الكبيرة للتعاليب وتبنى سفن التبريد . ولهذا استخدم الرواد الأولون طريقة الهنود لتجفيف لحم الغزلان وغيرها من حيوانات الصيد فى الشمس ، كما تعلموا أن يملحوا هذا اللحم ، وأطلقوا على هذا اللحم المجفف الاسم « خاركوى » Xarque وتنطق « تشاركوى » Charque بالإسبانية . وقد انتشرت هذه الطريقة فى أنحاء كثيرة حتى وصلت إلى ولاية تكساس شمالا وإلى باتاجونيا جنوباً ، ولا تزال هذه الطريقة من

أفضل الطرق العملية لحفظ لحم البقر . ويملح الخاركوى بعد أن تنزع عنه العظام ويخزن فترة ، ثم يملح ثانية ويعلق فوق حمالات فى الشمس ليجف ، ويستمر هذا التمليح والتجفيف المرة بعد الأخرى تبعاً للجو حتى يغطى كلا جانبي لحم العجل بطبقة دهنية سميكة ، وبذلك يمكن الاحتفاظ باللحم لوقت طويل ، ويرسل هذا اللحم إلى كل مكان فى البرازيل . ومع أن مناطق الماشية فى الولايات الأخرى تنتج كميات كبيرة من لحم البقر المجفف ، إلا أنها دائماً فى حاجة إلى مزيد منه ، لأن كل طبق جيد من الفول الأسود (الذى يكاد جميع البرازيليين يأكلونه ظهراً) — لابد وأن يحتوى على بعض هذا اللحم الشهى المذاق .

ويعرف « الجاوتشو » جميعاً كيف يعد « الخاركوى » وإن كانت مصانع اللحوم الحديثة تقوم بإعداد الكثير منه . ويحول كل سنة نصف مليون رأس من الماشية إلى لحم مجفف ، وهذه الكمية — بالإضافة إلى اللحم الذى تعـــده معامل التبريد الكبيرة فى ريو جراند — قد جعلت البرازيل رابعة الدول التى تنتج لحم البقر فى العالم .

ولقد أدخلت حديثاً إلى البرازيل الماشية الأوربية الضخمة التى تربى وتسمن من أجل لحومها ، وقد هجنت هذه السلالات مع القطعان التى كانت وحشية يوماً ما ، وتمر ولاية ريو جراند دوسول بمرحلة جديدة فى تحسين تربية الماشية مما يشبه تاريخ ولاية تكساس .

والأرض التى تربى فيها الأبقار البرازيلية طريفة جداً ، ولكن قلما يزورها الرحالة الأجانب ؛ لأن سانتوس تكاد تكون أقصى نقطة جنوبية يبلغونها . وسواء أكان مجيئهم للنزهة أم للعمل ، فإنهم يعتبرون الساحل من سانتوس إلى الشمال هو الجزء الخلاب الأخاذ من البرازيل ، ولهذا السبب فإننا نذهب من فورنا إلى هناك .

٨

بـــاهيـــا

شاهدت حتى الآن فى لمحات قصار الجزء الأكبر من أرض البرازيل الفسيحة ، ولربما تشعر بأنك رأيت أكثر من برازيل واحدة . رأيت وادى الأمازون العلوى الغزير المياه ، وشاهدت ولايتى برارى الأمازون ماتو جروسو وجوياسى ، ورأيت مدينة ريودى جانيرو بما حولها من مشاهد قديمة وحديثة ، وزرت سان باولو الزراعية والصناعية ، ثم رأيت الجنوب القصى بطابعه الحديث تملؤه الحركة ، وكل هذه المناطق التى زرتها تختلف وتتباين إلى درجة كبيرة قلما تشاهد داخل حدود دولة واحدة ، ومع هذا فإنك تكاد الآن ترقب برازيل أخرى تختلف عن كل ما رأيت حتى الآن .

فإلى الشمال من ريودى جانيرو — من انبعاج البرازيل حتى مصب نهر الأمازون — توجد مدن البرازيل القديمة بمبانيها التاريخية وحضارتها القديمة ، وهى تختلف بعضها عن بعض إلى أقصى درجة يمكن أن تختلف بها مدن فى نفس الدولة ، ولكل منها تقاليدها وسكانها الفخورون بماضيهم ، ويستطيع الأجانب أن يتبينوهم وأن يميزوا بينهم عندما يقابلونهم فى طرقات ريودى جانيرو ، وأن يحكموا من فورهم — بملاحظة سماتهم وسلوكهم أو حتى بالإنصات لنبرات أصواتهم وهم يتحدثون اللغة البرتغالية — إذا كان الناس الذين يرونهم قد جاءوا من باهيا أو من برنمبوكو أو من بارا ، كما يستطيع أى فرد يعرف البرازيليين جيداً أن يحكم بما إذا كان الشخص الذى يلقاه فى الطريق من أهالى سان باولو أو ريوجراند ، ويحسن

ألا تخطىء فلن يغفر لك أحد أن تظنه من ولاية غير تلك التى هو منها فعلا على نقيض الناس فى الولايات المتحدة عندما تتملق أى أمريكى بأن تقول له إنك تظنه من نيويوك ، فإن هذا يسره ويسعده .

وتكثر حركة النقل البحرى على هذا الساحل ، ومع أن الغواصات الألمانية قد أغرقت ثلاثين سفينة برازيلية ، فلا يزال الأسطول البرازيلى التجارى كبيراً ، وتملك الحكومة بعض السفن ، كما تملك شركات الشحن الخاصة البعض الآخر ، ويفرض القانون على السفن البرازيلية التوقف فى ميناء من موانىء كل ولاية ، وكل من هذه الموانى هى بمثابة ميناء شحن لمنطقة داخلية تختلف حاصلاتها عن حاصلات غيرها .

وهناك — بالإضافة إلى ذلك — سفن تابعة لدول أخرى تقف على ميناءين أو أكثر فى طريقها المباشر إلى أوربا وأمريكا الشمالية . ولا توجد حركة نقل مستمرة على الخطوط الحديدية إلا بين ريو وباهيا . على أنه يجرى خط حديدى لمسافة ألف ميل بين باهيا وميناء على نهر سان فرنسيسكو . أما إلى الشمال من منطقة ريو — ميناس فإن الخطوط الحديدية القليلة لا تسير فى الداخل إلا لمسافات قصيرة ، وعلة هذا أن شبكة الأنهار كبيرة جداً ، ثم إن السفن الساحلية تقوم بالعمل بكفاية إلى الحد الذى لا يترك فرصة للخطوط الحديدية . هذا فضلا عن أن الخطوط الجوية تنمو وتتزايد بسرعة ، ومن ثم ستواجه الخطوط الحديدية معوقاً جديداً : وتعمل الخطوط الجوية القومية بين ريو وبلم عند مصب نهر الأمازون . وتواجه الخطوط الجوية القومية منافسة شديدة من عدة خطوط جوية أجنبية .

وستتوقف طائرتك فى فيتوريا العاصمة الصغيرة لولاية إسبيريتو سانتو للحصول على وقود ، وهذا الميناء هو حالياً المنفذ لمصانع الصلب العظيمة فى فولتا رودندا بولاية ريودى جانيرو ، وهى مدينة قديمة جميلة فيها دير محصن قديم بنى على جزيرة فى الخليج لحماية الميناء .

والآن فلنذهب إلى « بايا » أو باهيا ، كما كان اسم الولاية والمدينة يكتب قبل أن تبسط تهجية كلمات اللغة البرتغالية ، ويحبها أهل أمريكا الشمالية بسبب الجزء القديم البهيج فيها وبسبب سحر وخفة روح سكانها وميلهم إلى المرح ، ويحب البرازيليون باهيا لأنها مولد ثقافة بلادهم ، فقد كانت العاصمة القومية فى أكثر فترات تاريخها إثارة ، والواقع أن باهيا فى أيام الاستعمار البدائية كانت المدينة الوحيدة على ساحل الإطلنطى التى يعيش فيها العلماء والشعراء ، وكانت المنافس البرتغالى لليما الاسبانية الأنيقة فى أرض بيرو فى الجانب المقابل على ساحل المحيط الهادى .

وأثرى أهل باهيا من تجارة الرقيق ومن زراعة قصب السكر ، وكان أغلب تجار الرقيق البرتغاليين يجيئون بالزنوج من إفريقية إلى باهيا مما جعلها المركز الأول لهذه التجارة الرهيبة ، وسرعان ما أضيفت تجارة التبغ إلى تجارة الرقيق وقصب السكر ، فتدفقت الثروة على المستعمرين البرتغاليين الذين شيدوا الدور الكبيرة الجميلة فى مزارعهم الفسيحة ، كما بنوا القصور والمبانى الحكومية فى المدينة ، وفوق ذلك كله أقاموا الكنائس التى تشتهر بها المدينة .

واسم باهيا الكامل « سان سلفادور دى باهيا دى تودوس أوس سانتوس » أى « القديس المنقذ لخليج كل القديسين » وكانت المدينة مركز الديانة الكاثوليكية فى العالم البرتغالى الجديد ، كما أصبحت من تاريخ مبكر مدينة الكنائس . ويفخر أهل باهيا اليوم بأن فى بلدهم ٣٦٥ كنيسة ، أى كنيسة لكل يوم من أيام السنة ، وقد يكون الموجود فعلا نحو ربع هذا العدد ، ولكنه مع هذا يكفى لإقامة حفل festa كل يوم مما يبقى المدينة دائماً فى احتفالات مستمرة .

وتغطى واجهة إحدى كنائس باهيا الشهيرة بحجر مخرم منحوت ، ولكثير منها أبواب مزخرفة مع زينات وزخارف خارجية جميلة ، ولكن أغلبها بسيطة المظهر من الخارج ، إلا أن داخلها مزخرف فى كل مكان يتسع لتحفة محفورة أو لإطار صورة مرسومة ، وتغطى واجهات جدران المماشى والدهاليز وغرف الأشياء المقدسة والملابس الكهنوتية Sacristies بقرميد أزرق أو « آزوليجوس » نفيس فاخر بديع ، وقد استعمل البرتغاليون هذا القرميد لصنع الصور الكبيرة المجسمة التى تقدم قصص الكتاب المقدس والأساطير الكلاسيكية والتعبيرات الرمزية على مثال الرسوم المعبرة عن الحواس الخمس والفصول الأربعة ، ولا يكون هذا القرميد الأزرق دائماً باللون الأزرق ، بل إنه يجىء فى كل ألوان الباستيل اللازمة لرسم الأزهار المتعددة الألوان ، ولقد نقلت هذه الزخرفات الغالية الثمن بوساطة السفن من البرتغال ، وعادت السفن محملة بالسكر والتبغ ، وكثيراً ما كانت السفن تجىء محملة بأحجار البناء البرتغالية وبالرخام مما استخدم فى إقامة جدران الكنائس .

وبعض هذه الكنائس القديمة جميلة الرواء ، وخاصة من الداخل ، وفيها نقوش جميلة من الخشب مغلفة بقشرة من الذهب ، ولا تزال الأديرة الكبيرة المليئة بالأثاث المنقوشة بالزخارف تدير مدارس ومعاهد لتعليم شباب البرازيل ، وتعتبر باهيا حتى اليوم أفضـــل مركز للتعليم فى كل شمال البرازيل .

وتتسم المبانى العامة والمساكن الخاصة القديمة ببساطة مظهرها الخارجى ، ولكن من يدخلها يجدها متاحف حقيقية مليئة بكنوز من مخلفات عصر الاستعمار ، وتحف هذه الدور بالطرقات الضيقة المرصوفة بالأحجار ، ولا تبعد أكثر من خطوات عن الطرق الحديثة الواسعة المرصوفة بالأسفلت والتى تزدحم بالحوانيت الجميلة والفنادق والمقاهى .

وتزين الحدائق والأفنية الداخلية Patios فى كل مكان بالصور المصنوعة من القراميد والأحواض والنافورات المصنوعة من الرخام ، والأسقف فى الغالبية عالية جداً وتشق النوافذ على ارتفاع كبير عند حافات الأسقف وتكون عادة من الحديد المصبع ، كما ترسم على الجدران بعض المناظر الاستوائية ، وتصنع أرضيات الغرف من الخشب الصلب شرائط طولية أو فى رسوم من الباركيه ، وتدهن بالشمع حتى لتكون كالمرائى اللامعة ، ويصنع الأثاث من خشب « الجاكاراندا » الأسود الأملس كالقطيفة أو من غيره من الأخشاب الثمينة . والعادة أن يحفر خشب الأثاث إلى عمق كبير ويطعم بالعاج أو باللآلىء وبالرخام وبعظم السلحفاة ، وهذا طابع برازيلى خالص ، وتغطى بعض الأثاثات بجلد منقوش أو بأخشاب لامعة متعددة الألوان

فتكون كالفسيفساء ، وتغطى الأسرة القديمة ذات الأعمدة الأربعة بقطع من الجلد الجميلة الزخرفة ، وتستعمل للنوم بدلا من الحشايا (المراتب) .

هذه هى الكنوز التى خلفها الماضى ، وبالرغم من أننا نجد بعض هذه المخلفات فى كل المدن التى على الساحل ، إلا أن باهيا تفخر بأن فيها أثمن المجموعات التى بقيت كاملة لاعتزاز الأسر القديمة بماضيها . على أنه قد لا تتوافر الفرصة للأجانب لمشاهدة هذه الكنوز والإعجاب بها ؛ لأن الأسر القديمة المحافظة تعيش فى عزلة ولا تميل إلى الاختلاط بالغير .

ونمت باهيا بسرعة فى الأيام الأولى وذلك لموقعها الطبيعى الممتاز ، فلقد قامت على جزء من هذه الحافة الوعرة أو هذه الشرفة الجبلية التى رأيتها فى أكثر من مكان على ساحل الأطلنطى فى الجنوب ، وكان هذا الاختيار بسبب الخليج الرائع الذى يقع أسفلها والذى تصل مساحته إلى ثلاثين ميلا مربعاً . ومع أن المستوطنين الأوائل كانوا دائماً على أهبة الاستعداد فى مواجهة القراصنة وغيرهم من المغيرين ، إلا أن المدينة كانت آمنة والدفاع عنها سهلا ، وبخاصة بعد أن شيد سكانها اثنى عشر حصناً .

وتستطيع أن ترى عدداً من هذه الحصون عندما تدور بك الطائرة فى أثناء هبوطها ، وأجملها الحصن الذى يحمل اسم القديس مارسيللو ، وقد بنى فى السنة التى أنشئت فيها مدينة بوسطون فى الولايات المتحدة . ويقوم الحصن على صخرة فى وسط الميناء ، وهو حصن دائرى تماما ،

وكان فى وقت ما مسلحاً بعدد كبير من المدافع . وقد أصبحت باهيا بفضل هذا النطاق من التحصينات مدينة قوية آمنة ، كما يتضح لك عندما تتبين شكل المدينة . فهناك مدينة علوية على الهضبة تكثر بها أبراج الكنائس ، ومدينة سفلية على شواطىء الخليج الضيقة تضم « أرصفة » حديثة كثيرة الحركة ترسو السفن إلى جوانبها لتشحن بالبضائع . ويشتمل جو المدينة السفلية بروائح منتجات المنطقة المدارية من الفانيليا وحبوب الكاكاو والبن الأخضر وحبوب زيت الخروع والتبغ ، وأحياناً — لسوء الحظ — السمك المجفف واللحم المجفف . وتقوم سوق المدينة على مقربة من الميناء ؛ وهى سوق من أطرف أسواق البرازيل تكثر فيها الأكشاك المليئة بالمصنوعات اليدوية الوطنية وبكل المعروضات العجيبة للأغذية . ويطهون الطعام فى باهيا بطريقة خاصة وتشتهر المدينة فى كل أنحاء البرازيل بألوان معينة من الطعام تختص بصنعها المطاعم القريبة من السوق .

ونرى فى الصور القديمة للمدينة طرقاً ملتوية وعرة غير ممهدة كانت فى وقت ما تربط المدينة السفلية بالمدينة العلوية ، وكان الصعود عليها قاسياً بالنسبة إلى الرقيق المثقلين بالأحمال والبغال التى كانت تنقل البضائع من الميناء إلى حى الأعمال فى المدينة العلوية ، ولا تزال هذه الطرق القديمة المرصوفة بالأحجار تصعد إلى أعلى بانحدار شديد ، وتبدو المنازل وكأنها متعلقة بها . ولكن سكان باهيا فى الوقت الحاضر يتنقلون جيئة وذهابا بوساطة مصاعد كبيرة كافية تجرى فى أبراج من الأسمنت مرتفعة كناطحات السحاب ، ويزدحم الناس فى صفوف طويلة أمام هذه المصاعد وأمام

سلكين غليظين تسير عليهما العربات في ساعات بدء العمل وانتهائه ، كي ينتقلوا بين المصارف والمكاتب والمخازن والمستودعات الموجودة في المدينة السفلية وبين منازلهم في المدينة العلوية .

وتوجد في المدينة السفلية أيضاً المعاهد التي تمكن باهيا من اللحاق بالعالم ، وتجرى في معهد بحوث الكاكاو - الذي يزهى بطرازه المعماري الحديث - التجارب التي توضح كل مراحل زراعة الكاكاو وصنعه .

وكذلك يقوم معهد بحوث التبغ بدراسة مراحل زراعة التبغ ، ويتولى المعهد الدعاية لأنواع السيجار الفاخرة التي تصنع في باهيا والتي تنافس سيجار هافانا . ويوجد في باهيا أيضاً المعهد التجاري أو الغرفة التجارية ، ثم بورصة الحاصلات الزراعية والحيوانية .

ولكن هذا الجزء من المدينة ليس وقفاً على المتاجر الكبيرة ؛ ففي كل ركن تقريباً نجد متجراً صغيراً طريفاً تديره امرأة زنجية ، وهذه المتاجر الصغيرة « مجرد صواني » أو مناضد تطوى ومصابع للشي يضعها على جانب الطريق ، أو في أبواب الدور صباحا ، ثم يحملنها معهن إلى دورهن مساء ، وبضاعتهن أنواع شهية من الوجبات الصغيرة التي يتناولها الناس في كل ساعات النهار ، كما توجد عدة أنواع من الحلوى التي تصنع من السكر المغلي باللبن ، ثم حلوى لزجة يقال لها « كسكز » Cuscuz تصنع من لبن جوز الهند والسكر ، وجوز الهند المبشور مع دقيق التابيوكا .

أما المنصات الأخرى فتكاد تكون مطابخ صغيرة تطهى فيها « يخنة »

خاصة تحتوى على فلفل أحمر ، وتعطر بزيت الدندى الذى يؤخذ من بندق أحد أنواع النخيل ، وبأعشاب تشترى من محال العطارين فى السوق . وتجد إلى جانب ذلك صحناً من جوز الهند المبشور التى تشتركية منه على كل طبق يقدم للمشترى ليأكله فى نفس المكان ، وتبيع بعض النساء السمراوات فطائر ساخنة من جذور الكاسافا المبشورة التى تشوى على نار فحم الخشب ، وكل هذه من ألوان الطهى التى تشتهر بها باهيا والتى جاءت أصلا من إفريقية .

وتمتاز البائعات اللاتى يقفن على جوانب الطرق بأنهن يرتدين مآزر ذات ثنايا « تنورات مكشكشة » طويلة فضفاضة من القطن فى ألوان زاهية تغطيها رسوم الأزهار مع صديريات رقيقة من القماش المخرم الأبيض (الدنتلة) الذى يكشف عما تحته ، ويضعن فى أقدامهن خفافاً مزخرفة بكعوب فرنسية وتغطى رؤوسهن عمامات أو مناديل ، وهذا نمط جاء أصلا من إفريقية ولا تزال النساء يرتدينه فى أرض السودان[1] . وكن يتحلين بالحلى الذهبية عندما كن من الرقيق المفضل لدى الأسر الثرية فى باهيا . أما اليوم فإنهن يتحلين بقلائد وأساور ومشابك وحلقان من الخرز على مثال ماتفعل كارمن ميراندا عندما تمثل شخصياتهن . ولكن

---

(١) تقصد المؤلفة بكلمتى (أرض السودان) غرب إفريقية على مثال ما أطلق الجغرافيون العرب هذه التسمية على المنطقة التى تساحل خليـــج غانة لجنوب حافات الصحراء . (المترجم) .

أغرب مافى ثيابهن هذه الملفحة (التلفيحة) المطوية التى تضعها كل منهن فوق كتفها الأيسر للعرض لا للتدفئة فى هذا الجو الحار . ويبدو أن هذه هى كل مابقى من الغطاء الكبير للرأس والوجه على غرار ماكانت تفعل المسلمات فى إفريقية اللاتى لم يكن يسمح لهن بالكشف عن وجوههن علانية .

ولا شك أن هذه الثياب توضح من أين جاءت هذه الزنجية الباهية بالإضافة إلى ماتبديه من الزهو والتفاخر بأسلافها ، ولقد كان لأسر باهيا دائماً الانتقاء الأول من العبيد الذين ينقلون إلى سواحل باهيا ، وكان « الباهيان » — كما يطلق سكان باهيا على أنفسهم — فخورين يدفعون أثماناً مرتفعة للرقيق الذين يجلبون من الشعوب الإفريقية ذات الثقافة العالية ، بل كان تجار الرقيق يتلقون الطلبات مقدما لتوريد إفريقيين من صفوة الطبقات سواء تم ذلك بالشراء أو السرقة ، وكذلك لتوريد نساء من أسر راقية مهذبة كى يقمن بأعمال التدبير المنزلى ومرافقة السيدات ، وكانت « مى بريتا » الأم السوداء — التى تعادل « مامى »[٢] فى الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية — تلقى ماتستحقه من التقدير ، وكان أطفالها يتلقون العلم مع أولاد السادة ، وكثيراً ماكن يتزوجن من

---

(١) « مامى » Mammy السيدة الزنجية التى كانت ترعى الأطفال البيض فى الأسر الأمريكية القديمة فى الولايات الجنوبية . (معجم ويبستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ٨٨٩) .

أفراد من أسرة السادة . ولما كان الكثير من هؤلاء قد اختلطوا بدماء هندية من قبل ، فإن سلالات سكان باهيا تحمل مزيجاً من دماء مختلفة منذ وقت بعيد . وقد أثبت هؤلاء أنهم ليسوا أقل من غيرهم كفاية، فخرج من بينهم جماعة من خيرة العلماء والسياسيين والمهنيين فى البرازيل . وكانت باهيا بوتقة الانصهار لكل هؤلاء الناس معاً . ولهـــذا تلقى فى طرقات باهيا أناساً من كل لون. غير أن اللون السائد أكثر سمرة من الناس الذين تلقاهم فى ريو دى جانيرو .

كانت باهيا المدينة الرئيسية فى البرازيل فيما مضى . وحتى عندما حلت ريو دى جانيرو محلها كعاصمة للبلاد ظلت باهيا مدينة هامة ، إلا أنها لم تستطع اللحاق بميناس جيرايس وسان باولو وريو دى جانيرو عندما أثرت ثلاثتها من زراعة البن . ومع ذلك فإن وسائل الفلاحة فى هذه الولاية الغنية قد جعلت معدل ثرائها مرتفعاً ؛ إذ بالإضافة إلى ماتنتجه من التبغ والقطن وقصب السكر والخنازير والماشية ، نجدها تنتج أفضل أنواع الموالح فى العالم، كما أنها تحتفظ برقم قياسى عالمى بإنتاجها ٨٧ نوعاً من الفاصوليا واللوبيا . وتشمل صادراتها سلعاً غريبة : مثل ألياف النخيل لعمل المقشات وغير ذلك من الصناعات ، ومثل زيت الخروع والشمع الكرنوبى من النخيل الذى يحمل ذات الاسم ، كما تصدر الملح والألماس الأسود ، وليس هذا الألماس هو الألماس الذى يستعمل فى الحلى ، بل هو ألماس من نوع تجارى خاص يستخدم فى أطراف آلات التثقيب والتخريم والحفر . وفى باهيا ثروة كبيرة من خامات الحديد

والمنجنيز ، كما أن بها بعضاً من أغنى حقول البترول فى البرازيل ، ولهذا استمرت باهيا تحتل مركزاً هاماً فى اقتصاديات البرازيل .

ولا تصدر كل منتجات باهيا الوفيرة عن طريق خليج كل القديسين ، إذ من حسن حظ هذه الولاية أن بها نهراً مفيـــداً — هو نهر سان فرنسيسكو — يذكرنا بنهر الأمازون ، وهو نهر عجيب من عدة وجوه . فهو أحد الأنهار العظيمة القليلة فى العالم التى تجرى فى اتجاه الشمال ، ولهذا السبب يقال له نيل البرازيل ، وعلى مثال نهر النيل يفيض النهر سنوياً فى الفصل المطير ، فإذا جاء الفيضان طغت المياه على كلا جانبى النهر حتى يكون حوضه أشبه ببحيرة فسيحة ، ثم يخلف الماء وراءه عندما يهبط منسوب الفيضان طمياً غرينياً يغطى كل الأرض ، ولهذا بقيت حقول باهيا وفيرة الخصب كحقول حوض النيـــل برغم استخدامها فى الزراعة على مدى قرون كثيرة .

وينبع نهر سان فرنسيسكو من وسط ولاية ميناس جيرايس ، ويصبح طريقاً مائياً هاماً بعد أن يصل إلى ميناء « بيرابورا » النهرى الذى يتصل بمناطق التعدين الغنية بخط حديدى قصير وبطريق مرصوف للسيارات ، ومن عنده يسير النهر فى ولاية باهيا موازياً لساحل المحيط الأطلنطى . ولهذا النهر العظيم نفع آخر ؛ ذلك أنه يحمل إنتاج الحقول ومزارع تربية الماشية إلى الأسواق فى المناطق التى لا توجد بها طرق ولا خطوط حديدية ، وفى النهاية يرسم النهر خط الحدود بين ولايتى

باهيا وبرنمبوكو ، ثم يدور النهر فى انحناء فجائى متجهاً للجنوب الشرقى حتى يصب فى المحيط الأطلنطى مكوناً خط الحدود بين الولايتين الصغيرتين « ألاجوواس » و « سرجيبه » ، وتنتهى صلاحية النهر للملاحة فجأة عندما يصل ركن ولاية ألاجوواس بسبب وجود مساقط باولو آفونسو العظيمة ، والتى هى نياجرا أخرى مثلها مثل مساقط أجواسو ، وفى هذه المساقط منحدرات كثيرة سريعة يمكن أن تنتج قوى مائية تكفى لإدارة كل صناعات أمريكا الجنوبية ، ويندفع النهر عند قمة المساقط عبر هوات وجروف من الجرانيت فينحت خوانق عميقـــة تهبط به ٢٥٠ قدما . وللمساقط جمالها الذى سيجتذب يوما ما السياح زرافات ووحدانا لمشاهدتها ، ويسير النهر فيما وراء المساقط متباطئاً لمائتى ميل أخرى حتى يصل إلى المحيط الأطلنطى ، وبذلك يكون طوله أكثر من ١٨٠٠ ميل .

وتتعذر الملاحة فى بعض أجزاء نهر سان فرنسيسكو بالنسبة للسفن الكبيرة بسبب المنحدرات السريعة والحواجز الرملية ، ومن ثم تستخدم قوارب شراعية من طراز خاص لنقل المتاجر إلى منطقة المساقط ، ويحمل كل من هذه القوارب مايصل إلى خمسين طناً . ويمكن لاثنى عشر رجلا أن يدفعوا القارب عندما تسكن الرياح أو أن يخرجوه عندما يجنح فى الحواجز الرملية . وتقطع الرحلة جيئة وذهاباً فى شهرين كاملين ، يعيش الرجال طوالها فى قاربهم ويناموت تحت ظلة من سعف النخيل . وفى الأوقات التى لايقومون فيها بدفع قاربهم أو سحبه بحبل ، نجدهم يربطونه

إلى شجرة ويقضون فترة مرحة يتبادلون فيها رواية القصص وينشدون أغانى عن النهر ذاته .

وتروى بعض هذه القصص عن وحوش جبارة تعيش فى الماء ، لم يقع عليها نظر أحد ، ومن بينها دودة عظيمة الحجم تشبه ثعبان البحر، وتعيش فى الأنهار التى تجرى تحت سطح الأرض والتى تكثر فى هذه المنطقة ، وتروى القصص أن هذه الدودة تخرج ليلا لتسقط القناطر والجسور « الكبارى » وتشق حفراً واسعة تسقط فيها القوارب ، ووحش آخر هو الكومبادرى « رفيق البحّار » وهو وحش فى صورة الإنسان إلا أنه إذا فتح فمه رأيت أنه سمكة ، ويختفى «رفيق البحّار »حول الموانى ، وأحواض السفن ليقوم بكل أنواع الأذى التى يمكن أن تخطر له ، وكل هذه الوحوش الجبارة تبقى دائماً فى انتظار الملاحين للقضاء عليهم ، ولهذا يوضع فى مقدمة كل قارب تمثال محفور من الخشب لحماية الملاحين ، ويجمع التمثال بين صورة الإنسان وصورة التنين وله عينان كبيرتان تبصران كل شىء وتظلان مفتوحتين عندما ينام الملاحون .

وبالرغم من وجود نهيرات تربط وادى نهر سان فرنسيسكو بحوض الأمازون فإن الاتصال الفعلى بينهما قليل. فنهر سان فرنسيسكو يحيا حياته الخاصة ، ولسكانه عاداتهم وأساطيرهم وأغانيهم وأعيادهم الخاصة بهم . وللنهر نفسه تاريخ عنيف — لا يزال يمتد إلى يومنا هذا . فطالما اشتبك المستكشفون فى حروب مع الهنود ، وكثيراً ما كان كبار اللصوص يسطون على مزارع تربية الماشية التى كانت تبدو كالحصون — يقطعها

الفارس فى أسبوع ، ويكون رعاة البقر فيها جيشاً صغيراً ، ويرتدى هؤلاء الرعاة ملابس صنعت جميعها من الجلد — من القبعات إلى الصنادل ، وكثيراً ما كان المسافرون الذين يحملون ثروة كبيرة من الذهب من ميناس يتعرضون لسطو قراصنة على النهر أو يفقدونها فى لعب القمار .

إن معظم هذه الحوادث تعتبر فى عداد الأساطير فى الوقت الحاضر . ولكنها تضفى على ولاية باهيا جواً من أجواء قصص المغامرات السينمائية .



٩
الشمال الشرقى

يقطع مصب نهر سان فرنسيسكو أواسط ولاية باهيا وشقيقتها الصغيرة سرجيبه عن الانبعاج الشمالى الشرقى فى البرازيل . ويختلف كل شىء يقع إلى الشمال من مصب النهر عما فى جنوبه ، فسرجيبه أصغر ولايات البرازيل هى آخر المناطق شبه المدارية ، ومتى عبر الإنسان النهر وجد نفسه فى أقاليم استوائية مرة أخرى . وتشمل هذه الأقاليم فى الانبعاج المذكور الولايات الصغيرة « ألاجوواس » Alagoas ، و « برنمبوكو » Pernambuco ، و « باريبا » Paraiba ، و « ريو جراند دونورت » Rio Grande du Norte ، ثم الولايتين الكبيرتين نوعا « سيارا » Ceara ، و « بياوى » Piaui .

ولقد ألفت من قبل رؤية الأرض العالية ترتفع وكأنها تبرز من حافة البحر مباشرة تاركة شريطاً ضيقاً من الأرض المنخفضة ، ولكن الساحل يتغير هنا فجأة ، إذ توجد سلسلة من شعب المرجان على مقربة من الشاطىء تحول دون اقتراب السفن حيث لا توجد موانىء من صنع الإنسان . وتندفع تيارات المد والجزر فوق هذه الحواجز فتحدث أمواجاً طويلة خطرة . ولكن قمم الأمواج البيضاء ، ونخيل جوز الهند الذى يحف بالرمال البيضاء ، يعطى هذا الجزء الشمالى الشرقى من البرازيل منظراً ينفرد به عن بقية الأجزاء .

وتعترف هذه المجموعة من الولايات بالزعامة لولاية برنمبوكو، فهى لم تكن أول مستعمرة ناجحة فحسب ، بل إنها أيضاً أم زراعة قصب السكر فى العالم الجديد ، إذ جىء إليها بأشجار القصب الأولى من جزيرة ماديرا سنة ١٥٣٣ ، وانتشرت زراعة القصب على طول الساحل حتى ريو دى جانيرو ، فكانت المنطقة كلها كفلا واحدا ممتدا . ولم تنزل برنمبوكو عن زعامتها فى إنتاج السكر قط ، بل ولا تزال تحتفظ بهذه الزعامة حتى اليوم .

ومدينة «رسيفه» أوريف ـ التى كانت تحمل اسم برنمبوكو سابقاً ـ هى العاصمة الرسمية للولاية فضلا عن أنها أهم ميناء على هذا الساحل، ثم هى ثالثة مدن البرازيل سكاناً ، وتتوقف عند الميناء كل السفن الأجنبية قبل أن تدور حول الانبعاج الكبير لتتجه فى طريقها إلى أوربا أو إلى أمريكا الشمالية .

وبنيت رسيفه على جزر وأشباه جزر هى جزء من مجموعة الشعب المرجانية التى أعطت الميناء اسمها ، وتقطع القنوات ومجارى المياه المتصلة بالبحر ـ تقطع فى جريانها قلب المدينة ، ولهذا يقال لها عادة « فينيسيا البرازيل » . وينتقل الناس من حى إلى آخر بوساطة الجسور « الكبارى ».

و « رسيفه » هى المدينة البرازيلية الكبيرة الوحيدة التى ليس فيها جبال أو تلال . بل بدلا من هذا توجد فيها أرض مستنقعات منخفضة تغطى بالمياه فى أثناء المد العالى . وفى هذه المستنقعات مجموعة من أسوأ المنازل فى العالم يسكنها المدقعون المعدمون، وتعيش الأسرات فى أكواخ وعشش متنقلة مقامة على أعمدة خشبية ، ويعتبرون أن الحظ قد حالفهم عندما يجدون ممراً مرتفعاً وسط الوحل يؤدى إلى أبواب دورهم ، ويخوض

الأطفال فى أثناء المد العـــالى وسط أفنية دورهم المغطاة بالمياه ليمسكوا « الكابوريا » التى تكون جزءاً هاماً من غذائهم .

ويسر الأجانب دائماً بمشاهد برنمبوكو ، فإن جسورها « كباريها » وقنواتها وحدائقها وحى الأعمال الحديث بها وكنائسها القديمة وضواحيها اللطيفة الجو كلها ساحرة ، ولكنهم سرعان ما يشعرون بالأسى عندما يرون هذه الأكواخ والعشش التى يعيش فيها المدقعون الفقراء .

ولقد بدأ أهل برنمبوكو أخيراً بعد أن تفتحت أعينهم فى ردم هذه المناطق وصرف مياهها لإزالة هذه الصورة السيئة عن مدينتهم ، ولقد نفذ برنامج جديد للإسكان ببناء دور صغيرة صحية مكان هذه الأكواخ والعشش . وستحس بالفرق الكبير بينها وبين باهيا التى جئت منها مباشرة ، ولكن المدينتين مع هذا برازيليتا الطابع أكثر من العاصمة وأكثر من كل المدن التى فى الجنوب . فباهيا مدينة تقوم على تل، ولها ميناء طبيعى برازيلى الطابع ، وعدة جزر مدارية جميلة ، أما « رسيفه » فهى مدينة تقطعها طرق مائية وبها عدة جزر أيضاً ، ولكن ميناءها قد شق داخل الشعب المرجانية بفعل الإنسان .

وتجىء السفن الشراعية الصغيرة والقوارب ذات المحركات إلى « باهيا » بالفاكهة وبالحاصلات المحلية ، وتتجمع حول « الأرصفة » المخصصة لها . أما فى برنمبوكو فإن نفس هذه السفن تكون جزءاً من المنظر العام للمدينة ، إذ تطفو أشرعتها الزاهية البهية وهياكلها الملونة فوق

مياه القنوات فى الحى التجارى بالمدينة حاملة ثمار المانجو والأناناس التى تشتهر بهما برنمبوكو ، وتفرغ السفن شحناتها فى كل مكان تقريباً . ويضيف ملاحو هذه السفن ذوو الملامح السمراء لونا جديداً للجماهير التى تملأ طرقات المدينة .

ونرى روامث الصيادين « الجنجاداس » وهى راسية فى هدوء فى أى مجرى مائى ضيق وسط المدينة وقد غط الملاحون فى نومهم بعد أن واجهوا الخطر لأيام وليال فى عرض البحر على مسافة بعيدة من الساحل ، وتستعمل هذه الروامث فى الجزء الشمالى من البرازيل فقط . فالساحل هنا غدار مخادع ، ثم إن الأمواج التى تتكسر على الساحل عالية فلا تستطيع القوارب العادية أن تصل إلى البر . وتصنع الروامث البحرية بأن تربط معاً ست كتل من خشب « البلسا » الخفيف كالفلين ، وتكشط أطرافها من أسفل ليسهل سحبها فوق الشاطىء الرملى . وللقارب صار واحد مثبت فى إطار من الخشب ، يخفض هو وشراعه عندما لا يستعمل . وتوضع فى مؤخرة الرامث دكة يجلس عليها الصيادون ، الذين يلفون سراويلهم إلى ركبهم حتى لا تبتل بمياه الأمواج التى تندفع فوق عوامتهم ، وتوجد فى منتصف المسافة بين الدكة وبين الصارى تصابية من الخشب لها سن لتمسك بقاعدة الشراع ، وتعلق فيها السلال التى يحفظ فيها السمك الذى يصطادونه كما تعلق قدور المياه العذبة وسلال الطعام الذى يكفيهم لعدة أيام ، كما تربط فيها أيضاً الشباك وأدوات الصيد .

وتستطيع أن ترقب هذه الروامث ن السفن الكبيرة عابرات المحيط فتظنها حطام سفن غارقة على بعد منك . ويرى ركاب السفن الكبيرة ليلا المصابيح المهتزة المعلقة فى هذه الروامث ، إذ يعمل الصيادون ليل نهار ، فلا سبيل إلى النوم ولا إلى الراحة وهم على ظهرها . وتتبع أسماك القرش هذه الروامث باستمرار ، آملة أن يسقط أحد الملاحين فى البحر — كما يحدث أحياناً — فتلتهمه . وملاحو « الجنجاداس » أكثر من يعملون فى البحر جرأة واستهانة بالأخطار ، ولكنهم يبدون رقيقى الحاشية عندما ينامون على الشاطىء فى الشمس ، بينا يحاول أحدهم المساومة للحصول على أفضل سعر لأسماكهم فى سوق برنمبوكو . ثم يذهبون بعد ذلك إلى دورهم الزاهية الألوان تحت أشجار النخيل ليغفوا تحت السقوف المجدولة من القش والغاب . ويحتمل أن يقضوا الليل كله يرقصون « الكوكو » ليستمتعوا بالحياة قبل أن يخرجوا إلى البحر ثانية .

ولا يكاد المرء يجد أى دليل فى ميناء رسيفه الحالى يشير إلى أن الهولنديين هم الذين أنشأوا المدينة ، ففى أثناء الكفاح المرير الذى خاضته هولندة لتحصل على موطىء قدم فى البرازيل كان هذا هو الجزء الوحيد من البلاد الذى حققت فيه نجاحاً نسبياً . وكانت مستعمرة البرتغاليين الأصلية فى هذا الجزء هى « أولندا » Olinda التى ازدهرت طيلة مائة عام حتى جاء الأسطول الهولندى وأحرقها عام ١٦٣٧ .

وكانت أولندا قد شيدت على جرف عال من الأرض على مثال المواقع

التى اختارها البرتغاليون لكل مدنهم ، ولربما كانت الكنائس القديمة والدور الحديثة والشواطىء التاريخية لأولندا القديمة هى أول ما تراه وأنت تقترب من رسيفه ، ذلك لأنها لا تزال أكبر ضواحيها . ولكنها كانت لا تقل حجما أو جمالا عندما بدىء فى إقامة « رسيفه » على الشاطىء المنخفض بمجموعة من أكواخ الصيادين .

وعندما وصل موريس — كونت ناساو — ليتقلد منصب الحاكم الهولندى كان أكثر إعجاباً بالجزيرة وشبه الجزيرة المنخفضة ؛ ذلك لأنها كانت تذكره بهولندة ، ومن ثم بعث إلى وطنه ليعدوا له تخطيطاً لعاصمة عظيمة يقيمها أسفل أولندا . وفى أثناء حكمه الذى استمر عشر سنوات كان قد شيد مدينة ذات طابع هولندى أصيل. وأخيراً استطاع المستوطنون البرتغاليون بمعاونة السفن البرتغالية المسلحة أن يطردوا الهولنديين من البلاد . ونتيجة لهذا تحول الطابع الهولندى للمدينة إلى طابع برتغالى فيما عدا القليل من المخازن والمستودعات القديمة .

ولم تلبث « رسيفه » أن تفوقت على أولندا التى أعيد بناؤها لتصبح ضاحية سكنية لأصحاب المزارع الكبيرة . ولما حققت رسيفه ثراء من تصدير السكر فى بادىء الأمر — ثم القطن والتبغ بعد ذلك — بدأ أهلها فى بناء الكنائس والقصور والحدائق العامة التى تنافس مثيلاتها فى باهيا . ولكن لا يزال الكثير من قلاع الهولنديين القديمة قائماً يزوره السياح مما يذكر سكان برنمبوكو بالهولنديين . وتفخر بعض الأسر العريقة فى برنمبوكو

بأصلها الهولندى . فبعد كل غزوة تعرضت لها البلاد كان بعض الأجانب يفتنون بهذه الأراضى الجديدة ويقيمون فيها ويصبحون مواطنين برازيليين . على أن هذه الروح التى مكنت أهل برنمبوكو من إخراج الهولنديين من أراضيهم جعلتهم ثائرين متمردين . فعندما حرم البرتغاليون طبع الكتب أخفيت آلات الطباعة فى أدوار الكنائس الواقعة تحت الأرض لإعطاء الأهلين ما يحتاجون إليه من العلم . وتوافقت حركة برنمبوكو الاستقلال بالحركة التى قامت فى ميناس جيرايس ، ولكن برنمبوكو استطاعت — لأنها أكثر بعداً — أن تنفصل عن المملكة البرتغالية التى كان يرأسها دون جوان السادس فى ريو . وهكذا أعلنت برنمبوكو الجمهورية وأجريت الانتخابات ، ولكن عندما استولى الجنود البرتغاليون على المدينة شنقوا موظفى الجمهورية كما شنقوا الزعماء الآخرين ، وكان على رأس هؤلاء الشهداء الراهب الكاثوليكى «فرى كانيكا» «تيرادنتيس الشمال» ولقد تجددت ثانية شجاعة أهل برنمبوكو فى الصراع ضد الديكتاتورية والفاشية . وكان أهل رسيفه فى طليعة الذين نظموا المقاومة وجاهروا بها ، وسرعان ما انتشرت هذه الروح فى البلاد وأنهت خمس عشرة سنة من الاضطهاد .

* * *

ومع أنه يوجد اثنا عشر طريقاً للذهاب من رسيفه إلى ناتال، فإنك ستفضل الذهاب إليها بالطائرة، ذلك لأن ناتال التى يعنى اسمها «عيد الميلاد» كانت فى أثناء الحرب العالمية الثانية من أعظم مراكز الطرق الجوية فى العالم.

ولقد كانت هى النقطة التى اختارها النازيون كهدف لإحدى خططهم للغزو بطريق الجو ، فهى على مسافة ١٦٠٠ ميل من إفريقية . ولكن حلم هتلر تبدد عندما أعلنت البرازيل الحرب على المحور ، ومولت الولايات المتحدة مشروعات إنشاء المطارات العظيمة التى أصبحت نقطة انطلاق لجنود الولايات المتحدة فى طريقهم إلى إفريقية وإيطاليا، وكان مطار ناتال مطاراً رئيسياً فى استراتيجية الحرب .

وقد أنشئت ناتال عاصمة ولاية ريو جراندە دو نورث يوم عيد الميلاد سنة ١٥٩٩ ، ولكنها ظلت مدينة قديمة خاملة حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ، ولا تزال مبانيها التى أنشئت أيام الاستعمار أكثر من المبانى الحديثة ، وكان أهلوها يعيشون حياتهم بالبطء الذى تتميز به الأقاليم المدارية . ثم أيقظتها الحرب من غفوتها فجأة، وتقاطر إليها آلاف العمال، وجاء الفنيون الأمريكان والبرازيليون مع مساعديهم . ولم يمر وقت طويل حتى عجت المدينة بالمهندسين العسكريين، ومحطات الإشارة اللاسلكية، وثكنات الجنود ، مع مطار فسيح يعمل باستمرار، وغطت السماء الطائرات البرية ، وجاءت جحافل من الطائرات البحرية لتجثم فى أحراش أشجار جوز الهند التى تنمو عند حافة البحر مباشرة .

وتقوم فيما وراء ناتال السلسلة الجبلية الوحيدة على هذا الساحل ، وتقع بين البحر وبين الجبال المزارع المدارية المعتادة التى خصصت لرعى الماشية ولزراعة قصب السكر والقطن والرز .

ومن الضرورى أن ندور بعد أن نترك ناتال نحو الشمال الغربى لنتتبع الساحل البرازيلى ؛ لأن ناتال هى أقصى نقطة نحو الشرق فى العالم الجديد . ونلتقى عند طرف هذه الولاية أحجية من أغرب أحجيات جغرافية البرازيل ، فإلى الداخل من الجانب العلوى للانبعاج تقع منطقة من الأرض الجافة تبدو على الخريطة كجيب يتدلى من الساحل بين ناتال وبين فورتاليزا عاصمة ولاية « سيارا » ، هذه الأرض هى صحراء أمريكا الجنوبية . ولكنها ليست معدومة المطر تماماً بل تسقط عليها عادة أمطار كافية للإبقاء على الزراعة وتربية الماشية ، إلا أنه فجأة تجىء « السيكا Seca » ، أى « دورة الجفاف » التى قد تستمر لسنتين لا تسقط طوالهما قطرة واحدة من الماء ، فيجف كل شىء وتنفق الماشية ، ويرحل عن الأرض كل من استطاع الرحيل . أما الذين يبقون فإنهم يموتون جوعا .

ومع أن مساحة هذا « الجيب » الجاف صغيرة بمقارنتها بمساحة البرازيل ، إلا أن الصحراء فى الواقع تحتل جزءاً كبيراً من ولايتى سيارا وريو جراند دونورت ، بل وتمتد جنوباً فى الأجزاء الغربية فى ولايتى « بارييا » و « برنمبوكو » ثم تجرى فى وسط باهيا ، حيث تزداد سعتها فيما وراء نهر سان فرنسيسكو ، وتتعرض المناطق التى تحف بهذا الجيب إلى الجفاف أيضاً مما يبعث القلق فى نفوس سكانها ، وإن كانوا لا يواجهون النوائب والنكبات التى يواجهها أولئك الذين يعيشون فى « الجيب الجاف » .

ولقد اقترحت — بل ونفذت — عدة مشروعات لبناء سدود

وبحيرات لتخزين المياه . وأصيب الامبراطور دون بيدرو الثانى وزوجته بصدمة شديدة عندما حدث أول جفاف كبير حتى إنهما تبرعا بالجوهرات الملكية لإنشاء صندوق لشراء أطعمة للاجئين . ومنذ ذلك التاريخ استقر الضحايا البائسون الفارون من دورهم فى سنى الجفاف فى كل أنحاء البرازيل وخاصة فى أقاليم الامازون .

وقد نتج عن اطراد ندرة المطر أن اتخذت الطبيعة مظهراً غريباً لا يختلف كثيراً عما نشاهده فى أراضى المسكيت Mesquite فى جنوب غربى أمريكا الشمالية ؛ فهى أراض ذات حشائش مبعثرة تتناثر فيها شجيرات ملتوية تنفض أوراقها فى فصول الجفاف . وتبدو جذوعها وفروعها العارية كهياكل عظمية لا كنباتات . وعندما تسقط جميع أوراقها تخرج منها براعم مدببة بألوان بيضاء وصفراء سرعان ما يغطيها التراب . وتجوب الماشية مساحات واسعة بحثاً عن العشب ، ولكنها تسمن عندما تدب الحياة فى الأرض فى أعقاب عاصفة مطيرة ، وإن كانت تلك العواصف نادرة الحدوث .

ولسكان الأرض الداخلية فى الشمال الغربى التى يطلق عليها «السرتان» طابعهم الغريب . فقد أنبتت الأرض الخشنة جماعة الـ « فاكويرو » أو رعاة البقر الذين يستطيعون تحمل أقسى الظروف . وبشرتهم سمراء فى لون الجلد ، وكل ثيابهم ومعداتهم من جلد الماعز أو جلد البقر ، وترتدى خيولهم أيضاً دروعاً من الجلد تحميهم من الأعشاب الشوكية القصيرة عندما يطاردون الأبقار . وأكثر من نصف دماء هؤلاء الرعاة دماء هندية ،

ولهذا فإن شعرهم أسود فاحم منسدل . وهم أذكياء واسعو الحيلة ، يبدون فى حياتهم العادية حالمين كسالى إلى أن يحدث ما يثيرهم فتسارع أيديهم إلى خناجرهم أو إلى « تتك » بنادقهم ، وقد أخرجت أرض السرتان مقاتلين مدهشين أسهموا فى القتال من أجل حرية البرازيل ، كما أخرجت قطاع طرق ، وملاكا كباراً ، يتسمون بالاستبداد والطغيان ، يملك بعضهم مزارع تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة ، وقد تشمل مدناً بأكملها يتصرف فيها المالك كما يشاء . وكثيراً ما كان هؤلاء الملاك يشتبكون فى القتال بعضهم مع بعض ، إما بسبب الماشية ، وإما لخلافات خاصة ، وكان جيش كل منهم يتكون من كل الرجال الذين يعيشون فى الأرض التى يملكها .

وسيدهشك — مع ما تعرفه عن طبيعة الأرض والحياة فى داخل ولاية « سيارا » — أن تجد فورتاليزا عاصمة الولاية مدينة حديثة تماماً ؛ إذ بها — رغم صغرها — ناطحات سحاب وفندق حديث وحوانيت تماثل تلك التى فى ريو دى جانيرو ، وخلقت وسائل الرى الحدائق والميادين العامة التى تبدو فى إزهارها كالواحة .

وستفضل أن تنتقل بالطائرة من ناتال إلى فورتاليز ؛ لأن الذين يذهبون بطريق البحر يواجهون وقتاً عصيباً عند النزول على الشاطىء ، لعدم وجود ميناء ، فتلقى السفن مراسيها على مسافة ميل من الشاطىء ويقفز الركاب من معبر السفينة إلى « اللنش » الذى يقف إلى جوارها مرتجا فى الموج العالى . ويحمل الملاحون النساء والأطفال وينزلونهم إلى اللنش فى أمان ، ولكن لا يقارن هذا بالصعاب التى يواجهونها عند الصعود من

هذه اللنشات المترجرجة فوق الدرجات الزلقة عندما تصل اللنشات إلى الدعامات الحديدية لفورتاليزا ، فكثير من الركاب تتلقفهم الأمواج العالية قبل أن يستطيعوا تفاديها ، ومن ثم فإنهم يصلون إلى المدينة وقد ابتلوا بالمياه إلى ركبهم .

وكانت معظم عمليات النزول إلى الشاطىء فيما مضى تتم على هذه الصورة بطول الساحل الذى تقطعه الشعب المرجانية . ويروى المسافرون القدامى مغامرات نزولهم فى برنمبوكو قبل تعميق مينائها فكان الإجراء العادى أن يخطو الراكب من السفينة إلى قفص مدلى إلى جانبها يشبه السلة ، وعندما يمتلىء القفص بالركاب يهبط بسرعة مخيفة إلى « صندل » ينتظره ، وهناك يفتح لإخراج الركاب الذين استولى عليهم الذعر . وعندما يتم نقل جميع الركاب بهذه الوسيلة يشق الصندل طريقه فى خضم البحر حتى يدخل إحدى القنوات الهادئة فى المدينة .

وتنتج ولاية سيارا حالياً ألواناً مختلفة من الإنتاج الزراعى والحيوانى . على أنها ستزدهر يوماً ما بدرجة أكبر نتيجة لتنظيم وسائل الرى ، ولعل القطن الطويل التيلة هو أحسن ما تنتجه حالياً . وقد قامت عليه صناعتان غير عاديتين من الصناعات المنزلية : صناعة الدنتلة المخرمة التى تصنع يدوياً وتباع منتجاتها فى كل أنحاء البرازيل ، ثم صناعة الأرجوحات الشبكية التى تستخدم للنوم فى كل شمال البرازيل .

ولم يترك صراع الفرنسيين للحصول على موطىء قدم فى البرازيل طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر أى أثر يذكر على طول الساحل، فيما عدا مدينة سان لويس ، إذ أنشأ القرصان الفرنسيون فى سنة ١٦١٢ مستوطنة لهم اتخذوا منها مركزاً لغاراتهم ، وأطلقوا عليها اسم سان لويس نسبة إلى لويس الثالث عشر، وقد اختاروا موقعها على جزيرة بين خليجين يمكن أن تحمى ، بل وأن تخفى سفنهم عن السفن التى تمخر عباب البحر المكشوف ، وبنوا مدينة فرنسية الطابع حتماً ، ولكن لم يلبث البرتغاليون أن استولوا عليها وحولوها إلى ميناء برتغالى .

ولقد استطاعت سان لويس أن تحتفظ بشخصية تختلف تماماً عن باقى المدن البرازيلية الأخرى للطابع الفرنسى الذى بدأت به ، ويفخر سكانها بهذه الميزة كما يفخرون بلغتهم وثقافاتهم البرتغالية . وكانت ولاية « مارانياون » مسقط رأس الكثيرين من الرجال الموهوبين من الشعراء والكتاب والسياسيين الذين تعلموا فى مدارس سان لويس .

وفى هذه العاصمة القديمة أيضاً أكبر كاتدرائية فى البرازيل وواحدة من أقدمها ، كما أن فيها الكثير من المبانى الجميلة من عصر الاستعمار . وتتجاور فيها الطرقات القديمة الضيقة والشوارع الحديثة مع الحدائق الفسيحة التى تجتذب زوار المدينة .

وكانت ثروة هذه الولاية قديماً تستمد من استيراد الرقيق لبيعه فى شمال البرازيل ، ومن حاصلات المزارع المدارية ، ولكن أهم صناعة

فى الوقت الحاضر هى جمع وتصنيع بندق نخيل البابابسو . وينمو هذا النخيل نموا بريا فى مساحات كبيرة من مارانياون وولاية بياوى المجاورة لها . ويستخدم الزيت الذى يستخرج من هذا البندق للطعام وصنع الصابون ولتزييت الآلات ثم للوقود .

ولقد تكونت فى البرتغال فور استيلاء البرتغاليين على سان لويس شركة بارا ومارانياون التجارية على غرار شركة الهند الشرقية الهولندية التى جعلت هولندة وافرة الثروة . وسرعان ما أصبحت الشركة البرتغالية بتعضيد الملك ورجال البلاط قوية تملك السفن والجنود ، ولم يعد للمستعمرين فى بارا ومارانياون حول ولا طول ، إذ كانت منتجاتهم تنقل إلى البرتغال بالأسعار التى تحددها الشركة ، كما كانت وارداتهم من السلع التى يحتاجون إليها من أوربا احتكارا لنفس الشركة ، وثار زراع مارانياون فجاءت القوات البرتغالية للقضاء على الثورة ، وتغلب الجند على المستعمرين وجيشهم من الرقيق ، وشنق زعماء الثورة ، وتابعت الشركة عملها حتى سنة ١٧٨٠ .

وهكذا ربط البؤس والشقاء بين بارا ومارانياون من تاريخ مبكر ، ومازالتا ترتبطان ارتباطاً وثيقا لما بينهما من أوجه التشابه ، ويوجد فى بارا التى تقع عند مصب نهر الأمازون الجبار مطار بيليم الذى وقفت به طائرتك فى بدء رحلتك هذه فى البرازيل .

وتبلغ سعة مصب نهر الأمازون مائتى ميل ، أى إن هذا المصب

أطول من الكثير من الأنهار ، وتستطيع أن ترى الببغاوات المتعددة الألوان تطير فوق مصب النهر فى حين تغفى التماسيح على شواطئه ، وتدفىء الأفاعى نفسها فى الوحل أو تتدلى من الأشجار منتظرة حلول الظلام لتقتنص الحيوانات الصغيرة التى تجىء إلى الماء لتطفىء ظمأها . وهناك أيضاً بقرة البحر التى تجمع بين شكل السمكة وشكل الحيوان ، ويصل طولها إلى نحو عشرين قدماً ، وهى تصاد بالحراب الكبيرة كما يصاد الحوت ، ويستخرج منها زيت له قيمة تجارية كبيرة .

ويعيش الخنزير البرى فى الغـــابات بجوار النهر ، وهو غذاء طيب للوطنيين ، كما يمكن تنويع الوجبة الغذائية ببيض السلاحف والقردة المقلية والتماسيح .

وتطفو فوق صفحة ماء النهر زنابق الملكة فيكتوريا وتثنى أوراقها الخضراء الكبيرة إلى أعلى فتشبه قشرة فطيرة عملاقة .

ولايزال الهنود الذين يعيشون على طول شاطىء النهر شبه متوحشين ، فإن بعضهم لم يروا رجلا أبيض ولم يسمعوا اللغة الإسبانية ولا أية لغة أخرى غير اللغة التى يتحدثون بها ، ويصطادون الحيوان ببنادق نفخ وهى عبارة عن بوصة مستقيمة طويلة مفرغة ينفخ فيها فتنطلق منها سهام ، ويمكن أن ينفخ السهم بسرعة ودقة فى التصويب فيقتل طائراً على مسافة عشر ياردات .

ويتسع مجرى الأمازون فى بعض نقاطه حتى تتعذر رؤية الجانب

الآخر ، وهناك جزيرة فى مجرى النهر تصل مساحتها إلى مساحة بلجيكا ؛ ولكن النهر يضيق فى نقاط أخرى حتى ليبدو وكأنه يخترق القرى الصغيرة التى تقع على ضفتيه ، ويمكنك أن ترى القردة تتأجح على أغصان الأشجار كما تكاد تلتقط ثمار الموز التى تتدلى فوق صفحة النهر .

* * *

وتقع أمابا — كما تقع المناطق الأربع الأخرى — فى وسط الإقليم القليل السكان فى شمال شرقى البرازيل . وهو إقليم فيدرالى يتاخم جيانا الفرنسية والمحيط الأطلنطى ، كما يحدها نهر الأمازون ونهر جارى . وقد اكتشف المنجنيز فى هذه المنطقة سنة ١٩٤١ ، ويعتبر منجم المنجنيز هذا أكبر مشروع على الأمازون ، وتنقل السفن منه كل سنة ٧٥٠٠٠ طن ؛ ومع هذا فإن كثافة سكان أمابا اليوم أقل من شخص واحد للميل المربع .

ولقد شكلت فى أوائل الخمسينيات لجنة من رجال الأعمال لاجتذاب الناس إلى حدود الأمازون لتشجيع قيام الصناعة هناك بدلا من نقل المواد الخام بعيداً عن المنطقة التى تنتج فيها . وتوجد بها حالياً مؤسسات لتقطير الزيت ، وصناعة العلب من الصفيح ، وبناء المساكن الجاهزة ، ودباغة جلود التماسيح . وتحقق فئة قليـــلة من الرواد ثروات خيالية من هذه المشروعات الحديثة ، إلا أن كل هذا النجاح قد تحقق تحت أقسى الظروف ؛ ذلك لأن الغابة تقاتل لإبقاء المنطقة بمنأى عن تقدم حضارة الإنسان

وتعتبر « الأناكوندا » ، وهى أكبر حية فى العالم ، من أخطر مايهدد الإنسان فى الأمازون ، فهى تستطيع أن تحطم عجلا صغيراً ثم تبتلعه بتمامه ، وهناك تجمعات من النمل الصغير يمكنها أن تقضى على البساتين والمزارع . ويتسبب عداء الهنود فى قتل أكثر من ١٠٠٠ شخص كل عام . ولكن الأمراض هى العدو الأكبر للتقدم فى هذا الإقليم ؛ إذ تحطم أمراض الملاريا والحمى الصفراء والتراكوما والمصع وداء الخيطيات إرادة الإنسان وقوته ، ولكن تتخذ الآن خطوات كبيرة للقضاء على الأمراض . ففى أثناء الحرب العالمية الثانية نظمت الولايات المتحدة خدمات صحية خاصة لوقاية صحة العمال الذين يعملون فى صناعة المطاط الخامة ، وتتولى حكومة البرازيل منذ ذلك الوقت ٩٧ ٪ من هذا المشروع الذى كان يتكلف عشرة ملايين دولار كل سنة ، ومن المتوقع أن يجعل المشروع هذه البرارى الموحشة مكاناً صحياً آمناً ، وعندئذ يمكن للبرازيل أن تنتج الكثير من الثروات التى تحرسها اليوم غابات الأمازون وترد عنها أيدى المستثمرين .



١٠

عـادات النـاس

يعيش البرازيليون حياة حديثة ، فهم يحبون المخترعات الجديدة والثياب العصرية الحديثة وتستهويهم أحدث النكات والموسيقى والأنباء العالمية ، ولقد وصلت أجهزة الراديو وآلات عرض السينما وكل مستحدثات المدن الكبيرة إلى أبعد القرى فى المناطق الداخلية ، بل قد تصلها مجلات الأزياء متأخرة شهرين بوساطة القوارب أو على ظهور البغال .

ومن القصص الطريفة أن ممرضة أمريكية من ممرضات الإرساليات كانت تعمل فى منطقة من المناطق النائية على أحد فروع الأمازون وتقطع الرحلة إليها فى عدة أيام بوساطة اللنشات والقوارب . أرادت هذه الممرضة يوما أن تستضيف طفلة من تلك المنطقة المنعزلة فى زيارة مثيرة للمدينة ، وتخيرت صبية سمراء فى العاشرة من عمرها على قدر كبير من الذكاء والوسامة ، ولكنها لم تكن قد رأت مدينة قط ، ولقد سرت الصبية وأسرتها من الدعوة وأعدت الثياب للصبية بمعاونة خياطة محلية لديها ماكينة خياطة جاءتها من أمريكا الشمالية ، وتنتشر ماكينات الخياطة فى كل مكان من البرازيل عدا مناطق الهنود الحمر .

وازداد شغف الممرضة بالصبية طول الرحلة على النهر وفروعه ، وعندما وصلتا أخيراً إلى « بيليم » عند مصب الأمازون كانت الممرضة

متشوقة لملاحظة الانطباعات الأولى للفتاة الصغيرة . فمن اللحظة التى غادرتا فيها المرفأ النهرى كان كل شىء جديداً : الأفاريز المرصوفة ، الطرقات ، المقاهى ، المتاجر ، المبانى العالية ، السيارات الخاصة والعامة ، عربات الترام . ولم تكن الصبية الصغيرة قد شاهدت من قبل أى شىء عـدا الدروب الضيقة والمنازل البسيطة الصغيرة المشيدة من سعف النخيل . ولكنها لم تبد أية دهشة ، بل سارت إلى جانب صديقتها الأمريكية وكأنها قد عاشت فى المدينة طوال عمرها ، ويمكننا تفسير بعض هذا المظهر من جانب الصبية بكبريائها ؛ فهى لا تريد أن يظن أنها طفلة قروية غريرة من الريف . ولكن السبب الرئيسى لعدم مبالاتها بما تراه أنها كانت قد شاهدت كل شىء من قبل فى الأفلام البالية التى وصلت إلى قريتها البعيدة ، ومع ذلك كانت الطفلة تسجل كل ماتراه فى ذاكرتها . ولما حان وقت العودة كان من الصعب إقناعها بالرجوع إلى أسرتها رغم ما كانت تشعر به من الوحشة إليها . ولكنها لما عادت فى النهاية كانت قد اصطحبت معها جميع الأفكار الجديدة التى استمدتها من زيارتها للمدينة الكبيرة » .

ولا يوجد فى المدن الكبيرة إلا القليل مما يعتبر نادراً غير مألوف ، ولكن لكل مدينة تاريخها وشخصيتها التى تميزها عن غيرها على مثال مانرى فى بوستون ، ونيويورك ، ونيو أورليانز ، وسان فرنسيسكو . والحياة فى العمارات السكنية فى البرازيل لا تختلف عنها فى مثيلاتها فى مدن أمريكا الشمالية . فكلها مكتظة بالسكان لوجود نقص فى المساكن فى الفترة

التي تلت الحرب ، ولكن هذا أمر عادى فى البرازيل ، لأن أسرها الكبيرة العدد كانت تعيش دائماً فى منازل مزدحمة — وهذه ظاهرة استمرت من عصر الرقيق عندما كان أعيان البلاد يقيمون فى قصور « سرايات » كبيرة .

والواقع أن كبر حجم الأسرة فى البرازيل من الأشياء التى تلفت نظر الزائر من أمريكا الشمالية . فعندما تتعرف إلى أسرة برازيلية صديقة تجدهم يسألونك عن أسرتك ويحدثونك عن أسرتهم . وليس بغريب أن تجد زوجين فى منتصف العمر لهما اثنا عشر طفلا ، ولو كان للأب وللأم اثنا عشر شقيقاً وشقيقة فإنك تستطيع أن تتصور كم يكون عدد أبناء الأعمام والخالات ، فإذا ضاعفنا هذا لجيل تال لما أمكن حصر أبناء الأعمام من الدرجة الثانية، فكيف بالحال فى الدرجتين الثالثة والرابعة . ومن المحتمل أن يصل نسل رجل واحد نزل البرازيل منذ مائة عام إلى الآلاف ، بل كان من الممكن أن يكون هذا العدد أكثر وأكثر لو لم تكن الأوبئة الاستوائية قد فتكت بالعدد الكبير من الناس فى الأجيال الماضية . وقد زاد نمو سكان البرازيل زيادة كبيرة بعد أن تم قهر الكثير من هذه الأوبئة وبعد ازدياد الهجرة ، ويمكن أن تدرك هذه الحقيقة عندما تعرف أن سكان البرازيل كانوا فى سنة ١٩٤٠ ثلاثين ضعفا بالنسبة إلى ما كانوا عليه فى سنة ١٩٨٠ ، أى قبل نصف قرن فقط من الزمان .

ولا تزال هناك عادة أبوية تقضى بأن يعتبر آباء الأطفال وأمهاتهم عند التعميد ضمن أعضاء الأسرة ، وهم أشخاص حقيقيون لا خرافيون

يتحملون مسئولياتهم تحملا جديا . فعند تعميد أى طفل فى البرازيل يعد والداه فى التعميد برعاية الطفل إذا مات أبواه أو فقدا مالهما ، وهكذا يبقى هؤلاء الأشخاص وثيقى الصلة بأطفالهم عند التعميد طول حياتهم .

ويعتبر رأس الأسرة فى الأسر القديمة « أشبينا » لأطفال الخدم وغيرهم ممن يعملون لدى الاسرة، فيتحمل مسئولية تعليم هؤلاء الأطفال ، ولهذا تكون للأشبين والأشبينات فى كل أعياد الأسرة نفس الأهمية التى لأفراد الأسرة الذين يتجمعون معاً فى هذه الأعياد .

وقد درج البرازيليون على إرسال أبنائهم إلى مدارس قد تكون بعيدة عن بلدتهم ، فإذا ما أتموا الدراسة بها سافروا إلى الخارج لإتمام تعليمهم . وتسبيت هذه العادة فى تشتيت الأبناء فى كل جيل . لأنهم عندما يعودون تطيب لهم الإقامة فى ريودى جانيرو أو فى عاصمة ولايتهم ، وقلما يعودون إلى قراهم أو مساكنهم الريفية . فليس بغريب أن تسمع من أم فى إحدى المدن الصغيرة أن لها ستة أبناء يعيش كل منهم فى ولاية ، وأنها تزورهم زيارات دورية ، أو أنهم يتجمعون فى منزل الأسرة فى العطلات . وتسبب هذه الزيارات المتبادلة التى يقوم بها أفراد الأسر الكبيرة زحاماً على البواخر والسفن النهرية والطائرات والسكك الحديدية وسيارات الركوب .

ويرتبط أفراد الأسرة من كل جيل ارتباطاً عاطفياً وثيقاً طول حياتهم ، كما أن المشاعر والصلات بين الأشقاء والشقيقات تبدو قوية

جداً ؛ ذلك لأنه عندما يعيش الكثير من الأطفال معا فإنهم يدافعون عن بعضهم البعض ، ويحمى كل منهم الآخر ، ويهتم كل فرد منهم بشئون الآخرين مما يولد رابطة قوية بينهم . ويكون أصغر الأطفال مدللا من الجميع ، فلا يجوز له أن يبكى ، لأنه يبقى محمولا على ذراعى أحد أفراد الأسرة الكبار ، أو على ذراعى أحد الخدم . وتبتهج الأسرة بأن تعلم الأطفال الصغار أن يمدوا أيديهم للمصافحة قبل أن يتعلموا الكلام ، كما يلقنونهم بعض الجمل مثل : « كيف حالكم ؟ إننى بخير شكراً لكم » بمجرد تعلمهم النطق ، ومما يضحك أهل أمريكا الشمالية دائماً أن يشير الأطفال إليك إشارة الابتعاد عندما يريدون أن يقولوا لك « أقبل علينا » ، وأن يشيروا إليك مودعين بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذى نستعمله نحن .

ويهتم الناس بسلوك الأطفال ويعلمونهم كيف يكونون حسنى السلوك . وهم يلعبون بالطفل كما لو كان « عروسة » ، ويعجبون بكل مايقوله أو يفعله . وهكذا ينمو كل طفل فى جو من الحب ، ويكون حميد الخصال ، خالياً من الالتواء « الحياء الكاذب » ومن الشعور بالخوف . ويعلم الأطفال الكبار من يصغرونهم كل مايعرفونه ، ومن المناظر المألوفة أن ترى طفلا فى السادسة يعود إلى المنزل ليعلم شقيقه أو شقيقته التى تكون فى الرابعة كل ماتلقاه هو طول يومه فى المدرسة .

وينتج عن ذلك أننا نرى البرازيليين يلتزمون باحترام الغير بدرجة

غير عادية ، لانشاهدها فى أى بلاد أخرى فى أمريكا الجنوبية . والواقع أن كلمة « احترام » من أهم الكلمات لديهم فى حياتهم اليومية .

وهم يستخدمون التعبير Falta de respeito - الذى يعني أن الشخص ينقصه احترام الغير - كأحد الانتقادات العنيفة التى يمكن أن توجه إلى شخص ما . وإذا انصب عدم الاحترام على والد الشخص أو والدته فإن أصدقاءه والمجتمع الذى يعيش فيه لن يغفر له هذا الذنب . ولذلك فإن للوالد - وللوالدة بدرجة أقل - سلطة كبيرة على شئون أبنائهم وحياتهم ، حتى الكبار منهم . ويصدق ذلك بخاصة فى المزارع الكبيرة ، وفى الأسر التى يشترك الابن فيها مع أبيه فى عمله . ولا يخطر ببال الأبناء إطلاقا - دع عنك البنات - أن يناقشوا آباءهم فى أى قرار يتخذه .

ولما كانت الأسر كبيرة الحجم كما شاهدنا ، فكثيراً ما يتزاوج أبناء وبنات الأعمام والخالات . فهناك مجتمع كبير من الأقارب الذين يجتمعون فى مناسبات التخرج فى المدرسة أو حفلات الزواج وأعياد الميلاد وأيام القديسين وغير ذلك من العطلات ، فلا حاجة للشبان والفتيات إلى البحث عن صداقات خارج دائرة أسرهم . ولهذا السبب - بالإضافة إلى أن الأولاد والبنات يذهبون إلى مدارس منفصلة - لا توجد فرص كثيرة يلتقى فيها الشاب بالفتاة . ويتم زواج الفتى من ابنة عمه كأمر طبيعى ، ويسر الآباء لذلك ، لأنه يبقى على ممتلكات الأسرة بين أعضائها .

غير أن إرغام الفتى أو الفتاة على زيجة معينة لم يعد مقبولا فى الوقت الحاضر .

وإذا نحن رجعنا إلى مائة وخمسين سنة مضت لوجدنا الأمور مختلفة كل الاختلاف ، فقد جاء البرتغاليون من أوربا وأسلوب حياتهم يكاد يكون شرقياً ، لأنهم قضوا نحو خمسة قرون تحت حكم المسلمين الذين كان مجتمعهم يعطى الرجل الكلمة العليا فى محيط أسرته . فكان الأب البرتغالى ملكا مطلق السلطة ، وكان منزل الأسرة بمثابة سجن ، لاتخرج منه النساء إلا لحضور قداس أو احتفال كنسى ، وجوههن محجبة ، ورب الأسرة فى مقدمتهن ، ويتبعهن الخدم ، وإذا ما اضطر الرجل إلى السفر إلى أوربا لقضاء عمل من أعماله فإنه كان يحبس زوجته وبناته فى دير حتى يعود بعد عدة أشهر .

كان هذا يحدث فى الماضى . أما البرازيلى الحديث فإنه يشتهر بين جميع سكان أمريكا اللاتينية بشهامته واحترامه للنساء ، وهو زوج وأب متساهل ، يفخر ببناته اللواتى يدرسن استعداداً لمزاولة عمل من الأعمال ، وينصت إلى آراء زوجته ورغباتها ، ويشجعها على الإدلاء بصوتها فى الانتخابات ، ولكنه ـ رغم كل ذلك ـ يعتقد أنه من حقه أن يتحكم فى ممتلكاتها ، ومن النادر أن يترك لها مبلغاً كبيراً من النقود تتصرف فيه ، أو أن يسمح لها بفتح حساب خاص بها فى أحد المصارف . ولا تزال بعض القوانين البرتغالية القديمة قائمة ، وإن لم تكن تنفذ . كما لاتزال البرازيل تمنع الطلاق بين مواطنيها .

غير أن هذه العادات القديمة فى طريقها إلى الزوال بسرعة . ويبدأ الشبان والفتيات حياتهم الزوجية بمفاهيم حديثة ، والحياة التى يحلمون بها

هى أن تكون لهم شقة مكيفة الهواء ، بها حمام ذو جدران من القرميد الملون ، ومطبخ مزود بأحدث الأجهزة ، وتليفزيون ، وجهاز راديو قوى لالتقاط إذاعات الموسيقى من أمريكا الشمالية ، وشاطئ قريب للسباحة . ولكن هذا يتطلب دخلا يفوق مايكتسبه زوجان عاديان — حتى من ذوى الدخل الكبير نوعا . لذلك عليهما أن يصبرا ويقيما مع الوالدين فى بيت الأسرة . وبطبيعة الحال لايستطيع الفقراء أن يحلموا مجرد حلم بهذه الحياة المترفة .

وتنتشر فى كل من ريو دى جانيرو وسان باولو حالياً الوحدات السكنية الصغيرة ، المجهزة بمطابخ حديثة ، كما توجد ندرة فى الخدم . وقد أحدث هذا تغييرا فى عادات الأكل بحيث يزيد الاعتماد على الوجبات السريعة الإعداد . ولكن القاعدة فى معظم أنحاء البرازيل هى أن تتناول الأسرة وجبة الغداء فى وسط النهار ، وهى وجبة كبيرة ، يبدأ الإعداد لها بمجرد الانتهاء من عمل قهوة الإفطار . وفى الجزء الأوسط من البلاد تتكون هذه الوجبة من صنفين متلازمين — هما : الفاصوليا السوداء والرز . وتطهى الفاصوليا فى مرق يضاف إليه بعض اللحم إذا كان فى وسع الأسرة شراؤه . أما الرز فيكون جافا يحتوى على قطع صغيرة من الطماطم وبعض الأعشاب . وتضاف الفاصوليا إلى الرز ويخلطان جيداً قبل البدء فى الأكل ، الذى يتكون فى هذه الحالة من طبق واحد يطلق عليه « رز بالفاصوليا » . فكما يكتسب المرء فى بلادنا « خبز يومه » — يقول البرازيليون إنه اكتسب « رز وفاصوليا » يومه . وفى بعض المناسبات الخاصة تطهى الفاصوليا مع لحوم مدخنة أو مملحة ، أو لسان عجل ، أو ذيل خنزير ، أو نحو ذلك مما يروق

الطاهى . ومن المعتقد أن هذا الطبق الشائع من أصل إفريقى . أما « دقيق المانيوق » الذى ينشر على هذا المزيج من الطعام فهو عادة هندية برازيلية حميمة . ويقوم الأهالى ببشر نوع سام من المانيوق ثم يعصرونه لاستخراج مابه من سائل ، وعندما يجف إلى أقصى درجة ممكنة ، يحمص حتى تطرد الحرارة مابه من سم ، ويكون عندئذ معداً للبيع فى الأسواق . وترى على كل مائدة وعاء جميلا من الخشب المصقول يحتوى على هذا الدقيق. وبالرغم من أن هذا الدقيق يبدو غير مستساغ فى ذوق الأجنبى عن البلاد — إلا أنه يعطى كثيراً من الأطباق نكهة تطيب للبرازيليين .

ومن الضروريات اليومية الأخرى تلك القطع الصغيرة الرقيقة من لحم البقر التى عادة ماتقلى . وقبل أن تشح اللحوم بسبب الحرب كانت قطعتان من هذا اللحم تقومان مقام وجبة ، وعلى كل قطعة بيضة مقلية ، مما جعلها تسمى « البيض على ظهور الخيل » . أما طبق الحلو الشعبى الذى تلقاه دائماً وفى كل مكان فيتكون من الجبن ومعجون السفرجل أو الجوافة الذى يكون شديد الحلاوة وكثيفاً إلى درجة أنه يحتاج إلى سكين لقطعه .

ومن الطبيعى أن تختلف ألوان الطعام المحلية تبعاً لاختلاف الأجناس. ففى الجنوب نجد السجق والكرنب المخمر الألمانى والأطباق الإيطالية والبولندية بالقرب من الساحل. أما مناطق الماشية فى الداخل فتتخصص فى « التشوراسكو » Churrasco ويتكون من لحم بقر مشوى على أسياخ على فحم . وفى المدن يتحول التشوراسكو إلى « بفتيك » مشوى . وتعتبر منطقة ريو دى جانيرو أكثر مناطق البرازيل تنويعاً فى ألوان الطعام ، مع

ميل ملحوظ إلى المطبخ الفرنسى فى المطاعم . ومنازل الطبقة الراقية . أما باهيا والأقاليم المحيطة بها فإنها تفتخر بأطعمتها الافريقية الأصل . ويستخدم الأهالى لبن جوز الهند المبشور فى طهوهم ، ويضيفون توابل غريبة وكميات كبيرة من الفلفل الأحمر . ومن أطباقهم الخاصة طبق يسمى « فاتابا » vatapa ، وهو يتكون من الدجاج أو السمك ، مع جمبرى ولبن جوز الهند ، ويضاف إليه دقيق الذرة ليجعل قوامه كثيفاً ، ويشبع بعد ذلك بزيت الدندى dende oil ، ويمزج به الفلفل الأحمر حتى يصبح لاذع المذاق . ويقدم هذا الطبق مع مكعب من البودنج البارد المصنوع من دقيق التابيوكا يوضع فى وسط الطعام الساخن . ومن الأطباق الأخرى المفضلة لدى أهل باهيا نوع من الحساء السميك يسمى موكويكا Muqueca ، وهو يجهز من سمك مملح ، مقطع إلى أجزاء دقيقة «رفيعة» فى دقة خيوط الحرير ، ويضاف إليه لبن جوز الهند وزيت الدندى .

والكورارا Curara حساء آخر فى منطقة باهيا ، كثيف ولزج لاحتوائه على الباميا . وهناك عديد من الأطباق الأخرى التى تختص بها الأقاليم المختلفة .

أما فى الشمال ، وبخاصة فى بيلم وحوض الأمازون ، فإن الطبق الذى يختص به الإقليم هو الحساء الهندى الذى يسمى بالانجليزية pepperpot ، ولكن اسمه فى البرازيل هو tucupy ، وهى كلمة هندية تشمل جميع ألوان الطعام التى تصنع من عصارة جذور المانيوق المغلية التى تستخدم كمرق فى الطبخ . فهناك حساء البط وحساء السلحفاة وهكذا . وهناك طرق أخرى

عديدة لطهو لحم السلاحف وبيضها . ويعتبر لحم بقر البحر المحفوظ فى دهنه والذى يسميه البرازيليون ميكسيرا Mixira من أفخر المأكولات فى حوض الأمازون ، ولكن ارتفاع ثمنه يجعـــل استعماله مقتصراً على المناسبات الكبيرة .

وقد أنعمت الطبيعة على البرازيل بثروة من الفواكه ، منها الفواكه المدارية التى تتحمل النقل إلى الأسواق الشمالية مثل الأناناس والأفوكادو والموز والبرتقال ، كما أن هناك عشرات من أنواع الفواكه الغريبة التى لا تتحمل التصدير . ولكل جزء من البلاد فواكهه الخاصة به التى لا تنمو فى الأجزاء الأخرى .

وبالرغم من أن الأقاليم تختلف بعضها عن بعض فى ألوان طعامها وفى نواح أخرى ، إلا أن أوجه الشبه فى كثير من الحالات أقوى من أوجه الاختلاف . فهناك عادات يفخر جميع سكان البلاد بالمشاركة فيها . ويعتبر الكرنفال أحد هذه الروابط التى تربط كل أجزاء البرازيل بعضها ببعض . فلكل مدينة وولاية أعيادها الخاصة التى يرقص فيها الأهالى ويمرحون احتفالا بالقديس الحامى لهم أو بعطلة وطنية محلية . فالبرتغاليون والهنود والإفريقيون يشتركون فى حبهم للأعياد والموسيقى والرقص . ولهذا فإن كرنفال البرازيل يتخذ شكل احتفال صاخب فى جميع البلادمن الأمازون إلى ريو جراند دوسول ، يشترك فيه جميع الأهالى من الأطفال إلى الجدود فى الرقص والمرح .

ويدخر الناس نقودهم لهذا الكرنفال قبل ميعاده بعدة أشهر . ويبدأ الاستعداد لهذا الحدث من تاريخ عيد الميلاد تقريباً ، فتمتلىء أعمدة الصحف بالإعلانات عن مشروعات الجماعات والأندية المختلفة ويشرع المؤلفون فى تأليف أغانى جديدة ، تجربها الفرق الموسيقية فى المقاهى والمسارح ومحطات الإذاعة والنوادى وفى المنازل . وسرعان ما يكتسب أكثرها حيوية وأحسنها إيقاعا استحسان الجماهير ، فيرددها الجميع ويتدربون جماعات على أدائها . وتنظم حفلات رقص فى نهاية الأسبوع على نغماتها . وتتفنن شتى الجماعات فى اختيار الزى الذى سيلبسونه فى الاحتفال الكبير . وتشرع الأندية الكبيرة — فى سرية تامة — فى تصميم العربات التى سيشتركون بها فى الموكب العظيم الذى يحاول فيه كل ناد أن يبز غيره من الأندية . ويسمع أزيز ماكينات الخياطة فى جميع المنازل ، لأنه حتى الطفل لابد أن يجهز برداء المهرج ذى الرقبة «المكشكشة» ، حتى يقفز على ذراعى والده على أنغام الموسيقى .

وأخيراً — فى يوم الأحد السابق على عيد الفصح — يبدأ كل شىء . فيستمر أهل البرازيل جميعاً فى الرقص ثلاثة أيام متصلة تنتهى عند منتصف ليل أربعاء الرماد . وفى خلال هذه الفترة يرقصون حتى يكادوا يسقطون من الإعياء ، ويغنون حتى تتحول أصواتهم إلى همسات ، ويتدافعون وهم يتبادلون رش بعضهم بعضاً بأثير معطر من رشاشات صغيرة يحملونها . أو يتقاذفون بقصاصات وأشرطة من الورق التى تتراكم حتى تصبح طبقة تغوص فيها الأقدام إلى الرسغ . وفى ساعات الصباح يختطف القوم فترة

قصيرة للنوم ، ولكنهم لا يضيعون وقتاً يذكر فى تناول الطعام . لأنهم ينسون تماما مواعيد وجباتهم العادية .

وفجأة ، ينتهى كل شىء ، ولا تبقى سوى الملابس الممزقة ، والذكريات والقصص التى تروى حتى يأتى ميعاد الكرنفال التالى . وبالرغم من الهوس والجنون الذى تتسم به هذه الاحتفالات ، إلا أن كل فرد يعرف حدود النظام والأدب . ولا يقدر غير البرازيليين على الاحتفاظ بهذا السلوك المهذب ، كما أنهم ينفردون بهذه الطاقة التى تجعلهم يستمرون فى نشاطهم الحماسى هذه الفترة الطويلة . وفى هذا دليل على أنهم من أكثر أهل الأرض مرحاً ، وأقواهم عاطفة ، وأطيبهم روحاً .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٣٣ — ١٩٦٩

شركة الطباعة الفنية المتحدة
١٥ شارع العباسية
تليفون ٨٣٧٤٦٧





